

رؤية مستنيرة وعصرية لحقائق

سيرة ابراهيم والتفكر
وشهر رمضان واللغة العربية
والمجتمع فى كتاب الله

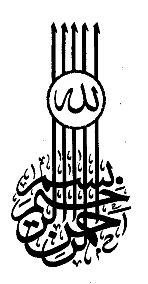
إعداد : عبد الفتاح عساكر

العدد السابع ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م
طبعة أولى

يصدرها المركز الثقافى
المقاولون العرب
عثمان أحمد عثمان وشركاه
٣٤ ش عدلى القاهرة

الكتب التى صدرت عن المركز الثقافى

العدد	الطبعة	التاريخ
العدد الأول	الطبعة الأولى	١٢ ربيع الآخر ١٣٩٣ ١٥ مايو ١٩٧٣
	الطبعة الثانية	٢٠ رمضان ١٣٩٤ ٦ أكتوبر ١٩٧٤
	الطبعة الثالثة	١ المحرم ١٤٠٠ ٢١ نوفمبر ١٩٧٩
العدد الثانى	الطبعة الأولى	١٢ ربيع أول ١٣٩٤ ١٥ أبريل ١٩٧٤
	الطبعة الثانية	١ المحرم ١٤٠٠ ٢١ نوفمبر ١٩٧٩
العدد الثالث	الطبعة الأولى	١٤ رجب ١٣٩٥ ٢٣ يونيو ١٩٧٥
	الطبعة الثانية	١ المحرم ١٤٠٠ ٢١ نوفمبر ١٩٧٩
العدد الرابع	الطبعة الأولى	٢٥ رجب ١٣٩٦ ٢٣ يوليو ١٩٧٦
	الطبعة الثانية	١ المحرم ١٤٠٠ ٢١ نوفمبر ١٩٧٩
العدد الخامس	الطبعة الأولى	٦ شعبان ١٣٩٧ ٢٣ يوليو ١٩٧٧
	الطبعة الثانية	١ المحرم ١٤٠٠ ٢١ نوفمبر ١٩٧٩
العدد السادس	الطبعة الأولى	١٠ رمضان ١٣٩٨ ١٤ أغسطس ١٩٧٨
العدد السابع	الطبعة الأولى	١ رمضان ١٣٩٩ ٢٥ يوليو ١٩٧٩
العدد الثامن	تحت الطبع	
العدد الأول لأبناء العاملين	الطبعة الأولى	١٨ شعبان ١٣٩٨ ٢٣ يوليو ١٩٧٨
العدد الثانى لأبناء العاملين	الطبعة الأولى	١ المحرم ١٤٠٠ ٢١ نوفمبر ١٩٧٩


بسم الله الرحمن الرحيم


مع
القرآن الكريم
رؤية مستنيرة لحقائق الإيمان والحياة


الإهداء إلى
الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ
اللَّهُ
وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ
عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ
إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾



بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

العدد السابع

مع القرآن الكريم دائماً بإذن الله ، وبغير انقطاع نلتقى مع القارىء فى رمضان من كل عام ، لنقدم له حصاد العام فى كتابنا « مع القرآن الكريم » — رؤية مستنيرة لحقائق الإيمان والحياة . وحصاد هذا العام هو خير الحصاد — فيما أخذنا به أنفسنا من تزويد القارىء على طريق هذه الثقافة الدينية المستنيرة بأفضل البحوث ، لأكثر العلماء المسلمين دراية وصدقاً ، وأصدقهم رؤية واجتهاداً ، وهى فى هذا العدد حول البحوث الآتية :

القرآن الكريم وسيرة إبراهيم .

القرآن الكريم والتفكر .

القرآن الكريم وشهر رمضان .

القرآن الكريم واللغة العربية .

القرآن الكريم والمجتمع .

ولأول مرة فى تاريخنا المعاصر ، يقف القارىء على الحقائق التاريخية ، التى كانت واضحة كل الوضوح ، لشعب ، الدعوة على عهد النبى

صلى الله عليه وسلم حول قصة سيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام ، والتى اندثرت أغلب حقائقها فى عهود ضعف المسلمين. ومع كل الأسف مازلنا نردد ما يتناقض مع أكثرها فى أجهزة إعلامنا المرئية والمسموعة والمقروءة .. ولكن من فضل الله علينا نجد أن الكاتب الإسلامى الأخ أحمد موسى سالم فى هذا البحث يقدم بالبرهان الساطع حقائق قصة سيدنا إبراهيم وولده إسماعيل وزوجتيه أم إسماعيل وأم إسحاق ، بكل إشراقها فى التاريخ الدينى ، الذى أكده القرآن الكريم ، بأنه القصص الحق .

وبذلك نستطيع أن نؤكد – بكل إعزاز – أن المركز الثقافى احتفظ لنفسه بالسبق فى نشر الصحيح حول قصة أب المسلمين وخليل الله إبراهيم عليه السلام .

وكذلك فإنه لأول مرة كذلك ، يعرف قارئنا ، لماذا ظهر الإسلام فى جزيرة العرب من خلال هذا البحث الدينى المؤكد بالبرهان العلمى اليقينى .

وفى بحوث القسم الثانى حول القرآن الكريم والتفكر سوف يجد القارىء – سيراً على نفس المنهج الذى التزمنا به منذ إصدار العدد الأول من هذه السلسلة – أن التفكر نعمة من الله ، وفريضة على الإنسان كى يستطيع بهذا التفكر المنهجى ، أن يستثمر الموارد بكل أنواعها ، وهو يعبد الله الذى ليس كمثله شىء بغير صراع ولا حقد ، بالعدل وليس بالظلم ، فى ظل مجتمع السواسية القائم على الشورى .

كما أننا نجد فى هذا البحث عن القرآن الكريم التفكر الذى يقدمه الأخ الدكتور / سيد رزق الطويل المدرس بجامعة الأزهر ورئيس جماعة دعوة الحق الإجابة على السؤال الذى يردده الكثيرون منا عن الشهور القمرية ولماذا كانت عند الله منذ أن خلق الله الأرض ولماذا جعل الله منها أربعة أشهر حرم .

وهذه الدراسة هامة جداً لشبابنا المعاصر فى الجامعات والمصانع ، فى المدن والقرى ، كى يعرف هذا الشباب تاريخ أمته وحضارتها التى انفردت بها من بين الأمم والتى أهلتها لتكون هى مصدر الهداية لكل البشر فى كل العصور .

وفى بحوث القسم الثالث وهو عن القرآن الكريم وشهر رمضان يقدم لنا الكاتب الإسلامى الأخ الكبير الأستاذ أحمد موسى سالم إضاءة جديدة عن الصوم وحكمته ، ثم بيان عن أحوال الصوم عند الشعوب المختلفة كما يصحح لنا من خلال البحث هذا الخطأ الشائع لدى كثير من الدعاة عن أن حكمة الصوم فى رمضان ، إنما هى أن يذوق الأغنياء شدة الجوع ، كى يشفقوا على الفقراء فيتصدقوا عليهم ..!

ومن خلال هذه البحوث كذلك ، يقدم لنا الكاتب الكبير تفسيراً لأسباب تزايد عدد المفطرين فى رمضان ، رغم تزايد نشاط الدعوة فى رمضان فى الحض على الصوم والترغيب فيه . كما يقدم لنا ما يمكن الأخــذ به من الوسائل الناجعة ، سواء من العلماء والدعاة ،

أو من الدولة ،وأجهزة الإعلام لعلاج هذا القصور المتفشى فى الالتزام بأركان العبادة كلها من صوم وصلاة وزكاة ، وبخاصة بين قطاع كبير من المتعلمين والمثقفين .

ومع بحوث القرآن الكريم واللغة العربية فى القسم الرابع من هذا العدد نلتقى مع الأخ الدكتور / محمد رشاد خليل أستاذ الثقافة الإسلامية بكلية التربية بجامعة الرياض . ومن خلال البحث الأول من هذا القسم يقدم الكاتب ، بالبيان والبرهان ، خصائص اللغة العربية ، التى تميزت بها بتمامها وكمالها ، فى جميع المجالات اللغوية على غيرها من اللغات الأخرى ، كما يوضح لنا الكاتب العوامل التى أدت إلى ارتقاء اللغة العربية ، حتى تم بيانها بهذا اللسان العربى المبين ، الذى تنزل به القرآن الكريم ، الذى لاريب فيه هدى للناس ، وهى العوامل التى اتسعت لها حياة العرب الحرة بين آفاق السموات والأرض نحو المزيد من العلم اليقينى ، غير الظنى ، وغير الفلسفى ، فى مراحل التعليم الثلاث وهى التلقى بالحواس عن الواقع ، والتلخيص بالعقل لمدركات الواقع ، والبيان باللسان عن المستفاد من العلوم من حركة الواقع .

وفى البحث الثانى ، من هذا القسم ، يوضح لنا الكاتب أسباب العجمة ،وشيوع اللهجات العامية بين قطاع كبير من أبناء الأمة العربية ، ويؤكد الكاتب أن انتشار هذا الوباء بين جماهير شعبنا العربى فى كل مكان ، يساعد على الابتعاد عن الطريق المباشر لتدبر كتاب الله

وفهمه وتطبيقه . ولقد كان انتشار العامية هدفاً لجميع أعداء الأمة العربية والإسلامية قديماً وحديثاً .

ونستطيع أن نؤكد للقارىء الكريم – فى ضوء هذا البحث – أن انتشار اللغة العامية ، يساعد على فرقة العرب وتفكك وحدتهم ، ويباعد بينهم وبين كتاب الله ، الذى جعلهم به خير أمة أخرجت للناس .

على أن الإضافة الجديدة والمثيرة لجميع طلاب العلم الدينى وثقافته المضيئة باتساع المكان والزمان ، هى هذا البحث القيم الذى نختم به أقسام هذا الجزء السابع من مسابقات القرآن الكريم ، والذى يقدمه أيضاً كاتب مصر الإسلامى أحمد موسى سالم بمنهجه وحقائقه وتصحيحاته غير المسبوقة للفكر الإسلامى ، والاجتهاد فيه منذ هذا الاحتجاب المؤقت لعلوم عصر الصحابة والتابعين فى أعقاب عصر الخلفاء الراشدين .

إنه البحث الذى يقدم فيه الكاتب المجدد فى إطار الالتزام بمحكمات القرآن والسنة رأيه المشرق بالحجة من مصادر الدين ، وبالرؤية لأحداث التاريخ ، والإحاطة بواقع العصر ، وبخاصة واقع الشعوب الهندية والأوروبية – فيما نلخصه هنا فى الحقائق والنتائج الآتية :

الفلسفة منهج تجريدى غير علمى ، وفكر ظنى غير يقينى ، يعجزه أن يتوصل إلى إدراك البرهان على الله الحق والإيمان به ، كما جرى ذلك بين الشعوب الهندية ، وبدلالة الفلسفات اليونانية القديمة والمعاصرة .

.. الفكر الديني ، علمي غير تجريدي ، ويقيني غير ظني ، ولذلك فهو فكر غير فلسفي ، ومن أجل ذلك فإن الزعم بأن هناك « فلسفة إسلامية » في الماضي ، كما زعم ذلك المعتزلة وغيرهم ، أو في الحاضر .. ليس صحيحاً في ضوء الحكم الديني والعلمي والعقلي والتاريخي على الفلسفة ، ومع حكم الواقع أيضاً .

.. العقل في اللغة العربية القرآنية هو الأداة الصحيحة والسليمة بشروطها للتفكير ، ولذلك فهو أداة الإنسان المتفتح على واقعه وماضيه ، والمتحرك في هذا الواقع باتجاه مستقبله ، لكي يدرك بالبرهان على الله في كل ما حوله ويؤمن . العقل هو أداة الإيمان الصادق ، قولا وعملا ، فكل عاقل مؤمن ، وكل مؤمن عاقل .. ولا خلاف بينهما ، ولا انفصام بين أحدهما والآخر في حكمة الله وفضله ..

ونكتفي بهذا القدر .. ونحن نستزيد الله من فضله ، ونستحث أنفسنا على الوفاء بحقه .. والحمد لله رب العالمين .. له الحمد في الأولى والآخرة ، وهو الرحمن الرحيم .

القاهرة في { ١ رمضان ١٣٩٦هـ / ٢٥ يوليو ١٩٧٦م }

عبد الفتاح عساكر

بحوث القسم الأول

القرآن الكريم وسيرة إبراهيم

يجيب عنه

الكاتب الإسلامي
أحمد موسى سالم

السؤال الأول :

ماهى الحكمة فى أن يتجه الله بإبراهيم فى هجرته — بعد نجاته من العراق — إلى مكة « بواد غير ذى زرع » ليقيم القواعد من بيت الله هو وولده إسماعيل ، وليدعو الله معه أن يجعل من ذريتهما حول البيت هذه « الأمة المسلمة » لله ، كما ظهرت بظهور النبى المصطفى عليه الصلاة والسلام ونزول القرآن الكريم وذلك فى قوله تعالى :

« وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ • رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ • رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ». (البقرة : ١٢٧ — ١٢٩)

الإجـــابة :

عندما انتهت دعوة إبراهيم بالعراق إلى قرار طغاتها وكهنتها بإحراقه ، كانت آية الله بنجاته من النار هى بشرى هجرته ، وانقضاء محنته ، فخرج من الأرض الظالمة يسعى — والله معه يهديه — إلى أرض مباركة ، ورسالة جديدة ، وموعود أعظم . ويلخص القرآن الكريم آخر عهد

إبراهيم بكيد أهل العراق فى قوله تعالى :

« قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْقُوهُ فِى الْجَحِيمِ • فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ • وَقَالَ إِنِّى ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّى سَيَهْدِينِ • رَبِّ هَبْ لِى مِنَ الصَّالِحِينَ • فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ ».

(الصافات : ٩٧-١٠١)

تقطع هذه الآيات بأن نجاة إبراهيم من هذه النار المتأججة التى ألقاه أعداء الله فيها ، كانت ببشرى النجاة والأمن والسلام من ربه هى فجر مرحلة هذا التحول الحاسم فى التاريخ الدينى ، الذى كان إبراهيم عليه السلام واسطة عقده ، وبداية هذه المرحلة الخاتمة من رسالات الرسل من أبنائه . وهكذا منذ خرج إبراهيم ناجياً من العراق ، ودافعاً بأقدامه على الطريق الرحب المضىء مع عهد الله الجديد ، كان قد استبان الغاية التى يدفعه الله بها فى حكمته إلى المكان الجديد . . ولكن إلى أين ؟ . . لم يكن يعلم . . ولذلك فقد توكل على الله ، واعتزم السير إلى الله ، وذاهباً إلى الله . . الذى سيهديه إلى هذا المكان كما قص القرآن الكريم من قول إبراهيم ودعائه :

« وَقَالَ إِنِّى ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّى سَيَهْدِينِ ». (الصافات : ٩٩)

والآن عندما نحاول أن نتعرف على هذه الحكمة التى أوحى الله بها لإبراهيم — بعد نجاته من محنة العراق — لكى يسير مهتدياً بربه إلى مكان فى الأرض سيرشده إليه ، ويبوئه فيه ، سنتبين حاجتنا إلى تتبع مشرق

هذه الحكمة من واقع ابتلاء الله الأول لإبراهيم فى تلك الأرض التى نشا بعشيرته فيها ، والتى سار فى شبابه وفطرته يتفكر فى برهانه على الله الواحد تحت سماواتها ، وعبر آفاقها ، حتى إذا ما استوى له بمشيئة الله الذى صنعه على عينه — أن يدعو كبراءها وكهانها إلى هذا الإله الحق ، الأحد ، الذى لايأفل نوره ، ولاتنقضى آياته ، هاجتهم دعوته ، وأحرجتهم حجته ، وأقلقتهم شجاعته — ومن بين هؤلاء أبوه — فألقوه قرباناً لآلهتهم وأوثانهم فى النار . . فأنجاه الله الحق الذى أسلم إليه ، وجعل نارهم برداً وسلاماً عليه . .

الدعـــوة بالعـــراق :

بعد تنقية مختلف المصادر التاريخية القديمة والمعاصرة فى العالم حول سيرة إبراهيم للتوصل إلى أصدق الأخبار عنه ، نصاً أو استنتاجاً ، نتبين أنه عليه السلام نشأ بالعراق نحو سنة ٢٠٠٠ ق . م ، وأنه كان واضح الانتماء إلى عشيرة من عشائر العرب الكلدانيين حديثة الهجرة إلى العراق ، وحيث كان العراق مع الشام ومصر مصباً — منذ فجر التاريخ — لهذه الهجرات القبلية التى تلاحقت من الجزيرة العربية باتجاه أحواض الأنهار المحيطة بها ، فى موجات ينتظم تدفقها فى سنن الله فى حقب زمنية متساوية تبلغ الحقبة منها بضع مئات من السنين . .

كان إبراهيم الفتى يحمل بهذه الهجرة الحديثة إلى العراق — فى قلبه وعقله وسلوكه — هذه الجذوة التى لم تنطفىء بعد من خصائص أخلاق آبائه الصالحين وتراثهم ، بل لقد زاده توهجاً بهذه الخصائص ، وانطلاقاً

بطاقاتها ، واستنارة بدلالتها ، كل ما أخذ يفطن إليه حوله من مشاهد هذا المجتمع المهيض المتمزق ، الذى استكان إلى إفك الأوثان ، وسلطان الكهان ، بعد أن « ركد » الجميع — حكاماً ومحكومين — يتغالبون على خيرات الأنهار الجارية : دجلة والفرات ، حتى « أسنوا » فى مواقعهم منكبين على وجوههم ، وقد نسوا الله فأنساهم أنفسهم ، وأذلهم بأيدى أربابهم وكبرائهم . .

هذه الخصائص الدينية الفطرية كما ظل نبضها الدافىء ، وضوؤها المرشد ، حياً فى قلب إبراهيم وعقله ، كانت فى إطار حرية إرادته ، وجذوة إيمانه ، ونضرة كرامة الإنسان أمام عينيه ، تتمثل له فى ألفته منذ شب عن الطوق إلى السير الدائب ، وإلى التفكر فى خلق السماوات والأرض ، والتدبر لهذا البرهان العقلى والحسى على الله الواحد الذى لا إله غيره . . البرهان الدائم الإشراق فى اتساق آياته التى لاتنفد ، وفى دلالتها بهذا الاتساق الذى لا تفاوت فيه ، ولافطور به ، على هذا الإله الحق ، فى وعى كل فطرة سليمة ، وفى هدى كل نفس سوية . .

بهذه الخصائص الحية فى حضانة ملكوت السماوات والأرض ، ومن خلال عمله البسيط والمتحرر برعى الغنم ، وتعقب المرعى والغيث ، استوى لإبراهيم أن يعيد صياغة برهانه الحسى ، والعقلى ، والعلمى على الله ، بهذا المنهج الذى تفرد به فى حنيفيته ، وهو يرفع حقيقة الإسلام الموروث عن آبائه من الرسل السابقين ، إلى مستوى حجة الله التى لا تقبل النقض ، أى إلى مستوى الحجة الباقية إلى اليوم ، تهدى المستبصرين ، وتبهت الكافرين ، متجلية فى القرآن المبين . . إلى يوم الدين .

مواجهة الإفك :

بهذه النبضات الدافئة فى صحوة فطرته ، وبهذه الومضات المضيئة له على الطريق إلى ربه ، أخذ إبراهيم يستهدى إلى الله ليخرج إليه من منزلق الشرك فى هاوية العراق ، وليبرأ له من إفك أوثانها التى شاء الله وهو يصنعه على عينه أن تحدق به ، وتكاد أن تسد كل طرق البراءة منها عليه ، فقد كان أبوه آزر سادنا من سدنتها ، وخادماً من خدامها ، يرعاها ، ويمسح الغبار عنها ، ويتقرب إليها ، ويتحدث للمقهورين والضائعين عن قدراتها وأسرارها ودرجاتها ، وكلما التمس إبراهيم أباه وجده ضائعاً ، منكس الرأس ، شاحب الوجه ، وسط هذه التماثيل الحجرية والخشبية الشائهة الوجوه ، الباردة النظر ، الناطقة بلعنة من نحتها ، ومن عبدها ، ومن كهن لها . .

هكذا كان إفك الأوثان المحدق بإبراهيم حريا أن يضيق له صدره ، وتتبرم به فطرته ، وتتصاعد فى مواجهته طاقاته ، ويتربى ويسرع بها فى نمائه وعيه وعقله . إنه يقبل التحدى ، ويسرع إلى كتاب الله فى الملكوت المرئى والمسموع من حوله ليقرأ فى جوانبه ، وليستخرج على ضوء فطرته برهان هذه الحقيقة فى هذه الفطرة . . برهان الدلالة الحية والدائمة فى فطرة المخلوق السوى حين تشير له إلى الله الخالق الحى . . بنفس الدقة ، بل أدق من إشارة إبرة البوصلة المغناطيسية إلى قطبها المحكومة به ، بقدر ما تكون محررة إليه من أية جاذبيات جانبية . .

ويبلغ إبراهيم المحرر إلى الله بحب الله ، والإسلام إلى الله ، حدا من

سيره بين الآفاق ، ومن تفكره فى آيات البديع الخلاق ، يكشف به عن منهجه الجدلى الذى تفرد به بين من سبقه من الرسل ، والذى جعل منه منارة الطريق ، والحجة الباقية فى ذريته من الرسل . هذا المنهج الذى يحتج به لنفسه ، ويحتج به على من لم يؤمنوا من قومه ، ليكون كما هو الأسوة الباقية بحجة الله المنتصرة . . الأسوة فى مجال التفكر ، وعلى منهج البرهان ، وعلى طريق الإسلام الحق لله الحق الرحمن ، الذى خلق الإنسان ، وعلمه البيان ، وألهمه إليه الحجة والبرهان . .

ويقص الله سبحانه فى كتابه الحكيم من سيرة إبراهيم ، ومن دأبه فى مواجهة أبيه حتى ينيب ، ومواجهة قومه حتى يؤمنوا فيقول سبحانه مما علمه من حجته إليه ، ومن برهانه عليه :

« وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّى أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِى ضَلَالٍ مُّبِينٍ * وَكَذَٰلِكَ نُرِى إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ * فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ * فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّى فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ * فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّى هَذَا أَكْبَرُ ، فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّى بَرِىءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ * إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْض حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ * وَحَاجَّهُ

قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّى فِى الله وَقَدْ هَدَانِ • وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكون بِهِ إِلاَّ أَن يَشَاءَ رَبِّى شَيْئًا وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ • وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِالله مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا • فَأَىُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُم تَعْلَمُون • الَّذين آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُهْتَدُونَ • وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِه نَرْفَعُ دَرَجاتٍ مَنْ نَشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حكيمٌ عَلِيمٌ »
(الأنعام : ٧٤ - ٨٣)

بهذه الآيات البينات يحكم الله على لسان إبراهيم ، وفى أسوة عمله ، وبالغ حجته ، وصريح دعوته ، هذه الحقائق التالية ، وهو يلقى بها إلى من عرفوا الله ولكنهم أشركوا به ، فعبدوا من خلقه من خلعوا عليهم أسماء الآلهة من الشمس والقمر والكواكب :

أولا : الله سبحانه هو النور ، وهو فى أحديته وصمديته النور الذى لايأفل ، فى سر الإنسان وعلنه ، وفيا يعلمه الإنسان ومالايعلمه . وإذن فكل مايأفل وإن أنار أو أضاء بعض الوقت ليس هو الله ، وإنما هو من خلق الله .

ثانيـاً : المؤمن بالله الحق بفطرته يهديه الله إليه بنوره حيثما وجه وجهه إليه يطلب الهدى ، وهو يهديه إلى حجته التى يجادل بها عنه كل من كفر

به . وطريق المنهج الدينى والفطرى والعلمى إلى هذه الحجة والبرهان — كما سار عليه إبراهيم — هو تزييف كل الزائف من الآلهة ، كواكب كانت أو أقماراً أو شموساً أو حجراً أو بشراً . . بذلك يبقى وجه الله الحق . . يبقى النور الذى لايأفل . . يبقى فى سر الإنسان وعلنه . . ويبقى حيثما يوجه وجهه إليه يطلب الهدى منه .

ثالثاً : علامة صحة الإيمان كما يبصرها المؤمن فى نفسه ، وكما يجد آثارها فى سلامة قوله ، وصحة عمله ، هى الأمن . . الأمن البالغ بسكينة القلب والنفس ، وبصحوة العقل والوعى . . وهى علامة تؤكدها العلامة التى تتناقض معها فى قلوب المشركين ، وفى تمزقات أنفسهم ، وانفصامات عقولهم ومدركاتهم ، وهى . . الخوف . . والقلق . . والرعب .

رابعاً : هذه العلامة من أمن المؤمن ، وما يقابلها من خوف المشرك وقلقه ، ترجع ببداهة الحق — كما نصت عليه الآيات السابقة من حديث إبراهيم إلى أبيه وقومه — إلى أن من أسند ظهره إلى الله بالإيمان ، ومن وكل أمره إلى الله بالهدى . . إلى القادر المنعم . . إلى الرحمن الرحيم . . إلى عالم الغيب والشهادة . . هو « الأحق بالأمن » . . دون من وكلوا أمورهم ، ومن أسندوا ظهورهم ، إلى شفاعة الأصنام والأوثان ، وإلى إفك الآلهة الكاذبة من الحجر أو الإنسان . .

خامساً : هذه هى حجة الله — فى حديث إبراهيم إلى أبيه وقومه — يزهق بها من أفواه المؤمنين به ، والمسلمين إليه ، باطل من ركد ماؤهم ،

وأسنت أنفسهم ، حتى أكلتهم الشهوات ، ومزقتهم المخاوف . . إلا إذا تذكروا . . فأنابوا إلى الله الذى عرفوه ، وأيقنوا أنه لاشريك له يتوسلون به إليه ، فصحت فطرتهم فى ضوء رسالات رسله إليهم . .

أسباب الخسران :

ويمضى إبراهيم فى إنكاره على أبيه وقومه هذا الذى سقطوا إليه من إفك الأوثان ، ومن الشرك والخسران ، فهو يتربص بأصنامهم ليكيدها ، وليثبت بالحجة التى آتاه الله مدى هوانها على الله وعلى الناس . وهكذا فى غفلة منهم ، وحيث استهانوا به فى غفلاتهم ، حطم بمعوله مجموعة أصنامهم فى هيكل من هياكلهم ، إلا « كبيرها » ليكون عليه من الشاهدين ، إن كان يملك أن يعى وينطق مع الناطقين !

ويقص الله سبحانه من قصصه الحق فى سيرة إبراهيم فيقول من أمره مع هذه الأصنام التى بهتها وبهت عابديها بحجة الله فى قوله وعمله :

« وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ * إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَٰذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ * قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ * قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ * قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ * قَالَ بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ * وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا

مُدْبِرِينَ ۝ فَجَعَلَهُمْ جُذاذاً إِلاَّ كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ۝ قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ ۝ قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ ۝ قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ۝ قَالُوا أَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ ۝ قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَسْئَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ ۝ فَرَجَعُوا إِلَى أَنفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنتُمُ الظَّالِمُونَ ۝ ثُمَّ نُكِسُوا عَلَى رُؤُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنطِقُونَ ۝ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ مَالَا يَنْفَعُكُم شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ ۝ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ۝ قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانْصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنتُمْ فَاعِلِينَ ۝ قُلْنَا يَا نَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلاَمًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ » (الأنبياء : ٥١ - ٦٩)

لقد كاد القوم أن ينيبوا إلى الله أمام هـذا الأمن الراسخ ، والسكينة السابغة ، فى قول هذا الفتى المغمور بينهم . . الذى يقال له إبراهيم . . لقد كادوا أن ينعطفوا مع إشراقة الحق إلى الحق . . ولكنهم نكسوا على رؤوسهم . . وتذامروا لينصروا باطلهم . . لينصروا أسباب الخسران . . والشرك . . لينصروا المذلات والشهوات . . لينصرو الخمر والشذوذ . . لينصروا اللغو واللهو . . لينصروا تقوس الظهور وغمغمات النفاق . . لينصروا عجمة الألسنة وغيبة الأخلاق . .

ومن قبل وقف إبراهيم أمام ملكهم الجبار . . الملك الذى تقدست فيه فوق رعيته جرائم القسر ، وتألقت على تاجه رموز الشهوات ، وضجت فى عينيه ألسنة الحماقات وبوارق الشهوات ، وقد اتكأ على عرشه المنهار فوق قوائمه من كهنوت الكهان ، وإفك الأوثان ! . .

وفى قصة إبراهيم وهو يقتحم عرين هذا البشر المؤله يقول تعالى فيما أوحى به فى كتابه ليبلغ أسماع من ألقى السمع وهو شهيد :

« أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِى حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِى رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّىَ الَّذِى يُحْيِى وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِى وَأُمِيتُ * قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللهَ يَأْتِى بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِى كَفَرَ وَاللهُ لَا يَهْدِى الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ »

(البقرة : ٢٥٨)

لماذا ظلم كل هؤلاء أنفسهم : أبوه . . والسدنة . . والملك . . . والمترفون القاهرون . . والمستضعفون المقهورون من قومه ؟

لماذا تجمدوا لا يتذكرون . . وإذا قيل لهم ارجعوا عن خسرانكم وهوانكم وشرككم . . لايرجعون ؟ !

لقد آتى الله إبراهيم الرشد . . والحجة . . وعلمه مالم يكن يعلم . . فلماذا لم يرشدوا بدعوته فيؤمنوا . . ولماذا لم تهزهم حجة الله فى قوله فيعقلوا ويسجدوا . . ؟ !

يوجد بتر من اصل الرواية

هكذا قال إبراهيم فى نفسه ، وهو يفتح كل دروب
ويواجه بالاستنكار والتحطيم أنصاب وتماثيل هذا الا
فى طاعته على وجوههم . . لم أسمعه يقول هذا القول بـ
جميعاً منطوقاً بأفصح البيان فى سيرة حياته ، وعلى
وحيث انتهى المطاف به إلى واد غير ذى زرع فى مـ
فى وطنه الأم ، فأقام البيت ، وأسكن الذرية ، ودعا
لقيام الأمة المسلمة . . من ذريته . . لقد سأل نفسه
. . ولماذا تثاقلوا مع الشرك ونكسوا ؟

وهكذا مع حديث النفس فطن إبراهيم بما علمه ا
الرشد ، إلى هذه الأسباب التى قعدت بقومه فى العرا
للإيمان . .

كان أول هذه الأسباب أنهم أخلدوا إلى الأرض .
العاجل ، والخصب الوفير ، على شاطىء نهرين . .
تحت أقدامهم فجموا عليه ، أى ركدوا واستقروا
عن السير فى الأرض كما كان أجدادهم بالجزيرة الذين
عليه ، وتتابعت الرسالات إليهم بتصحيح الإسلام إليه
حيل بينهم وبين العلم الحق فى ملكوت السماوات وا
الأبواب بينهم وبين الآفاق المشرقة ، والسماوات
للضيم فى واقع ساكن خامد وراء الواقع المتحرك الحى
والعمى فى انكبابهم على المتاع الحاضر وهم يتغالبون علي

.ذاً وبطنة ، أو جوعاً ومذلة . . بذلك مرضت اللغة
روهنت أوتار الصوت فى حلوقهم ، واعوجت أداة
وبدأوا وقد تقوست ظهورهم باتجاه أرباب البشر
لدر العجمة إلى هاويته ، ويستدبرون إشراق العربية
قمه . .

اللسان ، واستبهام البيان ، فقد العقل أداته المعبرة
فغاص فى ظلمته ، حتى استقر على هاويتهم وهاويته
لعقل ، وليتلعب الخوف بمسارات الهوى . . ولتطبق
على هؤلاء الراكدين الراقدين — آخر الأمر —

ن يتكلمها إبراهيم ؟ . . لقد كان يتكلم لغة قومه على
ن يتكلمها بين بداية الصحوة بها للحق ، ونهاية الغفوة
كان يتكلمها على أول طريق الإنابة ، مستحضراً بها
ى طريق إنابته ورشده ، معانى اللغة الفصحى ،
. لقد كان يستحضر هذه المعانى الحية ، والحقائق
لمية والدينية ، كما لو كانت هى « الرؤيا بالحق »
وهج رغم قصورها بكل ما كانت تحمله من الحجة ،
ن صدق الإيمان ، وصحة البرهان ، وحقائق الوحى..

ى المبين هو الذى يغيب عن الطريق إلى الله غياب
جم بالليل ، فيغيب معه العقل ، وتتهاوى من بعده

الحجة ، وبذلك يقع المستهدى فى التيه والشتات ، إلى أن يشرق بيان لسانه ، وتعرب مرة أخرى أحرف لغته ، هادية بنسقها وإيقاعها ، وبجملها وتفصيلها ، حواس عقله ، وإلهام نفسه ، وبصيرة فطرته . فعندئذ تصبح آيات الله المشهودة فى ملكوته والمسموعة فى وحيه إلى رسله حجة ملزمة لعقله السميع ، ووجدانه السوى ، ولبه المتفتح . .

كيف إذن . . وهذه هى الأسباب وراء نكوص قومه بالعراق عن دعوته . . كيف كانوا يؤمنون ؟ . . وإلى من بعدهم كان يمضى برشده ليرشدوا ، ويدعو بدعوته ليؤمنوا . . ؟

كيف . . وتغيير هذه العلل الدافعة إلى الإفك بالأوثان ، والشرك بالرحمن ، يقتضى تغيير المكان . . تغيير عناصر المكان . . يقتضى التغيير البيئى والجغرافى بما يتحقق معه توافر العوامل الصحية لاستحياء واستنبات وتنمية خصائص اللغة العربية المبينة ، وملكات العقل الراشد السليم . . . ومثل هذا التغيير الشامل . . كم يقتضى من زمن طويل لتنشيط طفرة هذه الخصائص ، وتأكيد سيادتها على غيرها ، وتنميـــة قابلياتها وقدراتها فى الإنسان الذى « نصفيه » وراثياً ، كما كان يصفى العرب الخيل والإبل ، لتملك قمم معروفها ، وتجود بأفضل ما أودعه الله من الفضل فيها . . ! ؟

نعم . . هكذا استهدى إبراهيم بما آتاه الله من الرشد — وقد عرف أسباب نزول قومه بالعراق عن أسباب هذا الرشد — إلى الطريق الرحب ، المتسع زماناً ومكاناً ، لكى يسير برسالته عليه . . لقد استهدى إلى هذا الطريق — طريق الخروج برسالته من العراق — عبر حديث طويل إلى نفسه ،

ودعاء إلى ربه ، فى كل مراحل ومشقات مواجهته لنكوص قومه عنه ، وفى كل غرائب وعجائب صدهم له ، واستهانتهم به . . .

لقد تحدث إبراهيم بهذا إلى نفسه ، ودعا بأصدق الدعاء فى نجواه إلى ربه . ولست — مرة أخرى — أقول سمعته قال . . ولاقرأت رواية من قال عنه أنه قال . . ولكنى أستجمع ذلك من سيرته الناصعة فى كتاب الله ، ومن أصدق مابقى عنه مماحملته كتب الله من سيرته ووصاياه ، ومن هذا القليل الصحيح باتساق قصص الوحى ، وسيرة الرسول ، ونصرة الإسلام ، فى أكوام الكتب التى كتبت عنه باسم جميع الأديان فى بقايا التراث القديم ، وفى الكتب المعاصرة بشتى اللغات . .

نحو الموعود الأعظم :

وعندما حل موعد السير على أول الطريق الصحيح لمشرق الحنيفية ، ولمطلع الدعوة بها إلى الإسلام فى تلك المرحلة الثانية من مراحل التاريخ الدينى ، وكان كيد أهل الإفك فى العراق قد بلغ موعده الفاصل أيضاً فوضعوا إبراهيم فى هذه النار التى جعلها الله برداً وسلاماً عليه ، كماجعلهم الأسفلين بما لم يبلغوه من الكيد له . . وهنا وقد تحقق لإبراهيم « الأمن » الذى وسع الله به المؤمنين الصادقين ، تصديقاً لما سبق أن أعلن قومه به ، فانحسرت عنه النار بأمنه مع الإيمان ، وبراءته من الشرك ، أصبح يرى لأمر واضحاً له وهو يضع قدمه على أول هذا الطريق الصحيح لرسالته لجديدة . . أصبح يرى أن أعظم ثمرات هذه الدعوة التى لم تنجح يتجمع

له فى أول طريقه الصحيح نحو هذه الرسالة التى سوف يتحقق لها الشروق — فى ذريته — بغير أفول . .

لقد تحدث إلى نفسه واثقاً بوعد ربه ، مدركاً لحكمته ، شاكراً لأنعمه .. تحدث عن الأمة المسلمة يرجو أن تكون من ذريته . . وأن المكان لظهورها هو الوطن الأم . . وأن الغاية هى اصطفاء واستحياء لسان الإيمان وأخلاقه . . فتحيا باستحياء ذلك آية العقل . . وتشرق بآية العقل شمس البرهان على الله دون أن تغيب . .

الزمن سوف يطول . . والغفلات قد تعرض . . ولكن الله الذى آتاه رشده ، وعلمه حجته ، وجعل نار الكائدين له « برداً وسلاماً » سيجعل له وللمحسنين من ذريته نوراً من نوره يهتدون به إليه ، ويسلمون مخلصين له ، ويأمنون وينتصرون به . .

وهكذا سار إبراهيم مستدبراً إفك أهل العراق ، مقبلا على رسالته الباقية المشرقة من أول الطريق . . لقد سار يستّهل دعاءه بمجمل رسالته ودعوته ، وبأعظم الهدى فى غايته وحجته . . فهو يقول فى انطلاقة الشعاع المحدود ، واستبشارة وجه الرسول الموعود :

« إِنِّى ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّى سَيَهْدِينِ » (الصافات : ٩٩)

يقولها ويكررها . . يقولها بغير انقطاع . . يقولها وإن صمت مراراً أو طويلا عن النطق بها . . فهى ناطقة فى صمته . . ومشرقة فى وجدانه .. ومنقذفة من قلبه . . وبالغة فى حجته . . إنه يقولها وهو يقرنها بهذا الدعاء

الذى لاينفصم عنها . . الدعاء لذريته . . الدعاء لبدء النشأة لهذه الأمة « المجتباة » التى سيبعثها الله من صلبه ، تملأ الأرض — على قلة عددها — — هدى ونوراً ، وخيراً كثيراً . . .

إنه يدعو فيقول :

« رَبِّ هبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ » (الصافات : ١٠٠)

فيبشره الله من فوره بما أنبأه به من مسار رسالته ، إذ يوحى إليه بأنه استجاب دعاءه بنواة هذه الأمة المسلمة التى دعا بها . . . فلقد بشره الله بالبكر الصالح من ذريته . . بشره بالغلام الحليم فى قوله تعالى :

« فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ » (الصافات : ١٠١)

أى بشرناه برسول يبلغ مرتبة الحلم ، التى تجمع الحكمة إلى العلم ، وهو بعد لايزال غلاماً . . . نعم لقد بشره بإسماعيل ، جد محمد صلى الله عليه وسلم ، غاية الطريق ، وتمام النعمة ، الذى شهد مع أبيه الآيات عند بيت الله . . . وأقام قواعده معه . . بعد أن عبرا معاً محنة رؤيا الذبح ، وتجربة صحة الإسلام ، وقد أشهدهما الله آية إخلاصهما إليه . . فوق حب الحياة . . وحب الولد . . وليكون إسماعيل الذى يعنى بلغة إبراهيم حينذاك « استجابة الله » . . ليكون هذا الغلام الحليم منذ صباه — كما كان أبوه — فوق حكمة أهل السن والرأى . . ليكون هذا الصادق الوعد على أول الطريق إلى نزول القرآن المبين . . وظهور الرسالة الباقية . . وبعثة الرسول المصطفى خاتم النبيين . . هو الداعى عند هذا البيت إلى الله بعد أبيه . .

يوجد بتر من اصل الورقة

ولتنمو وتزدهر الشجرة الطيبة من بعده ، من أبنـ
العرب المستعربين ، من أجل تمام نعمة الدين ، بينما
الطيب الثابت فى جذور رسل الله ، حتى تبلغ بفرعهـ
للعالمين ، ونوراً باقياً محفوظاً فى كتاب الله المبين . .

ويسير إبراهيم بعد بلوغه شرقاً أرض العرب الكـ
– كما هداه الله باتجاه الحجاز ، بعيداً عن الخرافة التى
يقولون بغير حق ، وبما لم ينزل به قرآن ، بزيا
وتعرضه للمهانة فى قصر فرعون ، ذلك أن أول المسلمـ
هذا الزعم أن من لقى الشدة والتكذيب والكيد على يد ـ
نفسه – وهو الراشد اللبيب – إلى جبار مثله فى مصر . ـ
السلام كان على بينة من أمره ، وعلى نور من ربه ،
الشام وفلسطين والأردن جنوباً باتجاه الحجاز . . الأ
عامداً إليها . . وكذلك أيضاً فإن هذه القصة الموضو
مصر كانت وجهتها محاولة إسدال ستار من الوهم
التاريخية التى تؤكد اتجاه إبراهيم إلى مكة فى الحـ
مع إبنه إسماعيل ، تلك القواعد الراسخة من بيت ا
إلى يوم الدين .

اهيم إلى أرض البيت متمهلا ، وكان أقرب غاياته إليه
ب المضىء أن يتخير الزوجة الطيبة التى يكون له منها
الإبن الذى استجاب له الله به بعد خروجه إلى رسالته
، باتجاه الحجاز . . الوطن الأم . . فكان أن تزوج
ئل العربية التى مر بها فيما بين الشام والأردن هذه المحصنة
ا الله له لتكون أم إسماعيل ، الصادق الوعد ، الذى
أ . .

جه الأولى أم إسحاق مكافئة له فى النسب ، ومتقاربة
، ولكن أم إسماعيل — على بداية الطريق من توجه
صائص فى ذريته بعد درس العراق ، وتنشيط الصفات
إعلاء الملكات الطيبة فى معارج الانتخاب والاصطفاء
كافئة له فى النسب ، ولكنها تزيد هذه الخطوة الأولى
طفاء لذرية إبراهيم بقدر هذه المسافة التى تقطعها بلغتها
يان وذلك بفارق ما بين لسان أهل العراق ، ولسان
خصائص العربية من قومها على طريق الحجاز . .

اليهود فى العصور المتأخرة بعد نزول التوراة تزعموا
دوا به فى مجال التحريف والتزييف لكتبهم ، متجهين . .
ونوا الشعب الوحيد الذى يكتب تاريخه بيد كهانه ،

وعلى هوى هؤلاء الكهان ، ثم ليزعموا — كما يقول الدكتور حسن ظاظا الأستاذ بجامعة الاسكندرية فى كتابه « الساميون ولغاتهم » : « أن هذا التاريخ قد نزل من السماء وأنه فوق الجدل والنقاش » ! !

ذلك فى الوقت الذى تتناقض فيه أقوال هؤلاء الأحبار من محرفى الأسفار فى أكثر ماتناولوه من الروايات الأسطورية التى خلطوها بشرائع الأنبياء ، وبحكايات الأبطال الخرافيين ، وما أغاروا عليه من مأثورات الأمم القديمة التى اتصلوا بها ، حتى فى أهم ما كان جديراً باليقين والوضوح فى رواياتهم وهو موضوع « أصولهم الأولى » التى حين تكلموا فيها — وكما يقول الدكتور حسن ظاظا أيضاً « تلجلجوا واختلقوا » . . فالعرب عندهم أفارقة من نسل حام ، وكذلك المصريون لأنهم عرب . أما هم فمن نسل سام ! ولكنهم لايلبثون حتى يختلط عليهم الأمر فإذا موسى عندهم من العـــرب الآراميين كما يقولون على لسانه فى سفر التثنية ٢٦ — ٥ « آرامياً تائهاً كان أبى » . .

ثم يعودون بعد ذلك فينتمون إلى عابر . . فمن هو عابر . . ؟ . . ثم يعودون فيسمون اللغة العبرية لسان كنعان . . أى ينتمون بها إلى لسان العرب الكنعانيين . . الخ ! !

بهذا التيه المزمن ، والشعور بالنقص ، والتدلل الأحمق على الله الذى سدوا أكثر طرقهم إليه ، بينما هو ينفذ منها إليهم بغضبه وضرباته ليزدجروا فلا يزدجرون — أرادوا أن يطمسوا فى سيرة إبراهيم حقيقة فضل إسماعيل



الحليم على إسحاق العليم ، وأن يرتفعوا بقدر فرعهم الذى كثرت أنعم الله عليه بقدر مازاد جحوده لهذه النعم فى مراحل تاريخه . . وحسبنا من التاريخ الحق أكثر ما تشير إليه الأناجيل فى مواقفهم من المسيح ، ومحكم ما أعلن عنه القرآن الكريم من مواقف معصيتهم لموسى ، ثم ما كان من مواقفهم بعد ذلك مع الأنبياء منهم :

« كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لاَ تَهْوَى أَنْفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ » . (المائدة : ٧٠)

ويتركز جهد الطمس فى اختلاق قصة ذهاب إبراهيم إلى مصر — حتى لايكون قد ذهب إلى الحجاز — ثم هدية الجارية من فرعون إلى زوجه التى سموها « سارة » إعلاناً عن أنها تسر إبراهيم بجمالها الذى لايغيض ، وهذه الجارية التى سموها فى المقابل « هاجر » لأنها ستلد لإبراهيم ولداً هو إسماعيل لايكون له — كما زعموا — عهد بالنبوة ، بل لايكون له حق بالحياة فى صحبة أبيه . . وإنما طردا يطرد هو وأمه ، وإلى صحراء النقب ، لأن أم إسحاق . . وهى أكرم عند الله مما نسبوه إليها — قد أمرت زوجها إبراهيم — الذى بهت الجبار بحجته فى العراق وهو بعد فتى — قد صار أمام السيدة أم إسحاق عاجزاً عن مراجعة أمرها ، حتى وإن كان أمراً قاسياً : يتنزه عنه من هم أقل من إبراهيم رشداً ومروءة وديناً وعلماً . . بل لقد كان هو وزوجه أم إسحاق أكرم على الله من ذلك ولاريب ، وفوق كل ما حرفه عنهما المحرفون ، وزيفه المزيفون . .

ولئن كان من واجب جلاء الحق أن نصحح هذا القول المزعوم الذى طال جثومه على صدر الحقيقة المهضومة فى تاريخنا الدينى فإننا – مع الإشارة إلى ماورد من هذا التصحيح فى الجزء الخامس من سلسلة هذه المسابقات القرآنية فى القسم السادس عن « القرآن الكريم والأمومة » وفى البحث الخاص بالسيدة أم إسماعيل – نكتفى بإيجاز هذا التصحيح الذى سكت عنه علماء المسلمين قروناً طويلة . . وذلك فى النقط الآتية :

أولا : من الأقوال التى ادعاها الأحبار على إبراهيم وعلى زوجه أم إسحاق ، من بين ما ادعوه لتحريف تاريخ الأمة التى ظهرت فيها رسالة الإسلام الخاتمة من ذرية إبراهيم وإسماعيل هو ما جاء فى سفر التكوين على لسان السيدة أم إسحاق :

« وَرَأَتْ سَارَةُ ابْنَ هَاجَرَ الْمِصْرِيَّةِ الَّذِى وَلَدَتْهُ لِإِبْرَاهِيمَ يَمْزَحُ • فَقَالَتْ لِإِبْرَاهِيمَ اطْرُدْ هٰذِهِ الْجَارِيَةَ وَابْنَهَا • لِأَنَّ ابْنَ هٰذِهِ الْجَارِيَةِ لَا يَرِثُ مَعَ ابْنِى إِسْحَاقَ » (تكوين ٢١ : ٩ ، ١٠)

ثم يمضى الزعم إلى غايته فيستجيب إبراهيم لهذا الأمر حسب مشيئة الأحبار ويلقى بولده إسماعيل وأمه معه « فى برية بير سبع » فى النقب فى بادية فلسطين بين قادش وبارد ، وذلك ليواجها الموت والضياع . . الأمر الوحيد الذى بادر علماء المسلمين إلى تصحيحه مكتفين بوقوع هذا الطرد فى مكة – عند بئر زمزم . . !

لاشك أنه مع ضرورة تصحيح الكثير من هذه المزاعم المسكوت عنها فى التاريخ الدينى ، وخاصة فيما بين العرب من أبناء إسماعيل وبين اليهود من أبناء إسحاق وإسرائيل ، وذلك لتنقية ما بينهما من الأجواء ، فإن من حق المسلمين أن يسألوا أنفسهم فى هذا العصر هذا السؤال :

« هل كان وجود إبراهيم وإسماعيل وأمه السيدة أم إسماعيل فى مكة هجرة هدى الله إليها إبراهيم فى خروجه من العراق باتجاه الحجاز ، ليسكن من ذريته بواد غير ذى زرع ، وليقيم مع ولده إسماعيل القواعد من بيت الله ، وليدعوا الله معاً — من بداية هذا العمل العظيم ، والبارز ، والدائم الإشراق فى تاريخ الدين — أن يجعل من ذريتهما « أمة مسلمة له » كما استجاب الله لهما بإسلام هذه الأمةالوحيدة بإسلامها فى تاريخ الرسالات الدينية ،أى بإسلام قوم محمد عليه الصلاة والسلام برسالته الخاتمة إليهم ...؟

أم هل كان وجود إبراهيم وإسماعيل والسيدة أم إسماعيل فى مكة هو فقط لأن إسماعيل وأمه تعرضا لأمر الطرد من السيدة أم إسحاق ، بسبب أنها كانت جاريتها كما يقال ... وبذلك فهى بالمقاييس « العنصرية »لاوزن لها ، ولا لولدها إسماعيل . . الذى ما كان له — حسب نصوص سفر التكوين — أن يطمح إلى العهد والنبوة من الله . . فقد كان ذلك — كما أراد الأحبار أن يفرضوا على تاريخ الدين وتاريخ الأمة العربية وتاريخهم — هو لولدها إسحاق وحده . . ! ؟

يكفى أن نشير إشارة عابرة — على طريق تصحيح المعلومات ، وتنقية الأجواء بين شعبين هما فرعان لأقدم وأبقى شعب فى العالم — إلى أن

الحضارة العربية الإسلامية الدينية لاتزال رغم تخلف العرب فى هذا العصر تثير أعظم اهتمامات الباحثين والسياسيين والاقتصاديين فى العالم ، من حيث أنها لاتزال تحفظ كل مقومات تجددها على أصولها الأولى ، كما لاتزال حافظة كل سمات نضارتها ، وعلامات صحوتها ، باتجاه وحدتها وقوة تقدمها على الطريق الصحيح بغير توقف . .

ويكفى فى هذا المعنى أيضاً أن نذكر العبارات الآتية من مقدمة كتاب حديث عن الحضارة العربية ترجمه هذه الأيام الدكتور إبراهيم العدوى نائب رئيس جامعة القاهرة للمستشرق الألمانى الأستاذ ى . هل عن هذه الحضارة العربية المتميزة والمتفوقة بمصادرها ، وخصائصها ، وغاياتها . . . يقول الدكتور إبراهيم العدوى فى مقدمته :

« لم يعرف التاريخ حضارة اكتسبت الخلود المقترن بالشباب اليانع غير الحضارة العربية . فبرغم قدم هذه الحضارة وأصولها فإنها مازالت قائمة إلى اليوم ، لم تنل منها العصور والقرون ، وإنما زادتها قوة وفتوة ، كأنما تجد هذه الحضارة فى توالى الأزمان ينابيع دافقة تغذيها بماء الحياة » .

ثانياً : الموقف الكريم الذى وقفه جميع الأنبياء والرسل من أبناء إبراهيم ، من أول إسماعيل ثم إسحق ويعقوب ويوسف وموسى وهارون وداود وسليمان ، وإلياس واليسع والمسيح . . وحتى خاتم الرسل والأنبياء محمد عليه الصلاة والسلام ، لم يعرف قط هذا الذى شاب الكثير من أقوال الأحبار فى أسفارهم من شوائب التفرقة ، وغمام العنصرية . فالجميع هم ذرية رسول كان أمة وإماماً هو إبراهيم . . والجميع كانوا يدعون بدعوة

واحدة هي الإسلام الحق ، دعوة أبيهم إبراهيم .. وحتى أفضل أبناء إبراهيم وهو المصطفى من كل ذريته محمد عليه الصلاة والسلام ، لم يفضل نفسه على من سبقه بكلمة مأثورة عنه ، بل قال وظل فى أسوته للمؤمنين يقول ما أوحاه الله إليه فى آخر سورة البقرة :

« آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ • كُلٌّ آمَنَ باللهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَانُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ » .
(البقرة : ٢٨٥)

ويقول الله فى هذا المعنى أيضاً وهو أن الإسلام إلى الله ، والدعوة بهذا الدين الحق ، كانا الصفة الجامعة لجميع الرسل ، وبخاصة بين من نزلت إليهم الكتب الباقية من الله على دين واحد من أبناء إبراهيم هو الإسلام :

« مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ • إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ »
(آل عمران : ٦٧ : ٦٨)

ثالثـاً : ونعود إلى تصحيح الزعم بأن إبراهيم تزوج من جارية زوجته « سارة » فنذكر أن البعض قد يقول — كما قيل : وماذا هناك من الحرج فى أن يتزوج إبراهيم من جارية زوجته بعد أن آمنت به وأصبحت أمة

مؤمنة بحل زواجها للمؤمن ، وبخاصة عندما لايجد المحصنة المؤمنة ، المتكافئة معه لتعزيز هدف الذرية الطيبة . . ؟ !

وللرد على هذا الفهم القاصر فى ضوء الأحكام الصريحة فى كتاب الله نذكر ما جاء من قوله تعالى فى سورة النساء :

« وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ طَوْلاً أَن يَنكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِن مَّامَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ وَاللهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُم بَعْضُكُم مِّنْ بَعْضٍ * فَانكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ * فَإِذَا أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ * ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنكُمْ * وَأَن تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَّكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ * يُرِيدُ اللهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ » (النساء : ٢٥ : ٢٦)

نستخلص من هاتين الآيتين الحقائق الآتية التى ترفع النير الحرافى عن قصة أم إسماعيل أعزها الله :

١ — من لم يستطع من المؤمنين أن يجد المحصنة المؤمنة ليتزوج منها فعليه أن يتزوج إحدى إمائه المؤمنات ، وذلك فى عهد كان الرق فيه شائعاً على كراهية الإسلام له .

٢ — لايصح الزواج من الأمة المؤمنة بديلا من المحصنة المؤمنة إلابعد تحصينها بالرجوع إلى أهلها واستئذانهم ، مع دفع صداقها ومعاملتها معاملة الزوجة المحصنة .

٣ — إذا حدث أن هذه الأمة المؤمنة بعد إحصانها والزواج منها أتت بفاحشة مبينة فإن عقوبتها على ذلك تكون نصف ماتوجبه الشريعة من العقوبة على المحصنة فى مثل هذا الإثم ، لأن رادع المحصنة عن إتيان الفاحشة أقوى فى نفسها ، وأظهر فى خصائصها وعقلها وإرادتها من الأمة وإن أحصنت .

٤ — هذه الرخصة للمؤمن بزواج الأمة المؤمنة بعد إحصانها ، إذا لم يجد المحصنة المؤمنة ، لاتجيزها الشريعة إلا إذا خشى المؤمن « العنت » فى حاجته إلى الزواج مع تعذر توفيقه إلى الزوجة المحصنة التى يوصى بها الله ، ولهذا يوصى الله بالصبر عن هذه الأمة إن لم تتيسر المحصنة ، فهذا من أجل الذرية الطيبة أفضل .

فى ضوء هذه الحقائق التى تنص عليها أحكام الله فى أمر الزواج بالإماء المؤمنات إن تعذر التوفيق إلى المحصنات المؤمنات — نقول أولا إن إبراهيم عليه السلام لم يكن أولا يخشى « العنت » على نفسه فقد كانت معه زوجه الطيبة الحسناء السيدة سارة . .

ونقول ثانياً إن إبراهيم كان يطلب عندما تزوج صميم ما يستوجب الحرص على اختيار هذه المحصنة المؤمنة من أجل هذه الذرية الطيبة التى يقوم عليها هذا التغيير العظيم فى التاريخ الدينى نحو هذا الاتجاه الذى هداه

الله إليه ، باصطفاء « الأمة المسلمة » من ذريته ، وبعد أن بشره الله بهذا الغلام الحليم على أول هذا الطريق وهو يخرج من العراق . .

ثم نقول ثالثاً إنه من غير المعقول أن ننكر ما تشير إليه كل وقائع هجرة إبراهيم إلى رسالته الجديدة ، طويلة المدى عند بيت الله ، وهو علمه ويقينه ، وهو إمام الحنيفية السمحة الراشدة ، بكل هذه السنن والشرائع حول زواج المحصنات وزواج الإماء بعد إحصانهن ، وحول فضل « الصبر » على زواج الأمة مهما كانت شدة الصبر ، وذلك من أجل « تصفية » و « انتخاب » أطيب الخصائص والصفات فى معارج هذا الاصطفاء الطويل للذرية الصالحة التى شاء الله — كما أشرقت بذلك مشيئته الأبدية على أفق التاريخ — أن تكون منها الأمة المسلمة ، وخاتم النبيين والمرسلين .

من أجل ذلك فالحق الذى لا لبس فيه أن إبراهيم الذى يعلم كل هذه الحقائق والسنن مما علمه الله ، وفى ضوء هذه الطفرة لأكرم خصائص المرسلين من آبائه من قبله فيه — قد يسر الله له أن يتزوج من أهل الأرض التى دخلها مهاجراً من العراق ، وهى تجمع بين أرض كنعان — أى فلسطين ولبنان — وبين شرقى سيناء وشمالى الحجاز ، هذه الزوجة المحصنة الأفصح لساناً من ألسنة أهل العراق ، والمعدة بخصائصها لتقبل الإيمان بالله الحق والإسلام إليه مع إبراهيم ، والتبرأ من الشرك معه ، لتكون هى أم هذا الرسول الأول المنتظر عند بيت الله من الذرية الصالحة لإبراهيم . . لتكون أم إسماعيل الذى استجاب الله به دعاء خليله ، ورافع القواعد

من بيته . . وهذا ما تشير إلى مثله بعض كتب السيرة مثل سيرة ابن هشام الذىيقرر أن أم إسماعيل من عرب سيناء من « قرية أم العرب» شرقى فرع النيل البليوزى الذى انطمر من عهد بعيد ، والتى فى موقعها الآن بقايا « تل الفرما » فى سيناء المصرية العربية . .

رابعــاً — القضية التى تطرحها مزاعم الأحبار حول السيدة الطيبة المحصنة أم إسماعيل وهى تجعل منها فى تزييف كريه للتاريخالدينى « الجارية المطرودة بولدها » هى التساؤل عن مدى ما فى الادعاء بأن إبراهيم عليه السلام يقتل ابنه البكر الذى كان أعظم عطاء الله له بعد الإيمان والرشد . . والذى هو يده اليمنى ، وبذرة منهجه الاصطفائى الأولى للأمة المسلمة التى تعذر ظهورها فى العراق ، ومن قبل ذلك تعذر على عهد جميع الرسل فوق مهد الرسالات الدينية فى الجزيرة العربية وأمصارها المحيطة بها ، إذ كيف يتصور عاقل أن يقتل الأب الراشد نعمة بقاء سيرته من بعده ، وأن يطفىء آية قيام شجرة دعوته نامية مباركة فى ذريته ، وأن يكون هذا الأب هو إبراهيم ، وهذا الابن هو إسماعيل ! !

هذا بينما يشهد التاريخ فى أصدق وقائعه بغير ذلك ، وبينما ينص محكم القرآن الكريم على أن إبراهيم عاش مع زوجه أم إسماعيل وولده منها إسماعيل فىمكة المكرمة ، على الرغم من رحلات له على الطريق الذى جاء منه إلى مكة . . وأن إبراهيم قام برعاية ولده وتنشئته حتى بلغ معه السعى ، وحتى شاء الله أن يمتحنهما معاً على صحة الإسلام إليه فى رؤيا الذبح التى صدقها الوالد وولده حيث أسلما إلى الله بطاعته فى هذا الأمر على مشقته

البالغة ، ثم فدى الله عن إسماعيل بهذا الذبح العظيم من الغنم والأنعام التى فرضها الله على إبراهيم من ماله صدقة عن ولده وذلك حيث يقول تعالى :

« فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ • فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْىَ قَالَ يَابُنَىَّ إِنِّى أَرَى فِى الْمَنَامِ أَنِّى أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى • قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِى إِنْ شَاءَ اللهُ مِنَ الصَّابِرِينَ • فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ • وَنَادَيْنَاهُ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ • قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِى الْمُحْسِنِينَ • إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ . وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ». (الصافات : ١٠١ : ١٠٧)

بل إن حجة الله البالغة — كما جاءت فى محكم القرآن الكريم — على أن أنبياء كل من إبراهيم وزوجه السيدة أم إسحاق كان مع إسماعيل والسيدة أم إسماعيل، بل وأنبياء من جاء من ذرية إسماعيل وإسحاق من الرسل، هو إلى بيت الله العتيق فى مكة ، البيت الذى انتمى إليه بنعمة من الله قوم النبى من قريش قبيل بعثته إليهم ، وذلك حيث يقول تعالى عندما بشرت الملائكة أم إسحاق بإسحاق ، وكانت مع إبراهيم فى أرض سدوم وعمورة بالأردن عند لوط فى قومه :

« وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ • فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ

وَمن وَرَاء إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ . قَالَتْ يَا وَيْلَتَى أَأَلِدُ وأَنَا عجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ . قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْر اللهِ رَحْمَةُ اللهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ»
(هود : ٦٩ ــ ٧٣)

أليست سارة وأبناءها من إسحاق هم فى أحسن ماينتمون إليه من « أهل البيت » الذى اصطفى الله إبراهيم وإسماعيل فرفعا قواعده فى مكة ، والذى لايزال مرفوعاً قائماً فى منارته ورسالته قبلة للمسلمين ، وأمناً وحرية لمن حوله من المؤمنين بغير « شتات ولاضربات » . إلى اليوم . . !؟

أليس هو أفضل ما نما الله إليه قريشاً فى نعمته عليهم وهو يقول لهم :

« فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَٰذَا الْبَيْتِ ، الَّذِى أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ » . (قريش : ٣و٤)

فلماذا إذن كانت شوائب هذه التفرقة الشوهاء ، والعنصرية الأسطورية الرعناء ؟ . . لماذا كانت سدود هذا التعالى ، ومفجرات هذه البغضاء ، بين من جمعهم أب واحد ، إمام بين رسل الدين الحق فى كل كتب الله ، وهو إبراهيم الحنيف أبو إسماعيل وإسحاق ، وبقية الرسل من بعده عليهم الصلاة والسلام ؟

خامساً : وأخيراً فى دفع هذا الادعاء المعتّم الواهى حول السيدة الطيبة أم إسماعيل نقدم بإيجاز هذه الحجة المبينة فى استجابة دعاء الله لكل من إبراهيم وإسماعيل بمولد المصطفى محمد ، ثم ببعثته عند هذا البيت العتيق ،

بيت الله بمكة ، خاتماً للنبيين والمرسلين . فبمولده ورسالته صلى الله عليه وسلم ، سقط فى هاوية الأساطير زعم الأحبار فى تحريفاتهم بأن إسماعيل لن يكون له عهد ولابنوة مع الله . وبرسالته صلى الله عليه وسلم ثبت أنه هو هو دعاء أبويه إبراهيم وإسماعيل فى كمال صفاته ، وفى نقاء خصائصه ، وفى ذروة الاصطفاء به إلى هذه المنزلة العليا التى اختاره الله لها ، ليحمل بالوحى القول الثقيل ، والأمر الجليل ، دعوة لقومه بالقرآن المبين ، وذكراً له ولقومه ورحمة للعالمين .

وفى معنى هذا الاصطفاء يقول الرسول عليه الصلاة والسلام إلى جانب البرهان الحى برسالته : « لم يزل الله ينقلنى بين الأصلاب النقية والأرحام الطاهرة ، مصفى مهذباً ، لاتتشعب شعبتان إلا كنت فى خيرهما » .

ويقول صلى الله عليه وسلم من صحيح قوله تذكيراً بنسبة الطيب والطاهر فى أمهاته كما هو فى آبائه : « أنا ابن العواتك من سليم » .

وهو الذى يقرر صلى الله عليه وسلم قبل ظهور علوم وقوانين الوراثة ليضع الأساس السليم لهذه القوانين فى جانب الإنسان السوى ، وتنقية سلالته لصحة دينه ، واستواء خلقه : « تخيروا لنطفكم فإن العرق دساس» .

فكيف بعد كل هذا يصح أن إبراهيم عليه السلام تزوج من « جارية » لزوجته أم إسحاق هى « هاجر » . . وأنه قام بطرد هذه الجارية وولدها إسماعيل منه عند بادية « بير سبع » . . أو عند مداخل مكة . . لهوانهما معاً عليه ! ؟ . . كيف ؟ ! . . وكيف لاينهض علماء التاريخ الدينى

من المسلمين الراشدين بتقويم هذا التاريخ الذى زيفه الأحبار عند هذه النقطة وذلك لتصحيح وقائعه ، التى هى فى صحتها ، ووضوحها ، أبهى نوراً ، وأبقى إشعاعاً . . فوق كل اختلاق وادعاء وتحريف ! ! ؟

الأمة المسلمة :

وماذا يبقى بعد فى الجواب عن هذا السؤال الأول حول سيرة إبراهيم عليه السلام . . لقد كانت غاية الطريق الذى قطعه إبراهيم فى هجرته برسالته الجديدة هى مكة المكرمة

« بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ » (إبراهيم : ٣٧)

حيث لا أنهار يتغالب على خيراتها الملوك والكهنة ، وحيث يتهيأ المكان بشدة العيش فيه ، وبالرحلة الدائبة لأهله المتحركين من حوله ، ليقوم فوقه بيت الله منارة للدعوة إلى الله ، والصلاة له وحده بغير شركاء ، بعد أن أضلت الأصنام وأسماؤها وهياكلها أكثر الناس فى الأرض . . وحيث نشأ فى هذا المكان الطيب أول الرسل والرواد على الطريق الطويل.. نشأ إسماعيل فى حجر أبيه وأمه . . حتى بلغ السعى مع أبيه . . واجتاز امتحان كمال الإخلاص لله الواحد بالإسلام إليه . . وحتى نهض مع أبيه إبراهيم ليقيما ويرفعا « القواعد من بيت الله » . .

ثم ليدعو إبراهيم وإسماعيل ربهما حول هذا البيت بهذا الدعاء الذى استجابه لها بحقه وصدقه ، والذى ملأ الأرض باستجابته نورا وعلماً ،

وحقاً وعدلا ، وطهارة وسلاماً ، عندما تمت لها هذه الاستجابة فى أمة مباركة من ذريتهما ، وفى رسول أمين كريم من هذه الذرية ، وحيث لايزال هذا الدعاء محفوظاً وهادياً وواعداً وبشيراً إلى يومنا هذا فى قوله تعالى :

« رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ ، وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ ، وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ، رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ».

(البقرة : ١٢٨ ، ١٢٩)

* * *

السؤال الثـــانى :

« لماذا قام إبراهيم منذ أقام بيت الله بمكة مع ولده إسماعيل بدعوة العرب جميعاً إلى الحج إلى هذا البيت كما جاء فى قوله تعالى :

« وَأَذِّن فِى النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ » (الحج : ٢٧)

وما هى فى نظرك حكمة الله التى أوحاها إلى إبراهيم عن الحج إلى هذا البيت ، وعن الطواف من حوله فى واحد من أهم مناسكه ؟ » .

الإجـــابة :

علمنا من إجابة السؤال السابق أن إبراهيم عليه السلام كان قد انتهى به ابتلاء الله له على أرض العراق إلى أن يخرج ناجياً من نار أرض الأوثان وكيدها ، إلى نور حرم الله وسلامه ، ومعه فى هذا الخروج منهج حنيفيته ، ورجاء استجابة الله له بهذه الأمة المسلمة من ذريته ، الأمة المباركة التى سيتم الله اجتباءها لدينه ، واصطفاء خصائصها لتنهض بحمل رسالته .

وكانت البداية المشرقة على الطريق — الذى غص على جانبيه بالأصنام — هو إسماعيل الذى ما إن استقر به وبأمه السير عند المكان المختار لبيت الله ، مركز الأمن فى أرض الله ، وقبلة المصلين المؤمنين بالله ، ومنارة الإشعاع بحقيقة الاستمرار لكلمة الله ودين الله ، حتى نهض بتربيته على ما يحبه له الله ، ونحو ما أعده له الله ، كما بشره سبحانه به ، وكما أراه الله من سمات

ذلك فيه، فلما أن نما إسماعيل ورشد انضم إلى أبيه فى إنجاز هذا العمل الكامل بآثاره فى تاريخ الدين الحق ، والأبعد مدى من كل عمل سواه ، وهو إقامة القواعد من بيت الله فوق هذه الأرض الطيبة التى اختارها الله لحرمه، وبيته وأفقاً لمشرق هذه الرسالة الخاتمة الباقية فى دعوة المصطفى من ذرية إبراهيم : محمد الكريم . . ذى الخلق العظيم .

لقد أقام إبراهيم وإسماعيل القواعد من البيت فى المكان الذى هدى الله إليه إبراهيم فى مكة ، البلدة التى كان يسميها العرب اليمنيون القدماء من قبل مقدم إبراهيم « مكوراب » أى « مكان عبادة الرب » . وذلك لكى تقترن حكمة الله البالغَة من إقامته فى هذا المكان بهذا الإشعاع الدائم من منائره وحرمه منذ ذلك الحين بأجواء الأمن والحرية لأهله ، وللحاجين من حوله إليه ، وبالسواسية الإنسانية بينهم جميعاً على دين الله ، وفى طاعة الله ، وهم يستبقون إلى نعمة رضاه ، وإلى الدرجة الأقرب إليه ، بفعل الخيرات ، وبالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى ،وبالباقيات الصالحات .

لقد رفع إبراهيم وإسماعيل القواعد من بيت الله ، كما شاء الله فى حكمته، ليتكرس ويستقر بقاء ذريتهما من حوله ، باتجاه هذه المسيرة الطويلة فى الأصلاب والأرحام ، ومع غاياتها فى حكمة الله لاصطفاء واجتباء هذه الأمة المسلمة من ذريتهما ، وحيث ظل إبراهيم وإسماعيل يدعوان الله بمثل ماقال إبراهيم فى دعائه لمكة ، ولأبنائه فيها ، حتى يشرق وجه الرسول الكريم المصطفى والخاتم :

« وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا واجْنُبْنِى



وَبَنِيَّ أَنْ نَّعْبُدَ الْأَصْنَامَ • رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ • رَّبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ ، فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ »

(إبراهيم : ٣٥ ـ ٣٧)

لقد وضع إبراهيم بولده إسماعيل وذريته عند البيت نواة أمة الدعوة إلى الله من المحسنين الصالحين من ذريته ، وهو يرجو كما علمه الله ، وكما ألهمه من منهج وغايات رسالته ، أنه بإعلانه ما فرضه الله على أهل هذا البيت وعلى من حوله من فريضة الحج إليه ، سيفتح أفضل الطرق ، وينشط أفضل العلائق ، وينمى أفضل الملكات باتجاه توحيد هذه الأمة المسلمة من ذريته ، ومن العرب المترحلين من حولهم ، بهذا الحج الدائب الإيقاظ لفطرة النفس السوية ، والتنمية من خلال جمعه الحاشد ، وأمنه الممدود ، وتحت رضوان الله المشرق ، لهذا اللسان العربى المبين ،ليكون به مع مراحل نمائه واصطفائه تمام البلاغ والبيان عن رسالة الله التى تبقى فى الأرض ببقاء بيانها المبين عنها ، وباجتماع دواعى التذكر والتطهر والرشد فى هذا اللسان العربى المبين ، الذى يهتدى به العقل ، وتأمن إلى إيقاعه النفس ، وتتجلى على سعة آفاقه الآيات البينات ، سواء ما كان منها للعين فى ملكوت السماوات والأرض ، أو ما كان منها للسمع والقلب

فى محكمات الوحى والكتاب ، وبغير ذلك لايتهيأ لأمة عند بيت الله ، وفى مركز الإيمان والأمن فى أرض الله ، أن تستجيب للدين الحق من عند الله ، وأن تجتمع تحت رايات الكتاب المبين بهذا الإسلام الخالص إلى الله، كما هو فى دعوة رسل الله .

من أجل ذلك كانت دعوة الله لإبراهيم ، بعد أن رفع مع إسماعيل القواعد من البيت، أن يؤذن فى الناس بالحج، أى أن يبعث إلى قبائل العرب وعشائرهم من حول البيت ليعلمهم بأن الله قد فرض عليهم لمصلحة دينهم ودنياهم أن يحجوا إلى بيته ، الذى أقيم على أطيب بقعة من أرضه . وعندئذ ــ كما أوحى الله لإبراهيم ــ فإنهم سيهبون بالاستجابة لهذا الأذان بالحج ، والإعلام به ، قادمين فى موسمه راجلين على أقدامهم ، أو راكبين على ضوامر الإبل من طول الأسفار، من أودية الجزيرة ومن فجاجها مهما نأت وبعدت . . كما جاء فى قوله تعالى وهو الأعلم حيث يجعل رسالته ، وحيث يقيم بيته وحرمه :

« وَأَذِّن فِى النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ». (الحج : ٢٧)

دلالة الكعـــبة :

وهذا البيت الذى رفع إبراهيم قواعده بوحى الله مع ولده إسماعيل هو نفسه « الكعبة » أى هو هذا المبنى المربع ــ لأن التكعيب معناه التربيع ــ المتجه بزواياه المسماة بالأركان إلى الجهات الأربع وذلك حتى تتكسر

تيارات الهواء على هذه الزوايا . وبينما يبلغ ضلع الكعبة مابين عشرة أمتار أو أكثر قليلا ، فإن ارتفاعها يبلغ نحو خمسة عشر متراً . هذا بينما يقع الركن الذى به الحجر الأسود علامة على بدء الطواف على يمين باب الكعبة ، وعلى ارتفاع مائة وخمسين سنتيمتراً من أرضية المطاف .

هذه الكعبة التى هى مركز الحج ، ومدار الطواف ، هى « البيت الحرام » فى قوله تعالى :

« جَعَلَ اللهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَامًا لِلنَّاسِ » .

(المائدة : ٩٧)

فماذا كانت حكمة الله كما أوحى بها إلى إبراهيم ليرفع مع ولده إسماعيل قواعد هذه الغرفة المربعة على أنها هى « بيت الله » ، هذه الغرفة الخالية من خارجها من أية دلالة على شىء مجسد بداخلها ، الخالية من داخلها فى عهد إبراهيم وإسماعيل ، وفى عهد الرسول بعد ظهور الإسلام من مثل هذه الدلالة ، إذ ليس بها إلا هذا المحراب فى قبالة الداخل إليها ، وهذه الأعمدة الثلاثة فى وسطها ، وبعض ماتركه زوارها بعد الإسلام من الملوك والسلاطين مما هو باق إلى اليوم من آيات قرآنية ، ومن أدعية لايزال يجدها الزائرون كلما فتحت لهم لزيارتها فى موسم الحج ، أوعند غسيل الكعبة ؟

الجواب نعرفه من تسميتنا المساجد للصلاة بأنها « بيوت الله » ، وذلك لأن حضور الله بها ، وهو حاضر دائماً فى كل مكان وزمان — أكثر جلاء للمصلين ، القادمين للتطهر والصلاة والدعاء إلى الله بهذه

المساجد ، ولذلك فقد سميت بهذا « الحضور » الواضح لله ولنوره فيها نهاراً وليلا أمام أعين المصلين الخاشعين . . « بيوت الله » . .

وبهذا الوصف فإن « الكعبة » أو هذا المبنى المكعب ، ليست بيتاً يقيم الله به ، تنزه سبحانه عن أن يحد بمكان أو أن تدركه الأبصار ، وإنما هذا البيت ، بهذا الوصف المتجرد من أى دلالة على التجسد ، والذى أقيم بحكمة الله بالبلد الطيب فى أرض الله ، البلد الذى لم يقم به منذ إبراهيم وإسماعيل وحتى ظهور النبى عليه الصلاة والسلام ، ملوك ولا كهنة ، ولم تأفل به شمس السواسية والرحمة — هو الموضع الذى يتضاعف به كثيراً هذا « الحضور » لله سبحانه وتعالى أمام الحجيج الطائفين والعاكفين ، والملبين والمصلين ، جليا لهم بأسمائه ورحماته ، على مدى حرمه بالمكان ، ومناسك الحج إليه بالزمان ، ليتحقق بمشيئة الله بدوام الحج إلى هذا البيت المحرم والمعظم قيام وبقاء هذه الأمة المسلمة التى تتذكر ، وتتطهر ، وتتوحد ، حول البيت الحرام ، دعوة لاتنقطع بالكتاب المبين إلى الدين الحق فى هذه الأرض ، ومن حيث أن هذه الدعوة إلى هذا الدين بكتاب الله المبين ، وهذه الأسوة بتصديق الكتاب وإقامة الدين ، هما دعامة الحياة المتجددة الناضرة لشعوب هذه الأمة العربية ، ولجميع المسلمين ، ورحمة باقية لهم وللعالمين .

حكمة الحـــج :

يقول الله تعالى فى حكمة إقامته الكعبة ، بيته الحرام ، قياماً للناس ليستبقوا إلى تحصيل ما يسعهم من آلائه ونعمه ، من مقاصد وغايات هذا

الحج الذى دعاهم إليه فى الأشهر التى حرم فيهن القتال ، وإراقة الدم :

« جَعَلَ اللهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَامًا لِلنَّاسِ • وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْهَدْىَ وَالْقَلَائِدَ • ذَٰلِكَ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا فِى السَّمَاوَاتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ • وَأَنَّ اللهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ».

(المائدة : ٩٧)

فالله سبحانه قد شرع الحج إلى البيت منذ أعلم به إبراهيم كل العرب ، وجعله « قياماً للناس » أى داعياً فطرياً ودينياً عظيما ليقوموا إلى مايصلحهم الله به عند بيته ، بوحدتهم بهذا الدين الذى هداهم إليه ، وليزداد علمهم وهم يجددون العهد والميثاق مع الله على صدق إسلامهم إليه ، بعد أن صدقوه فيما سبق من عهدهم معه بهذا الإسلام وهم يضربون فى الأرض يبتغون فضلا منه ورضوانا — يزداد علمهم وهم يزدادون اقتراباً إلى الله ، وشكراً على نعمه ، بأنه هو العليم بما فى أنفسهم ، والخبير بما تخفى صدورهم وبكل ما كان منهم فى تسيارهم تحت السماوات وفوق الأرض . . هوالعليم بكل ما فى السماوات وما فى الأرض ، من غايات حياتهم ، ومن سلطانه على هذه النعم والموارد التى سخرها لهم .

يقول سبحانه :

« وَأَذِّن فِى النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ • لِّيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ • وَيَذْكُرُوا

اسْمَ اللهِ فِى أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُم مِّنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ . فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ » (الحج : ٢٧ ، ٢٨)

هذه المنافع التى لايزال يشهد الحجيج تدفق أنهارها بالنعم البانية لوحدة المسلمين فى مواسم الحج ، والتى يشير إليها قوله تعالى :

« لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ » .

إنما تعنى منذ عهد إبراهيم وإسماعيل ماتشتمل عليه مواسم الحج من تنشيط وتنمية هذه المقومات والخصائص الإنسانية التى تبنى وحدة اللغة والتعبير ، وتنمى وجهة السواسية والتراحم ، فى هذه الجماعات المسلمة التى يجمعها التوافق عند بيت الله على الوفاء بشكر الله وذكره ، وعلى تجديد العهد بصحة الإسلام إليه ، وهذه المنافع نوجزها فى مجالاتها الظاهرة كما عرفها الحجيج فى المراحل التى أعدت لبعثة رسول الله كما يلى :

١ ـ الأسواق التجارية التى كان يقيمها الحجيج فى مواقيت محددة قبيل الحج ، حيث كانوا يتبادلون فيها من أقصى الجنوب اليمنى ، والشمال الحجازى ، والشرق النجدى ، مامعهم من عروض التجارة المتنوعة ، فضلا عما كان يعرضه تجار مكة على الحجيج من نفائس السلع التى كانوا يجلبونها فى قوافلهم من الشام ومصر فى مثل رحلتى الشتاء والصيف ، مما كان له أعظم الأثر فى تنمية اقتصاد هذا المجتمع البدوى المتحرك بأفضل موارده فى مواقيت سنوية ثابتة يضفى عليها الحج حرمته وقدسيته ، وسلامه وتطهره .

وكان أشهر هذه الأسواق « عكاظ » التى كانت تقع بقرب مكة مابين نخلة والطائف ، وكانت تعقد للحجيج من أول شهر ذى القعدة إلى اليوم العشرين منه . ثم سوق « مجنة » وهى بمر الظهران ، وكان الحجيج ينتقلون إليها فيقيمون بها الأيام الباقية من ذى القعدة ، ثم سوق «ذو مجاز» ويقع وراء « عرفة » حيث يقيم الحجيج بها ثمانية أيام من ذى الحجة ، ومنها يتوجهون فى اليوم التاسع إلى « عرفة » .

٢ — فى هذه الأسواق التجارية الحافلة كانت تعقد المحافل الشعرية والأدبية الجامعة ، حيث يتناشد كبار الشعراء القدامى والناشئين أحدث قصائدهم ، وأعظم نفائسهم ، التى تفيض بعجيب الفخر بالحرية والمعروف وبالمأثور الذى يبقى مضرب المثل فى شعر الحكمة والأخلاق . وهكذا نشأت فى مجرى التنافس على الفضل ، والتسابق على سلامة وجمال التعبير ، مراحل هذا النماء المطرد نحو الكمال اللغوى فى اللسان العربى ، مع زيادة تقارب اللهجات المتباعدة ، والتحرر من الكلمات الغريبة والنافرة ، باتجاه تحقيق حكمة الله فيما دعا إليه إبراهيم ، وما توجهت إليه رسالته وغايته ، من توحد ألسنة القبائل المختلفة على لسان واحد عربى مبين ينزل به كتاب الله المنتظر ، وتظهر به رحمة الله بهذه الأمة المسلمة المجتباة ، كما صح ذلك لقريش فى كمال انتقائها لبيانها من خير ألسنة العرب منذ حلت بجوار مكة على عهد جدها قصى سنة ٤٠٠ م .

٣ — فى هذه الأسواق التجارية الاقتصادية ، واللغوية الجامعة ، فى مواسم الحج ، كان يتلاقى الأعداء المتخاصمون من شتى القبائل ،

والمتحاربون الذين لم يغمدوا سيوفهم بعد فى موسم الحج إلا ليشهروها فور الانتهاء من مناسكه ، وعودتهم إلى أرض القتال ومنافراته . لقد كانوا يتلاقون آمنين تحت مظلة الأشهر الحرم ، ومتهادنين فى ظلال بيت الله وحرمة جواره ، بحيث كان الرجل منهم يرى قاتل أبيه يمر بجواره فلا تمتد يده إليه ، ولايجرى بخاطره أن يثأر منه ، بعد أن تحرم دمه عليه بهذا العهد السابغ النافذ من الأمان لجميع الحجيج إلى بيت الله . فى هذه الهدنة السنوية كان ينفتح الطريق لأهل الرأى والحلم ، والخلق والدين ، ومن خلال الجلسات الفضفاضة والسمحة بهذه الأسواق الجامعة ، لكى يجمعوا بين قادة المتخاصمين والمتحاربين ليعقدوا بينهم المصالحات الموجبة لحقن الدماء ، أو ليهيئوا لعقدها فى موسم مقبل ، وبذلك حفظ الله فى حكمته بالحج ، وبحرمة هذا البيت الجامع فى مكة ، بقاء هؤلاء العرب فى جزيرتهم أقرب مايكونون مع حريتهم إلى ألفة القلوب بسيادة المعروف وبحكم العقل والدين ، وهم يترقبون من جيل إلى جيل ظهور الرسالة الخاتمة فى أمة منهم ، وبدعوة رسول من أنفسهم .

من أجل هذا كان القتال فى الأشهر الحرم كبيراً عند الله ، وكفراً به ، كما جاء النص على ذلك بعد نزول القرآن فى قوله تعالى :

« يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ، وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللهِ ، وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ، وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللهِ ». (البقرة : ٢١٧)

التعارف فى عرفات :

ثانياً — كذلك فإن من حكمة الحج كما شاء الله من رفع القواعد من بيته ، ومن دعوة العرب وإعلامهم على لسان إبراهيم بالحج إليه ، أن يتحقق لهؤلاء العرب — غير هذه المنافع المنمية لملكات الإحسان والبيان والمعروف بينهم ، والبانية لوحدتهم وألفتهم بهذه الملكات والخصائص — هذا التعارف الذى تذوب من خلاله فى أهم منسك من مناسك الحج فوق عرفات كل وساوس النفس ، وغوايات الكبر التى تعوق مجرى الألفة بين القلوب ، والتى تسد نهر الوحدة بين القبائل . لقد كان ولايزال من حكمة الحج إلى بيت الله كما أوحى الله به إلى إبراهيم ليدعو إليه العرب فيهبوا إلى الله راجلين ، وعلى كل ضامر ، هذا المعنى العظيم من أساس التقوى ، ومن شرطها الذى لايتحقق إلا بصحة التعارف على الدين والمعروف ، وعلى السواسية والعدل ، وعلى الوحدة والإيثار ، وفى هذا المعنى نزل القرآن الكريم جامعاً له فى قوله تعالى :

« يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّن ذَكَرٍ وأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللهِ أَتْقَاكُمْ ».

(الحجرات : ١٣)

فى هذه الآية الكريمة ربط الله بقاء الشعوب والقبائل بهذا الأساس الجامع لها بالتعارف والألفة والإيثار والموادعة على « التقوى » أى على الإيمان الصادق بالله ، والإسلام الخالص إليه ، حيث لايتحقق بغيرهما

أى تكريم عند الله للإنسان ، إذا ما تقدم الناس إلى ربهم ليفاضل بينهم فى الدنيا والآخرة .

والشعوب هنا جمع « شعب » ، والشعب على غير ماتوهم أكثر المفسرين هو الأب الأكبر للقبيلة ، وليس بمعناه الذى عرفه العالم فى العصور المتأخرة اسماً على مجموعات البشر التى تجمعها وحدة الأرض واللغة والتاريخ . ومعنى ذلك فى توجيه الخطاب بالقرآن الكريم إلى العرب الذين ترقوا بلسانهم إلى مستوى الفهم والتدبر لكلام الله المبين لهم بهذا اللسان ، وهو يدعوهم إلى إخلاص الإسلام إليه — معنى ذلك أن القبائل الكبرى أو الشعوب مثل شعب كنانة بن العدنانيين ، وشعب الأزد بن القحطانيين ، لا تملك هى ومن تفرع عليها من القبائل والعمائر والفصائل والأحياء العربية أية كرامة عند الله إلا بالتقوى ، وهذه التقوى لاتتحقق لها إلا إذا أدركت من حكمة الخلق نعمة « التعارف » بينها على المعروف والعدل والإيثار والموادعة ، مستجيبة لله ، ومؤمنة به ، ومؤتلفة عليه . .

هكذا فوق « عرفات » ، وفى موسم الحج ، شاء الله فى حكمة الحج كما أوحى بها إلى إبراهيم أن يجمع الناس من أكباد الشعوب والقبائل العربية رجالا ونساء « ليتعارفوا » باتجاه التقوى كما هى حكمته تعالى إلى اليوم من خلق الناس . إن هؤلاء الحجيج إلى الله يتوجهون بإحرامهم إلى « عرفات » أو « عرفة » شرقاً ليقضوا اليوم التاسع من ذى الحجة معاً ، وقليلا من ليلة العاشر منه ، فوق هذه الهضبة الواسعة قبل أن يفيضوا إلى مزدلفة باتجاه البيت ، فى ساعات هى أثمن مافى العمر ، ومافى مناسك الحج ، ليتعارفوا بينهم على التقوى .

إنهم فوق هذه الهضبة الواسعة يقيمون خيامهم ، وقد أقبلوا من شتى الشعوب والقبائل ، ومختلف الأودية والفجاج ، وذلك « ليتعارفوا » باختيارهم على ماهداهم الله إليه ، وقد استقبلوا بوجوههم بيت الله ، رافعين إلى الله الواحد أصواتهم بالدعاء والتلبية ، والتسبيح والتهليل ، وقد أصبحوا فى هذه اللحظات المضيئة التى اجتمعوا بها فى إحرام واحد ، ودعاء واحد ، ولسان عربى واحد ، تحت رب واحد ، وكأنهم فى وحدة « تعارفهم » نحو الله ، وبتقوى الله ، جسم واحد ، قد ارتبطت جميع قلوبهم بداخله ارتباط ذرات وخلايا الجسم الواحد ، الجسم المطهر ، البالغ اليقظة والصحوة باتجاه مايحييه ، بينما هذه الخلايا والذرات — رغم انشغال كل منها بنفسه وربه — تضيئها وتنقيها وحدة « تعارفها » على هذه « التقوى » الجامعة والسابغة ، من حيث هى تتطهر بين يدى ربها وتستغفر ، وتسبح بحمد بارئها المنعم عليها وتلبى . .

حكمة الطواف :

أما عن حكمه الطواف للحاج ، أو للمعتمر ، حول الكعبة ، وسواء أكان ذلك طواف قدوم للحاج أو للمعتمر أو طواف إفاضة للحاج من عرفات ، فإن هذه الحكمة كما أشرت من قبل فى دلالة الكعبة على الله ، تتجلى للحاج والمعتمر فى هذا « الحضور العظيم » لله سبحانه عند بيته فى هذا الموقع من قلب الأرض ، ومن مركز الدين الحق ، ومنارة الإشعاع الدائم به فى كل العصور ، وباتجاه كل البشر . إنه بهذا الحضور العظيم لله ، ومعه ، يطوف الحاج سبع مرات حول الكعبة مبتدئاً من الحجر الأسود الذى هو علامة بدء الطواف ، بينما هو يلبى الله ، ويحمده ، وينفى الشركاء

عنه ، مجدداً بهذا الطواف عهده مع الله بصدق الإسلام إليه ، والعمل على تقواه ، والإخلاص الدائب فى طاعته ، وإيتاء أهل الحق مالهم من حقه ، وإيثار أهل الحاجة بما فى يده من ماله .

هذه الحكمة البالغة من الطواف ، وهى غاية ما تبدأ وتنتهى به حكمة الحج ، لم تكن غائبة عمن صدقوا أداء مناسك الحج لله منذ إبراهيم ، وعندما أشرق الإسلام فى أبهى حلله وأضوائه على عهد النبى الكريم وأصحابه ، ثم خلف من بعد هؤلاء خلف ضاعت من أكثرهم المعالم ، وخفى الطريق ، وقد توارت فى عجمة الألسنة ، وعلوم التلقين ، وتجارة التطويف ، وغيبة العهد مع الله ، أكثر حكمة الحج ، وحكمة الطواف ، ولذلك فلم يكن عجباً أن يتضاعف عدد الحجيج مرات كثيرة عما كان عليه أيام الرسول ، وأيام إبراهيم ، ثم يبقى ويطول تراجع المسلمين عن بناء مجتمعهم المؤمن ، وعن إقامة شرائع الله وإعلاء أخلاق دينه فى هذا المجتمع . وكيف لايتراجعون ، ويتفرقون ، ويستعجمون ، ولم يعد أكثرهم يذكر شيئاً عن حكمة هذا العهد والميثاق مع الله ، وبين يدى هذا الحضور العظيم لله الذى جاء ملبياً له بالحج إلى بيته . هذا العهد المسئول الذى يتجدد به إقبال الحاج المؤمن بالشكر والخشية ، وبالصدق والأمانة ، على إعظام حقوق الله إذا مارجع المؤمن من الحج إلى أهله ، وسار فى الأرض يضرب فى جنباتها ابتغاء فضله ورضوانه . . ؟

نعم . . كيف لايتراجعون عما يوجبه عهد الله بالحج ، وقد حج الملايين من الخاصة والعامة ، وهم قد فقدوا فى وعظ الواعظين ، وكتب العلماء أو المتعالمين ، أية إشارة فى التعريف بالحج ومناسكه إلى حكمة هذا الحج ، أو حكمة هذا الطواف بالكعبة بيت الله فى هذا الحج . . فلا عجب إذن

أن يصدق فى أكثر العرب المسلمين فى هذا العصر قول الله تعالى :

« فَخَلَف مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوْا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ ، فَسوْف يَلْقَوْنَ غَيًّا * إلاَّ مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُوْلَئِكَ يدْخُلُونَ الْجَنَّةَ ولَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا » (مريم : ٥٩ ، ٦٠)

والصلاة لاتضيع بين المؤمنين المسلمين إلا إذا ضاع الحج ، وضاعت حكمة العهد المسئول مع الله فيه . . فى كل مناسكه ، وفى الطواف المشهود والمسموع من الله حول كعبته . وحتى يسترجع المسلمون حكمة الحج إلى البيت المعمور ، وحكمة الطواف حول البيت المنير ، ندعو الله أن يستهدى سدنة البيت ، بما كان من عهد الله مع ابراهيم الحنيف ، ومع والده اسماعيل صادق الوعد ، بشأن الرعاية لهذا البيت ، والترشيد الصالح للحاجين إليه والمقيمين فيه ، والتطهير لأرضه وحرمه من كل ما يشير إلى الشرك ، وما يباعد عن صحة الإسلام . هذا العهد الذى نزل به من قوله تعالى :

« وَعَهِدْنَا إِلَىَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعَ السُّجُودِ». (البقرة : ١٢٥)

إن تجدد هذا العهد المسئول بتطهير بيت الله ، وترشيد الحجيج بحكمة الحج إليه ، والطواف به ، هو علامة الشروق الوشيك إن شاء الله على الطريق القويم للعرب والمسلمين ، ليقيموا الصلاة التى تجمعهم على طاعة الله ، وليؤدوا فريضة الحج التى يجددون بها العهد والميثاق مع الله ، مسلمين متقين ، وحنفاء غير مشركين ، إن شاء الله رب العالمين .

السؤال الثـــالث :

« هل ترى أنه من المتيسر لمن لا يحيط علماً بسيرة إبراهيم عليه السلام ، ومن لا يستبين منهج حنيفيته ، أن يتسع فهمه لاستيعاب حقائق سيرة النبي الكريم ، واستبانة دقائق دعوة القرآن الكريم إلى الإسلام الحق ؟

اشرح فى تأكيد ماتراه قول الله تعالى :

« إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ » (النحل : ١٢٠)

وقوله تعالى لنبيه الكريم :

« ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ، وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ». (النحل : ١٢٣)

الإجـــابة :

عندما يقرأ أبناء الشعوب العربية فى هذا العصر قول الله تعالى لأسلافهم الذين آمنوا بدعوة الرسول الكريم :

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ . وَجَاهِدُوا فِى اللهِ حَقَّ جِهَادِهِ ، هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ، مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ ، هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ » (الحج : ٧٧ ، ٧٨)

عندما تقرأ هذه الأجيال فى كتاب الله أن الإسلام هو دين إبراهيم ، الذى هو أبوهم ، والذى سماهم بهذا الإسم « المسلمين » من قبل ، فأنهم ولاعجب يتفتحون بقلوبهم وعقولهم لمعرفة الكثير من سيرة إبراهيم ، الذى يتجلى لهم من سيرته فى القرآن الكريم أنه لا « أصالة » لهم فى تاريخ الدين الحق الذى يتعبدون إلى الله به إلا إذا عرفوا تفاصيل هذه الحياة الغنية بالسعى والتفكر والرشد والجهاد والرجاء العظيم فى الله لهذا « الأب العظيم » إبراهيم كما أبرزالقرآن الكريم معالم ومراحل وغايات حياته ، لالشىء إلا لأنها كانت فى تاريخ الدين الحق هذا المنعطف الفاصل والمبين الذى استقامت به مسيرة الدعوة إلى الله فى أبنائه بغير عسر ولاحرج ولا إبهام . .

الأمــة والإمــام :

يقول الله تعالى من سيرة إبراهيم فى كتابه الكريم :

« وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ » (الأنبياء : ٥١)

ويقول تعالى :

« وَكَذَٰلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ ». (الأنعام : ٧٥)

فالله سبحانه وتعالى قد آتى إبراهيم الرشد فى مرحلة فاصلة فى تاريخ الدين ، وكذلك أراه الكثير من آيات خلقه ، ومن اتساق متغيرات هذا

الخلق فى طاعته ، وهو يوجهه بالرشد والعلم ، داخل ملكوت السماوات والأرض الذى أشهده عجائب حركته ، ليستنبط إبراهيم من هذه المشاهد وهو بعد فى بواكير الصبا ، منهجه العلمى الدينى المتميز فى الاستدلال ، وليكون بما وثق به ، وما اطمأن إليه ، من هذه المشاهدة للآيات ، والعلم بدلالتها ، والبرهان على الله فى حركتها ، من المؤمنين الموقنين .

بهذا الرشد ، والمنهج ، والحجة ، واليقين ، أتم الله أنعمه على إبراهيم وهو يسير به إلى الأرض الطيبة ليرفع هو وأول الراشدين الصالحين من ذريته « إسماعيل » هذه القواعد الراسخة الباقية من بيت الله ، ولتستقر شجرة الدين الحق التى غرسها بإقامة هذا البيت مباركة فى الأرض لاينحسر ظلها ، ولاتنقطع ثمارها ، وقد استوى للدين الحنيف ، على ملة إبراهيم ، وصراطه المستقيم ، أن تشرق شمسه ، وتنتشر الدعوة إليه ، وتنتصر الحجة به . وفى هذا المعنى يقول تعالى وقد قرن دعوة الرسول الكريم إلى الإسلام بمصدرها وأسوتها وقواعدها ومحكماتها من دعوة إبراهيم :

« وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا » (النساء : ١٢٥)

فكيف إذن وقد تجلت دعوة إبراهيم ، وحنيفيته ، فى كل دعوة إلى الدين من بعده ، فى مقامها من الأسوة المتبعة ، والوصايا الهادية . لايكون العلم المحيط بسيرته شرطاً لاستيعاب المؤمن حقائق الدين فى دعوات الرسل من ذريته ، وبخاصة هذه الرسالة الخاتمة والباقية والمهيمنة فى دعوة أفضل

المرسلين من هذه الذرية ، وخاتمهم ، الذى نزل عليه القرآن ، والذى حقت له الاستجابة لدعاء أبويه إبراهيم وإسماعيل ، محمد عليه الصلاة والسلام ؟

كيف وإبراهيم هو الأمة ، أو الطليعة المرشدة ، والإمام ، لكل الرسل الذين جاؤوا من بعده من ذريته ، ولكل من صدق إيمانهم به من إخوانهم وأبنائهم ، وذرياتهم ، ومن اهتدوا بهديهم من الأمم القريبة إليهم . . . كيف لايكون العلم الواسع ، والمستبصر ، والمتمكن من حقائق سيرته ودقائقها ، شرطاً للدعاة والهداة من بعده ، من متبعى ملته ، ومن المسلمين المخلصين اتباعاً له ، وهم المأمومون به ، والآمنون من التيه بتتبع طريقه ، والترشد برشده ؟

يقول الله تعالى من قوله الفصل فى إمامة إبراهيم لجميع من بعده من المسلمين ، من ذرية إسماعيل وإسحاق :

« إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ * شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ ، اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ * وَآتَيْنَاهُ فِى الدُّنْيَا ، حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِى الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ».

(النحل : ١٢٠ – ١٢٢)

إذن فهذا الإمام الذى آتاه الله علم « الحنيفية » التى هى منهج الجدل – بغير فلسفة – عن الله الحق ، وعن سنته فى وصايا الدين ، وشرائعه ، وأخلاقه ، قد كان قانتاً صادق الخشوع لله ، والخشية من الله ، كما كان شاكراً لأنعمه التى لاتحصى عليه ، فى حياته ، وبعد حياته فى

ذريته ، فقد اجتباه واصطفاه للرسالة التى حمله أمانتها ، وهداه بها إلى هذا الصراط المستقيم ، محسناً إليه فى الدنيا ، ومتقبلا له فى الصالحين فى الآخرة . .

أفلا يحق لهذا الإمام الذى ارتقى بأنعم الله ، وفى طاعة الله ، ليكون عبد الله وخليل الله . . أفلا يحق للرسل المهتدين من ذريته أن يأتموا به ، وأن يحيطوا علماً بسيرته ، وأن يستوعبوا مما علمه الله علم « حنيفيته » ومنهج بنائه للأمة المسلمة من ذريته من بعده ، وقد أمرهم الله كما أمر رسوله والمؤمنين معه باتباعه فى قوله :

« ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ، وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ » (النحل : ١٢٣)

كيف يكون معقولا بعد ذلك أن تنزل الحجب والأستار على سيرة إبراهيم بين المسلمين فى هذا العصر ، حتى بين أكثر دعاتهم وعلمائهم ، غافلين عن مكانه من هذه الإمامة الرائدة ، والحنيفية الراشدة ، والأبوة الحانية ، وهو الذى يتردد اسمه كل يوم فى صلوات المصلين فى تشهدهم ، وهم يسألون الله أن يصلى ويبارك على النبى وآله كما صلى وبارك على إبراهيم . . وعلى آل إبراهيم ! ؟

كيف لاتنزاح هذه الحجب المتكاثفة ، وإلى متى تبقى هذه الغيوم الأسطورية ، حول سيرة إبراهيم الحنيف . . كيف . . وإلى متى . . وهل يظل بعيداً هذا اليوم الذى تعود فيه سيرة هذا الإمام الرائد الراشد

فتشرق على المؤمنين من ذريته ، بكل أنعم الله عليه ، ليستهدوا بها ، وبما كان من رجائه فى تعرب ألسنة ذريته ، واستواء فطرتهم وأخلاقهم، حتى استجاب الله بخير أمة أخرجها للناس بصحة إيمانها ، وسلامة بيانها ، وفضائل أخلاقها . .

لعل هذا اليوم أن لايكون بعيداً ، ونحن اليوم كما كان الأمر على عهد النبى صلى الله عليه وسلم ، ومن بعده ، أولى الناس بإبراهيم علماً بسيرته ، واتباعاً لدينه وحنيفيته ، والله سبحانه وتعالى يقول فى هذا الحق القابل للتجدد ، بل الواجب التجدد :

« إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا ، وَاللهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ ». (آل عمران : ٦٨)

الحنفاء المعاصرون :

وأخيراً فى الإجابة عن هذا السؤال نذكر بقول الله تعالى فى صفة الإسلام :

« أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى السَّمَاءِ » (إبراهيم : ٢٤)

إن آية الله الكبرى والباقية بالقرآن الكريم هى هذه الكلمة الطيبة بالدعوة إلى الإسلام، ولاشك أن هذه الشجرة كما تفرعت على أصلها الثابت ، صاعدة بفرعها إلى السماء فى دعوة محمد ، فإنها تقوم راسخة

على هذه الجذور من دعوة ودعاء إبراهيم ، الذى نادى ودعا ربه قائلا مع ولده إسماعيل وهما يرفعان القواعد من بيته :

« رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا ، إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ • رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ »

(البقرة : ١٢٨ ، ١٢٩)

ومعنى هذا ونحن نشهد اليوم بقايا هذه الثمرة الطيبة من جهاد الرسول وأصحابه لنصر الإسلام ، وبينما لايزال أكثر المسلمين يعيشون بالرجاء والأمل حول كتاب الله المحفوظ وإن اتخذه أكثرهم « مهجوراً » بسبب عجمة ألسنتهم ، وبطول الأمد الذى قست به قلوبهم ، وكذلك بسبب إحداق أعدائهم بهم ، يبتلونهم بالفتنة عن دينهم ، ولغتهم ، وأصالتهم . . إن معنى هذا أن نبادر فنسترجع سيرة الإمام الراشد ، والأب الرائد ، إبراهيم الحنيف ، وأن نسرع فنستعيد من دعائم الدين الحق فى دعوته ووصيته هذه الجذور الراسخة لهذه الكلمة الطيبة التى « أصلها ثابت وفرعها فى السماء » ، وأهمها بالنسبة لنا اليوم منهج إبراهيم فى الاستدلال على الله بهذه « الحنيفية » التى تملك البرهان على الله ، والجدل الفطرى والعلمى والدينى عنه بغير تفلسف ، وبغير انقطاع ، فضلا عن إضاءتها الدائبة للطريق المستقيم ، طريق التقوى والهدى ، والأسوة والعمل .

لقد أحاطت الفتنة بإبراهيم فى أول صباه كما تحيط بشباب اليوم وشيوخه . . فتنة الآلهة الكاذبة . . . الآلهة التى ابتدعها الأفك . . فتنة الأفكار المستوردة إلى أرض الدين والفطرة . . والرسالات والشرائع . . فانبرى لها إبراهيم يبهتها بحجة الله ، وهو يغترف العلم الذى علمه الله من مصادره الباقية إلى اليوم . . مصادره فى سواء « الفطرة » ، وفى ملكوت السموات والأرض ، سيرا فيه ، وتفكرا وتدبراً لآيات الله به ، ثم فى وحى الله وكتبه تصديقاً لما فى الفطرة والملكوت . .

وهكذا ببساطة الحق وجلاله وثرائه قال إبراهيم لنفسه . . قال وهو يحدثنا فيمن حدثهم من ذريته ، وممن أوتى السمع من الناس أجمعين . . قال بلسانه وحنيفيته هكذا :

• إنهم يعبدون الكواكب والأقمار والشموس . . لأنها تضىء لهم بالنهار والليل .

• ولكنى أراقب الكواكب والأقمار والشموس فأراها تأفل . . والله الحق لايأفل .

• إننى بذلك إذا ملت عن كل هذه الآلهة الكاذبة التى تأفل . . أجد نفسى تماماً ، وكما فطرنى ربى ، مع الله الحق الذى لايأفل أبداً . . الله الذى هو نور السماوات والأرض بغير أفول . . »

من هذه البداية وضع ابراهيم بما آتاه الله من رشده ، وما أعده به لرسالته ، هذه الحدود الأولى لحنيفيته . . فنحن لانشير إلى الله الحق الذى

لاتحد قدرته ، ولا تتجسد ذاته ، فنقول : هذا هو الله . . بل نقول كما جاء به بعد إبراهيم منهج القرآن الكريم : لا إله إلا الله . . أى إن المؤمن وهو « ينفى » كل ما على الأرض ، وما فى الأنفس ، من آلهة الشيطان ، وآلهة الإفك ، وآلهة الهوى ، يكون قد « أثبت » بكل اليقين ، ودون تجسيد أو تشبيه ، إيمانه بالله الحق ، رب السماوات والأرض . . رب العرش العظيم . .

هذه هى البداية وحدها . . فماذا بعد من ثمرات هذه « الحنيفية » فى برهانها وطرق هدايتها ؟

ماذا يملك المسلمون المعاصرون من ثمرات وتطبيقات هذه الحنيفية السمحة ، الغنية ببرهانها وإشعاعاتها ، ليهتدوا إلى الله الحق ، مخلصين مؤتلفين ، مسلمين لله . . حنفاء معاصرين غير مشركين ؟

إننا نحن المسلمين نملك الكثير . . إننا نملك أن نقول مثلا :

• المؤمن يسعى ، فليس له إلا سعيه . . والمؤمن يعمل فليس له إلا عمله . .

• إذا لم يعمل المؤمن الشر — بينما استمر يعمل — فإنه تماماً سيعمل الخير . .

• إذا اتقى المؤمن المنكر . . بينما استمر يسير . . انفتح له تماماً طريق المعروف . .

كذلك فإننا نملك فى هدى هذه الحنيفية أن نقول :

• إذا ابتعدنا عن تقويم لساننا العربى بحفظ كتاب الله منذ الصغر . . ابتعدنا عن فهمه . .

• وإذا ابتعدنا عن فهم كتاب الله . . ضللنا عن سبيل الهدى به . .

• وإذا ضللنا عن هذا الصراط المستقيم الواحد للهدى به . . تعددت الطرق التى تتفرق بنا عنه . . .

• وحتى نعود إلى صراط الله الواحد المستقيم . . فإن علينا أن نعود إلى كتاب الله . . تدبراً وعملا .

أليس هذا هو الطريق الذى نؤكد به انتماءنا واجتباءنا لهذا الدين الحق . . ؟

ألسنا فى مصر أكثر أجزاء الوطن استنارة وعلماً وتحرراً . . نقول مثل ذلك اليوم ؟

إذن فكيف لانستعيد أصالتنا فى التاريخ باستعادةالعلم بالسيرة الصحيحة لأبينا إبراهيم. . ؟ !

وكيف .. على أكثر أرض الدين والرسالات تحرراً ووعياً لانسترجع الاستجابة لفطرتنا السوية . . بأن نسترجع الحياة السوية معها بصدق الإيمان ، وعربية البيان . . ؟ !

وكيف . . وقد تفشت فى العصر الحديث ظاهرة أن الإنسان العربى فى أكثر أجزاء وطنه أصبح « يكلم نفسه » فى أعراض الفصام عن فطرته ،

وقلق البحث عن هويته ، وقد كادت فطرته أن تنطمس ، وهويته أن تغيض ، فى زحام الوساوس والطمس ، وفى صراع المذاهب والأفكار ، مما ينقض بعضه علينا من الخارج فى أثواب الفتنة ، وما يتخلق بعضه الآخر داخلياً من هواجس البلبلة . . !

كيف لانسترجع اليوم علمنا بالسيرة النقية والغنية لإبراهيم . . وكيف لانستبين منهج حنيفيته — كما هو نص هذا السؤال — وذلك حتى يتسع فهم المسلمين المعاصرين لاستيعاب حقائق سيرة النبى الكريم ، واستبانة دقائق دعوة القرآن الكريم إلى الإسلام الحق . . كيف لا . . وإبراهيم هو الذى يعلمنا بهذه الحنيفية العلمية الفطرية أبسط الطرق وأسرعها إلى التحرر بالدين على طريق الإيمان والعلم ، والسلام والعدل ، والعمل والإيثار . .

• إنه يعلمنا أنه لابد من « لا » قوية . . إذا أردنا « نعم » غنية وسوية .

• إن « لا » القوية للكفر . . هى « نعم » المجدية للايمان .

• إن « لا » للسيئات المهلكات . . هى « نعم » دائماً للصالحات المنجيات . .

• إن « لا » هى النذير الذى تتحقق به « التقوى » . . كما أن « نعم » بعدها هى البشير الذى ينتصر به « المعروف » . .

وهذا هو ضوء من حياة إبراهيم . . الأب الراشد لكل ذريته من الرجال والنساء ، ومن الشباب والشيوخ لاعجب أن نزيل الحجب اليوم عن سيرته ،

وأن نوجه قلوبنا وعقولنا لنستهدى إلى الله الحق كما استهدى هو إليه بفطرته وحنيفيته . . . لنكون ونحن نعود إلى الله وكتابه ، وإلى شريعته وأخلاق المؤمنين به ، حنفاء العصر . . الشاكرين لله نعمته فينا بأن هدانا بدعوة محمد ، واجتبانا بدعاء إبراهيم ، ولم يجعل علينا فى الإسلام الحق من حرج . . كما لم يجعله على أسلافنا . . وكما سيمضى الأمر فى أجيالنا إلى أن يشاء الله . . وسبحانه هو القائل فيما لانفى حقه من الشكر إلابصدق الإنابة ، وصدق المتاب ، وحسن المـآب :

« هُو اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ، مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيم ، هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِى هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ » . (الحج :٧٨)

والحمد لله رب العالمين . . .

* * *

القسم الثاني

القرآن والتفكر

يجيب عنه

الدكتور السيد رزق الطويل

رئيس جماعة دعوة الحق الإسلامية

والمدرس بجامعة الأزهر

السؤال الأول :

اشرح قول الله تعالى :

« ان فى خلق السموات والأرض واختلاف الليـل والنهـار لآيات لأولى الألباب * الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنـوبهم ويتفكرون فى خلق السـماوات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطـلا سبحانك » (آل عمران : ١٩٠ ، ١٩١) .

إجابة السؤال الأول

التفكر فى ظلال آية من القرآن الكريم :

فى الآيتين ١٩٠ ، ١٩١ من سورة آل عمران منهج كامل للتفكر الذى دعا إليه القرآن الكريم ، وإليك نص الآيتين :

« إِنَّ فِى خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِى الأَلْبَابِ * الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ». (آل عمران : ١٩٠ ، ١٩١)

وبإلقاء النظرة الواعية على هاتين الآيتين تتبين لنا أمور :

- أولهـا : تقدم الآيتان موضوعاً للتفكير
- ثانيهـا : إلتماس العبرة من آيات الله مقصور على أولى الألباب .
- ثالثهـا : صفتان ذكرتهما الآيتان لأولى الألباب : الذكر ، والفكر .
- رابعهـا : الثمرة التى يجنيها المسلم بتفكره .

وبتوضيح هذه الأمور الأربعة يتكشف معنى الآيتين الكريمتين .

فى الآيتين موضوع للتفكير :

وهو ينحصر فى أمرين : الأول خلق السموات والأرض .

الثانى : اختلاف الليل والنهار :

آيتان من آيات الله يقدمهما القرآن الكريم موضوعاً للتفكير ، ومجالا خصباً لأولى الألباب الذين اكتمل لديهم وعى الإيمان وبرهانه ، ليفكروا ويتدبروا ، ويزدادوا يقيناً على يقين .

وموضوع التفكر الذى يقدمه القرآن الكريم ، يدور حول آيات الله فى الإنسان وفى الكون ، والحياة ، نراه أحياناً بصورة مفصلة ، تتبع آيات عدة فى الكون ، وأحياناً نراه بصورة مجملة .

مثال النوع الأول قوله تعالى :

« إِنَّ فِى خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِى تَجْرِى فِى الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا

مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ». (البقرة : ١٦٤)

فقد قدمت هذه الآية مجموعة من الظواهر الكونية ، أو قل مجموعة من سنن الله فى الكون بلغ عددها خمس سنن كونية هى : خلق السموات والأرض — اختلاف الليل والنهار — الفلك فى البحر — المطر وأثره — تصريف الرياح .

ومثال النوع الثانى : هاتان الآيتان : من سورة آل عمران ؛ إذ قدمت موضوع التفكر بإيجاز بالغ ؛ إذ نراه هنا مقصوراً على أمرين هما : خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار ، بينما أفاضتا فيمن هم أهل للتفكر ، وفى أوصافهم ، وأسلوبهم فى التفكر ، والنهاية التى يصلون إليها بتفكرهم .

واقتصار الآية هنا على اثنين — فقط — موضوع التفكر ، لايعنى إهمال غيرهما ، وإنما نرى فى الأمرين كل موضوعات التفكر من سنن الله وآياته ، إذ أن خلق السموات والأرض ، واختلاف الليل والنهار وعاء شامل لما فى الكون من عجيب المخلوقات وروائع الآيات .

ونوضح هذه الحقيقة فيما يلى :

خلق السموات :

آية من آيات الله تشد انتباه كل ذى لب ، فى رفعها بهذه الصورة التى نراها ، وفى تماسكها ، وفيما تحفل به من آلاف المجرات ، وبلايين النجوم

والكواكب ، لانرى منه إلا أقل من القليل ، والقليل الذى نراه رائع ومثير .

ثم الرياح وحركتها فى الجو ، وحملها للسحاب ، ثم إنزال المطر ، وإسهام هذه الظواهر الجوية فى توفير البيئة الملائمة لحياة الإنسان ، ونمو النبات ، وتوافر أنماط معينة من الحيوان .

وقد لفت القرآن الكريم أنظار أولى الألباب ، وحرك بصائرهم إلى ذلك كله .

قال تعالى :

« الَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَى فِى خَلْقِ الرَّحْمٰنِ مِنْ تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِن فُطُورٍ • ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ • وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِّلشَّيَاطِينِ » .

(الملك : ٣ ، ٥)

وقال تعـــالى :

« اللهُ الَّذِى رَفَعَ السَّمٰوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُم بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ »

(الرعد : ٢)

وقال تعـالى :

« أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاء فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ » .
(ق : ٦)

ثم قال :

« وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاء مَاءً مُبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ »
(ق : ٩)

وقال تعـالى :

« وَهُوَ الَّذِى أَرْسَلَ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاء مَاءً طَهُورًا ۝ لِّنُحْيِىَ بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنَاسِىَّ كَثِيرًا »
(الفرقان : ٤٨ ، ٤٩)

وقال تعـالى :

« إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاء الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ » .
(الصافات : ٦)

وقال تعـالى :

« وجَعَلْنَا السَّمَاء سَقْفًا مَّحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ »
(الأنبياء : ٣٢

خلق الأرض :

آية أخرى لأولى الألباب ، تتجلى فى خلق الأرض ، وبسطها ، وتمهيدها لحياة الإنسان ، والكائنات الأخرى عليها ، وإعدادها للزراعة ، والبحار التى تغطى أكثرها ، والأنهار التى تجرى على ظهرها ، والمعادن التى تكمن فى باطنها ، كما انتثرت الجبال عليها لتثبتها حتى لاتميد فى حركتها .

وقد حدثنا القرآن الكريم فى مواضع شتى عن آية خلق الأرض ، وما يستتبع ذلك من آيات بينات .

قال تعـالى :

« قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِى خَلَقَ الْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ * وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِىَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِى أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ » .

(فصلت : ٩ ، ١٠)

وقال تعـالى :

« وَاللهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا * لِّتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا » .

(نوح : ١٩ ، ٢٠)

وقال تعـالى :

« أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا * وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا » .

(النبأ : ٦ ، ٧)

وقال تعـالى :

« وَهُوَ الَّذِى مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِى اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ • وَفِى الْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِى الْأُكُلِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ». (الرعد : ٣ ، ٤)

وقال تعالى :

« وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَاهَا • أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا • وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا • مَتَاعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ ».

(النازعات : ٣٠ ، ٣٣)

وقال تعالى :

« وَمَا مِن دَابَّةٍ فِى الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِى كِتَابٍ مُّبِينٍ » (هود : ٦)

وقال تعالى :

« وَآيَةٌ لَّهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا

فمنه يأكلون . وجعلنا فيها جنات من نخيل وأعناب وفجرنا فيها من العيون . ليأكلوا من ثمره وما عملته أيديهم أفلا يشكرون . سبحان الذى خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون » (يس : ٣٣ ، ٣٦)

وقال تعالى :

« وآية لهم أنا حملنا ذريتهم فى الفلك المشحون » .

(يس : ٤١)

وقال تعالى :

« وما ذرأ لكم فى الأرض مختلفا ألوانه إن فى ذلك لآية لقوم يذكرون . وهو الذى سخر البحر لتأكلوا منه لحما طريا وتستخرجوا منه حلية تلبسونها وترى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون . وألقى فى الأرض رواسى أن تميد بكم وأنهارا وسبلا لعلكم تهتدون » .

(النحل : ١٣ – ١٥)

فى هذه الآيات المتعددة من القرآن الكريم يتكشف لنا مافى آية خلق الأرض من دلائل واضحة على قدرة الله وعلمه ، وبديع صنعه ، وآثار رحمته .

وفيما نلاحظه فى الآيات التى تتحدث عن السماء والأرض أنها تعطف الأرض مفردة على السموات جمعاً ، مع أن هناك أرضين سبعاً بنص القرآن ؟ إذ يقول تعالى :

« اللهُ الَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًا » (الطلاق : ١٢)

وسر ذلك فى تقديرى أن تعدد السموات ، واختلاف المجرات ، وكثرة المجموعات الشمسية من الأمور التى وصل الإنسان إلى علم كثير منها ، أما الأرض فسيبقى تصور الإنسان لها مترابطة ، متماسكة ، جعلها الله مهاداً لحياته وللكائنات التى تعيش معه ، برغم علمه بطبقاتها ، واستخراجه المعادن والكنوز من باطنها ، لكن تقاربها جعله يراها أرضاً ومن هنا خاطبه القرآن بما يفهم وما يتصور .

اختلاف الليـــل والنهـــار :

آية ثالثة فى موضوع التفكر الذى تعرضه بإيجاز هاتان الآيتان من سورة آل عمران .

إن اختلاف الليل والنهار ظاهرة كونية ، بالغة التأثير فى حياة الإنسان ، وتفكيره فيها — يمنحه مزيداً من اليقين الراسخ ، والإيمان القوى ، ذلك لأن اختلاف الليل والنهار يعنى الإشارة إلى الفصول الأربعة : الصيف والخريف والشتاء والربيع ، حيث تختلف فيها ظروف الحرارة ،والرياح،

والمطر ، ثم إن طول الليل فى الشتاء وقصره فى الصيف ، وعكس ذلك بالنسبة للنهار يرتبط هذا كله بظروف الإنسان وعمله وسعيه فى الفصلين المختلفين ، كما هو مرتبط أيضاً بظروف الكائنات الأخرى ونمو النبات .

وقد تحدث القرآن الكريم عن اختلاف الليل والنهار فى غير هذين الموضعين ، أعنى آيتى البقرة وآل عمران . . فقال تعالى :

« إِنَّ فِى اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ » . (يونس : ٦)

وقال تعالى :

« وَهُوَ الَّذِى يُحْيِى وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ». (المؤمنون : ٨٠)

وقال تعالى :

« وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ أَلْوَانِكُمْ ، إِنَّ فِى ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالَمِينَ » . (الروم – ٢٢)

ونلحظ أن موضوع التفكر فى الآيات السابقة جاء على نهج الإيجاز الذى سارت عليه آية آل عمران التى نحن بصدد دراستها .

وفى سورة الجاثية جاء الحديث عن اختلاف الليل والنهار ، مرتبطاً بما يلازمه من ظواهر كونية ، وفى سياق آيات خلق السموات والأرض ،

مصحوباً بإشارات وإثارات من شأنها أن تحرك أفئدة أهل الإيمان واليقين والعقل أيضاً .

يقول تعالى :

« إِنَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۝ وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَابَّةٍ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ۝ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُون ۝ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ » . (الجاثية : ٣ ، ٦)

ويقول تعالى :

« خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ » . (الزمر : ٥)

أولو الألباب فى القرآن :

وإذا كانت الآيتان قد قدمتا لنا موضوعاً للتفكر على نحو ما أسلفنا فإننا نحس أن الآية تقصر الفكر والتدبر على أولى الألباب .

وقد تعودنا أن نفسر أولى الألباب بأصحاب العقول ، وهو تفسير غير دقيق ؟ لأن العقل قد يشترك بين البشر جميعاً ، وما من إنسان إلا له

منه حظ ، غير أن الحظوظ تختلف ، ومستويات العقول تتباين ، وللكائنات الحية عقول حيوانية تحكم غرائزها وتوجهها إلى مافيه الحفاظ على بقاء نوعها .

والعقل موجود عند كل الناس أما التعقل فلا يسلك سبيله إلا بعض الناس .

ومن أجل هذا لم يقل القرآن لأولى العقول وإنما قال لقوم يعقلون ، أو يتذكرون ، أو يسمعون ، أو يبصرون ؛ لأن المشكلة ليست فى وجود العقل وإنما فى الطريقة الهادية الراشدة فى استخدامه .

وهنا نستطيع أن نكشف السر فى التعبير بأولى الألباب دون أصحاب العقول ؛ لأن أولى الألباب قوم عرفوا نعمة العقل فسخروها فى التفكر فى الكون ، والتدبر فى القرآن ، والاستماع للحق ، والبصر بالأشياء .

ويتأكد لنا صحة هذا عندما نعرض للمواضع التى تحدث فيها القرآن عن أولى الألباب وبتتبعنا لهذه المواضع ، وهى اثنا عشر موضعاً من كتاب الله نخرج بالنتائج الآتية :

١ – أولو الألباب هم الذاكرون ، المتذكرون :

والتذكر ثمرة العقل الراشد ، والفكر الناضج ، والبصيرة الواعية ، وأولو الألباب لهم من ذلك أوفر نصيب ؟ ولذا كانوا رواداً فى التذكر ، واستلهام العبر ، واستكناه أسرار الآيات .

يحدثنا ربنا تبارك وتعالى عن الحكمة التى تتمثل فى الوعى بالدين ، وإدراك أهدافه ، وسداد الخطوات على طريقه ، وأن فى هذه الحكمة خيراً

كثيراً لصاحبها . . يقول تعالى :

« يُؤْتِى الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُولُوا الْأَلْبَابِ » .

(البقرة : ٢٦٩)

إن صفات الله ، وتسليم الأمر فى معناها إليه دون تشبيه أو تجسيم حكمة بالغة ، وعلم راسخ ، وأن من غير الحكمة أن يتدخل الإنسان فى فلسفتها ، وتأويلها ، لكن من ذلك يدرك هذا الرشد ، ويلتزم هذا القصد ، يقول ربنا تبارك وتعالى :

« وَالرَّاسِخُونَ فِى الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُولُوا الْأَلْبَابِ » . (آل عمران : ٧)

والآية التى نتناولها الآن ، وتقدم لنا موضوعاً للتفكر ، تشير إلى أن هذا الموضوع مقدم لأولى الألباب ؟ إذ يقول ربنا :

« لَآيَاتٍ لِأُولِى الْأَلْبَابِ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ » . (آل عمران : ١٩٠ ، ١٩١)

والقصص القرآنى معالم تاريخية تجدد مسيرة البشرية ، هداية للأجيال التالية ، وأولو الألباب أحرص الناس على الاستفادة منها ؛ ولذا قال ربنا :

« لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِى الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى » . (يوسف : ١١١)

والمقدرة على العلم برسالة الله وصدق الرسول ، والتفريق بين من هو كذلك ، ومن هو أعمى يتخبط بلاهداية ، هذا وذاك من خصائص أولى الألباب :

« أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ ». (الرعد : ١٩)

والقرآن الكريم بلاغ وذكرى لأولى الألباب .

يقول ربنا تبارك وتعالى :

« هَذَا بَلَاغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنْذَرُوا بِهِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ » . (إبراهيم : ٥٢)

« كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ » . (ص : ٢٨)

وإدراك حقائق الأمور ، ودقائقها ، وإعطاء كل شيء قدره ، مستوى من الإيمان والعقل يصل إليه أولو الألباب . يقول تعالى :

« أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاء اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ » (الزمر : ٩)

ولأن أولى الألباب ، يذكرون ولا ينسون ، ويتذكرون ولايغفلون

رأينا القرآن الكريم يقدم آيات الكون الكبيرة ، وشواهده العظيمة ، كما يقدم لهم عبر القصص الحق ، ومواعظه .

يقول الله تعالى وهو يقدم ظواهر الكون موضوعاً لتفكر أولى الألباب :

« أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ » .

(الزمر : ٢١)

وهذه آية أخرى يقدم فيها ربنا القصص عبرة لأولى الألباب ، يقول تعـالى :

« وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْهُدَى وَأَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ ● هُدًى وَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ » (غافر : ٥٣ ، ٥٤)

وفى شأن أيوب يقول تعالى :

« وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ » (ص : ٤٣)

٢ — أولو الألباب والتقوى :

أحق الناس بالدعوة إلى التقوى هم أولو الألباب ، وذاك لأن التقوى أعلى مراتب الإيمان ؛ إذ هى تعنى اليقين القوى بالله ، والثقة به حين يستمسك المتقى بشريعة ربه ، ويلتزم حدود دينه ليقى نفسه ومجتمعه

من أسباب البغى والانحراف، وهذه حقائق لايدركها إلا أولو الألباب ، ولذا اختصهم ربنا تبارك وتعالى بالدعوة إلى التقوى يقول الله تعالى :

« وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ ». (البقرة : ١٩٧)

يقول تعالى :

« فَاتَّقُوا اللهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ ». (المائدة : ١٠٠)

« فَاتَّقُوا اللهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ الَّذِينَ آمَنُوا قَدْ أَنزَلَ اللهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ». (الطلاق : ١٠)

٣ ــ أولو الألباب وحقائق الإسلام :

يقترن اسم أولى الألباب دائماً فى القرآن الكريم بحقائق الإسلام الأساسية وقضاياه الكبرى ، وتوجيهاته المؤثرة .

وإذا تتبعنا الآيات السابقة التى عرضنا لها فى النتيجتين السابقتين يتأكد لنا هذا ؛ إذ نراهم دائماً فى مواضع الذكر ، والتذكر ، والذكرى ، وفى التوجيه إلى التقوى ، ومعنا شواهد أخرى .

فى قضية العقيدة ؛ إذ يوجه القرآن الكريم الناس إلى العبودية الخالصة لله سبحانه وتعالى وحده ، ويحذرهم من الطاغوت داعياً لهم إلى اجتنابه ؛ يصف هؤلاء الذين حافظوا على مقام العبودية الصحيحة بأنهم مهتدون

وأنهم أولو الألبـــاب ، فيقول تعالى :

« وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللهِ لَهُمُ الْبُشْرَى فَبَشِّرْ عِبَادِ • الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبَابِ » .

(الزمر : ١٧ ، ١٨)

ويلحظ فى هذه الآية صفة هامة تميز بها العابدون أولو الألباب ، وهى استقامة منهج الاستماع فى سلوكهم ، وهذا أمر من الخطورة بمكان .

ومثال آخر وأخير :

وهو تشريع القصاص الذى يكفل الحياة الآمنة المستقرة للمجتمع المسلم نجده بصفة خاصة من بين تشريعات العقوبات فى الإسلام يتجه القول منه لأولى الألباب ، يقول تعالى :

« وَلَكُمْ فِى الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِى الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ » .

(البقرة : ١٧٩)

صفتان لأولى الألباب :

تقدم هذه الآية موضوع دراستنا صفتين اثنتين لأولى الألباب .

أولى الصفتين : الذكر .

وثانيتهما : التفكر .

الذكــر :

ورد هذا اللفظ فى مواضع متعددة من كتاب الله ، على صورته تلك وعلى صور اشتقاقية متنوعة . وتسوقه الآيات دليلا على الإيمان الصادق وثمرة من ثمراته ، ولعظم شأن الذكر سمى القرآن الكريم ذكراً .

ومعنى الذكر استحضار المؤمن لعظمة الله تعالى وجلاله فى كل مايقابله من مواقف الحياة ، وابتلاءاتها ؟ إذ يعينه الذكر بهذا المعنى على تجاوزها وتخطيها . وبذا يصبح الذكر سلاحاً للمؤمن يواجه به الإغراء والإغواء ، وجنة (بضم الجيم وتشديد النون) تحميه من سهام الغى والإضلال .

والذكر يؤدى وظيفتين متقابلتين ، وفى الوقت نفسه متكاملتين :

أولاهما : عندما يتذكر المؤمن عظمة ربه وجلاله فيخاف مقامه ويعمل حساباً للموقف الصعب أمامه :

« إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ».
(الأنفال : ٢)

ويقول تعالى :

« وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ ٭ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ » .
(الحج : ٣٤ ، ٣٥)

ثانيتهما : بالذكر يمتلىء القلب أمناً من بطش غير الله بقدر ما يمتلىء خوفاً من الله ، يقول تعالى :

« الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللهِ أَلاَ بِذِكْرِ اللهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ » . (الرعد : ٢٨)

وبالذكر يستبقى المؤمن وثاقة الصلة بربه ، ويدعم علاقته بخالقه ، ويتأكد بهذا ضمان استمراره على منهج الرحمن .

ولأن الصلاة تحقق هذه الغاية سميت ذكراً فقال تعالى :

« يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ». (الجمعة : ٩)

« إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللهِ أَكْبَرُ ».

(العنكبوت : ٤٥)

وعلى هذا النهج يتحول الذكر إلى سلوك عملى ، يوجه القلب والجوارح جميعاً ، ويستوعب كل أوقات الإنسان فى هذه الدنيا ، فلايدع له فرصة لتسلط الشواغل عليه ، وعبث المغريات به .

ومن هنا وصف ربنا تبارك وتعالى أولى الألباب بأنهم :

« يَذْكُرُونَ اللهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ ».

(آل عمران : ١٩١)

وفى هذا التعميم لأحوال الذكر فى الآية مايؤكد أن الذكر للمؤمن سلوك يعايشه ، وخلق يلازمه ، وعقيدة توجهه .

فهو إذا قام لعمله وسعيه لاينسى ربه .

وإذا قعد يلتمس الراحة ، لايغيب عنه ذكر مولاه .

وإذا أوى إلى مضجعه يتخفف من متاعب النهار ومكابدته ، يؤكد أنه مع ربه .

وهذا التصور لمعنى الذكر ، كما جاء القرآن ، وكما ورد فى الآية صفة لأولى الألباب يفرض علينا أمراً ينبغى أن نكون على علم به ، وهو أن ذكر اللسان أقل أنواع الذكر ، وأن قيمته فيما يستتبعه من عمل وسلوك، كما أن أكثر الذكر اللسانى مرتبط بالشعائر والعبادات .

فليس من أولى الألباب هؤلاء الذين اصطنعوا حلقات للذكر تتراقص فيها الأجسام على دقات الطبول ، وألحان المزامير ، وغناء المنشدين إذ أن هؤلاء إلى العبث أدنى منهم إلى الحكمة ، وهم إلى أولى الجهل والحمق أدنى منهم إلى أولى الألباب .

التفكر :

والصفة الثانية لأولى الألباب هى التفكر .

والتفكر يعنى إعمال الفكر فيما خلق الله من آيات ، طلباً للعبرة ، وبحثاً عن الهداية ، وخلوصاً إلى الإيمان والحق .

وعطف التفكر على الذكر يشير إلى أن هناك ارتباطاً وثيقاً بينهما وأن الذكر والفكر يتلازمان ، ولا يمكن أن يكون هناك ذكر بدون فكر .

وإذا كان الذكر يعنى استحضار من تذكره ، أو ما تذكره فإن التفكر هو الأداة التى يتم بها الاستحضار ، ويستمر فيدعم الإيمان الصحيح . وميدان التفكر هو خلق السماوات والأرض ، وهو كما أشرنا وعاء شامل لألوان من الآيات التى خلقها الله فى الكون والحياة .

وعطف التفكر على الذكر يلح علينا من ناحية أخرى فى أن نرد رداً حاسماً حول ما أشرت إليه من حلقات الذكر التى اصطنعها المتصوفة على أساس أنها منهج أمثل للذكر ! ! لكنه – فى تقديرى – بهذه الصورة ، وكما تؤكده الآية ذكر أشل ، فقد الجانب الحى الذى يجعله مثالا مؤثراً فى العقيدة والسلوك وهو التفكر فى خلق الله .

وبالتفكر يصل أولو الألباب الذاكرون إلى استبانة حقائق كبيرة وعظيمة .

من هـــذه الحقائق :

إدراك حكمة الخلق ، ووجود الإنسان :

« رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً » . (آل عمران : ١٩٠)

وإدراك هذا الأمر ليس بالهين أو اليسير ، والإنسان المدرك لذلك يقطع شوطاً بعيد المدى فى مسيرة الإيمان .

ولعل هؤلاء الذين ضلوا السبيل ، وانحرفوا عن منهج العبودية الصحيحة على امتداد التاريخ البشرى ، يرجع سر ذلك إلى غياب هذه الحكمة عنهم ، وسيطرة الغفلة على قلوبهم فلم يصلوا إليها .

يقول ربنا تبارك وتعالى :

« أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ فَتَعَالَى اللهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ » . (المؤمنون : ١١٥ ، ١١٦)

ويقول تعالى :

« وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلاً ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ ».

(ص : ٢٧)

على أن القرآن الكريم كشف عن الحكمة فى خلق هذا الإنسان المستخلف فى هذه الأرض ، ويخلف أفراده بعضهم بعضاً ، جيلا بعد جيل . يقول الله تعالى :

« وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ ». (الذاريات : ٥٦ ، ٥٧)

وأولو الألباب عندما يذكرون ، ويتفكرون تستبين لهم هذه الحقيقة الكبيرة ، ويدركون هذه الحكمة العظيمة ، فيضرعون إلى ربهم :

« رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً ». (آل عمران : ١٩٠)

وبالتالى ينهضون بما حملهم الله من أعباء تأكيداً لإيمانهم بسننه فى كونه ، وللفلاح الذى يبلغونه بتنفيذ شريعته .

ومنها إيمانهم بالتنزيه :

« سُبْحَانَكَ ... » (آل عمران : ١٩١)

وأولو الألباب الذاكرون المتفكرون على يقين من الكمال الإلهى ، وأنه تعالى جلت صفاته ، وتباركت أسماؤه ، فوق تصور البشر وإدراكهم

(لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ) تنزه من النقص ، وسما عن الشبيه والنظير ، هو السلام المؤمن المهيمن ، العزيز الجبار ، المتكبر ، له الأسماء الحسنى ، بديع السموات والأرض ، عالم بخفايا الخلق ، لطيف لما يشاء وهو الحكيم الخبير .

وعندما يدرك الذاكرون المتفكرون هذه الحقيقة من وقفات متأملة واعية لايسعهم إلا أن يقولوا :

« سُبْحَانَكَ ...» (آل عمران : ١٩١)

ثم ماذا ؟

تأتى الحقيقة الثالثة :

ربنا الملك الحق ، وهو وحده مالك يوم الدين، ولاتكلم نفس إلا بإذنه، ولاتملك فى هذا اليوم نفس لنفس شيئاً ، والأمر يومئذ له وحده ، إليه وحده تصير الأمور .

« يَوْمَ هُم بَارِزُونَ لَا يَخْفَى عَلَى اللهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ • الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ • وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كاظِمِينَ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ • يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى الصُّدُورُ •

وَاللهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ لَا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ إِنَّ اللهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ » (غافر : ١٦ - ٢٠)

تنجلي لأولي الألباب هذه الحقيقة التي فصلت جوانبها الآيات ، ومن أجل ذلك يضرعون إلى ربهم قائلين :

« فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ » . (آل عمران : ١٩١)

إيماناً منهم بأن الوقاية بيده وحده لمن اتقوا هذا اليوم باتباع شريعته .

* * *

السؤال الثانى :

ما المقصود بالتفكر كما ورد فى عدد من آيات القرآن الكريم ؟

ولماذا تعددت الآيات التى حض الله فيها عباده على السير فى الأرض « لينظروا ويتفكروا » ؟

اذكر عدداً من الآيات الكريمة حول تعزيز التفكر فى آيـــات الله ، حتى يبق الباب مفتوحا بينهم دائما ، وبين هذه الآيات فى السماوات والأرض ؟

الإجابة :

التفكر فى القـــرآن :

التفكر مظهر من مظاهر العقل البشرى ، وأحد نشاطاته الحية التى تتميز بها إنسانية الإنسان ، والفكر ثمرة التفكر ، وحصاده من قضايا ونظريات ينتهى إليها الإنسان بتفكيره .

وقد مارس الإنسان هذا النشاط العقلى منذ وجد على ظهر الأرض ، باحثاً عن رزقه ، محاولا الكشف عن أسباب الظواهر الطبيعية من حوله .

وقد اتسم الفكر الإنسانى فى مراحله الأولى بالصورية ، أو النظرية ، أو الانعزالية عن الواقع الذى يعيشه الإنسان ، وقاد الفكر الإنسانى فى هذه المرحلة فلاسفة اليونان ، وعلى رأسهم أرسطو الذى وضع أسس منطقه الصورى ، الذى ينظم الفكر تنظيما شكلياً ، ويصبه فى قوالب موحدة ، ولا يصل بالإنسان إلى جديد .

وقد فتن المسلمون فى العصر العباسى بهذا المنطق الأرسطى ، وخدعوا

به ، وكان له أثر كبير فيما أصاب فكر المسلمين من جمود نتيجة لغفلتهم عن التفكر بالمعنى القرآنى الذى سنتناوله هنا بما فيه من أسباب الحيوية والقوة والفاعلية .

وقد ثار بعض المفكرين المسلمين على هذا النوع من المنطق وسفهوا أمره ، ومنهم ابن تيمية رضى الله عنه .

ومن شعاع الضوء الذى أطلقه ابن تيمية أمسك الأوروبيون بطرف وخرجوا على الناس بالمنطق المادى أو المنطق الحديث ، الذى قامت على أساسه النهضة الأوروبية المعاصرة .

وعدنا نفتتن به كما افتتن الأسلاف بمنطق أرسطو .

ولكن ماذا فى القرآن الكريم من تفكر ؟

وما معناه ؟ كثر أو قل : ما مغزاه ؟

سنجد نمطاً فريداً يختلف تماماً عن هذا وذاك .

ونمطاً رائعاً يخط أقدم طريق لهداية الإنسان نحو الرشد والسداد فلم يسر فى إطار نظرى صورى يوقف النشاط العقلى ويحده ، ولاينميه .

ولم يتجه إلى المادة وحدها ؟ ليبدأ منها ، وينتهى إليها ، وحسبه الإبداع المادى فلا يصل به إلى أحسن مما وصل إليه الحيوان والحشرة بالغريزة ! !

وإنما هو تفكر عقلى يرتبط بالواقع ، وتفكر مادى يبدأ بالواقع وتعززه قضايا العقل ، وهو فى كلا المظهرين ينتهى إلى نتيجة واحدة هى المعرفة الصحيحة بالله عن طريق سننه وآياته ، ليصح عن طريقها خلقه وعبادته ،

وفهمه ومسلكه ، وتستقيم على أساس هذه المعرفة حياته .

والتفكر بالمفهوم القرآنى يتخذ الأنماط الآتية :

تفكر فى مظاهر الكون ، وسننه ، وبديع الآيات فيه ، ومن أمثلته قوله تعالى :

« أَوَ لَمْ يَتَفَكَّرُوا فِى أَنْفُسِهِم مَا خَلَقَ اللهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ » . (الروم : ٨)

تفكر فى آيات القرآن الكريم لالتماس الهداية ، وطلب العبرة والموعظة ومثاله قوله تعالى :

« وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ » . (النحل : ٤٤)

تفكر فى قضايا بدهية تأنيباً وتوبيخاً للمعرضين الضالين ، وكأنهم بكفرهم يتنكرون لبدهيات عقلية ، لايجمل بمن يملك العقل أى عقل أن يغفل عنها . من ذلك قوله تعالى :

« قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَائِنُ اللهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَى إِلَىَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ »

(الأنعام : ٥٠)

التفكر الفردى بما يملكه عقل الفرد من أناة وتثبت ؛ لأن التفكر بطريقة جماعية فيه حماسة بالغة ، وإسراف فى العاطفة ، وبالتالى مجانبة الصواب ، يقول تعالى :

« قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلاَّ نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ» . (سبأ : ٤٦)

تفكر فى قيمة القدوة عندما تكون الأسلوب القويم لأصح تطبيق لشريعة الله تعالى ، فربنا تبارك وتعالى نزل الكتاب على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم عقائد ومبادىء وشرائع ليبينه للناس بالتطبيق السليم حتى يتبين لهم بهذا قيمة الاقتداء فى تحويل القانون الحكيم إلى تطبيق رشيد ، يقول تعالى :

« وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ » (النحل : ٤٤)

تفكر فى الأمثال القرآنية ، وماترمى إليه من تشخيص المعانى ، وتجسيد المبادىء وتقريب الحقائق البعيدة ، وإدناء المعانى القاصية ، يقول تعالى :

« لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللهِ وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ».
(الحشر : ٢١)

تفكر فى القصص القرآنى الذى يقدم تجارب الأجيال ، وخبرات الأمم

وما لهم من آثار إيجابية أو سلبية فى مجالات العقيدة والسلوك . يقول ربنا تبارك وتعالى :

« فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ». (الأعراف : ١٧٦)

وبإزاء هذه الأبعاد أو الأنماط للتفكر فى البيان القرآنى يتحقق ما أسلفناه من مفهوم له رائع وجديد وبناء ، وعلى أساسه ، تستقيم أمامنا السبل ، وتتضح المعالم ، ويتحقق الاستخلاف والتمكين .

ومن ناحية أخرى تتكشف لنا سمات هذا التفكر .

فهو مستمد من واقع ملموس وظواهر طبيعية عميقة الأثر .

إذا استند إلى قضايا عقلية كانت بديهية أو مسلمة .

يربط حقائق المادة والحياة بالله تعالى على أساس أن الإيمان به هو الغاية المثلى لكل تفكير قويم .

إنه متنوع وشامل ، وموضوعه متعدد يشمل آيات الكون وآيات القرآن ، كما يشمل أحداث الحاضر ، وقصص الماضى .

يتحرك المسلم بهذا التفكر مع العالم المتحرك ، باحثاً عن الحق أين كان ، وملتمساً العبرة والموعظة مما يمر به من أحداث ، وما يحيط به من آيات ولقد كان من أسباب كفر من كفروا أنهم لم يفكروا ، قال تعالى :

« وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ فِى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ » . (يوسف : ١٠٥)

بهذه السمات يتبين لنا أن التفكر بالمعنى القرآنى يدعم العقيدة الصحيحة ، ويبنى الحياة القوية ، ويقيم المجتمع السليم .

السير والنظر :

من بين أنماط التفكر التى عرضنا لها التفكر الذى يتجه إلى قصص السابقين وأخبار الماضين ؛ لنعدل من سلوكنا على ضوء تجارب السابقين فى علاقتهم برب العالمين ؟ ولذا دعانا ربنا تبارك وتعالى إلى الاتجاه بتفكرنا إليها ، وقال لنبيه عليه الصلاة والسلام :

« فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ » . (الأعراف : ١٧٦)

كما قال تعالى :

« لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِى الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَٰكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ». (يوسف : ١١١)

وقال تعالى :

« وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِى هَٰذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ » .

(هود : ١٢٠)

وعلى هذا النحو تعددت فى الكتاب العزيز الآيات الداعية إلى السير فى الأرض وتتبع أخبار السابقين ، والتفكر فى أحوالهم ، وعواقبهم والتمـــاس العبرة والموعظة والدرس .

والمتتبع لآيات النظر والسير يجدها محصورة فى الاتجاهات الآتية :
أولها : النظر الكونى ، أو فى ظواهر الكون ومشاهد الطبيعة ، ليصلوا بهذا النظر إلى يقين قوى بالخالق ، وإيمان راسخ بالبعث والحساب .

ومن ذلك قوله تعالى :

« أَوَ لَمْ يَنْظُرُوا فِى مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللهُ مِن شَىْءٍ وَأَنْ عَسَى أَن يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَىِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ » . (الأعراف : ١٨٥)

وقوله تعالى :

« أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَالَهَا مِن فُرُوجٍ ۝ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِىَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ۝ تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ » . (ق : ٦ – ٨)

وقوله تعالى :

« فَانظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَةِ اللهِ كَيْفَ يُحْيِى الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْيِى الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ) .
(الروم : ٥٠)

وقوله تعالى :

« قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِى الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ » . (يونس : ١٠١)

ثانيها : النظر إلى النفس ، وما فيها من آيات ، ولما قدمته من أعمال لمعرفة مدى استقامتها أو انحرافها عن صراط الله المستقيم :

يقول ربنا تبارك وتعالى :

« وَفِى أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ » . (الذاريات : ٢١)

ومن هذا النوع أيضاً قوله تعالى :

« يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ » . (الحشر : ١٨)

ثالثها : دعوة عامة إلى السير فى الأرض ؛ ليتعلموا من هذا السير كيف ينتفعون بأدوات النظر وأسباب التفكر ، وكأن السير فى الأرض على مستوى الزمان أو المكان يصل بالإنسان إلى النظر العميق ، والتأمل الواعى .

ومن هذا النمط قوله تعالى :

« أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِى الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِها أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِى فِى الصُّدُورِ » . (الحج : ٤٦)

رابعها : النظر التـــاريخى :

والآيات الداخلة فى هذا الاتجاه تشترك فى أمور .

النظر فيها مسبوق دائماً وأبدا بالسير مقترن به ملازم له والسير المراد فيها، هو السير فى الأرض على مستوى الزمان، أعنى البحث التاريخى، والتماس العبرة والموعظة من القصص الحق، وخير شاهد له قصص القرآن الكريم .

« إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ » . (آل عمران : ٦٢)

كلها تحث على البصر بالعواقب ، والتأمل فى النتائج ، والاتعاظ بما حل بالظالمين والباغين ، والكافرين والجاحدين من هلاك وتدمير .

والبصر بعواقب السابقين أعظم درس يردع كل من يفكر فى السير على درب البغى والضلال مثلهم ، وهذا الأمر الذى شد الله إليه اهتمام العرب ، وقريش بخاصة ليعتبروا .

وعلى هذا النهج قوله تعالى فى شأن قوم لوط :

« ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ ۞ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ۞ وَبِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ » . (الصافات : ١٣٦ – ١٣٨)

وقوله تعالى :

« هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ ۞ فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ ۞ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ ۞ وَاللَّهُ مِن وَرَائِهِم مُّحِيطٌ » .

(البروج : ١٧ – ٢٠)

وقوله تعالى :

« أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ • إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ • الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ • وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ • وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ • الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ • فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ • فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ • إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ » . (الفجر : ٦ - ١٤)

كلها تؤكد أن هؤلاء السابقين انتهوا إلى العاقبة الوخيمة لأسباب تكاد تكون مشتركة ، منها مقابلة النعم العظيمة بالجحود والبغى ، أو الوقوع فى التكذيب ، والتورط فى جريمة الشرك . وأن النعم التى أوتيها هؤلاء من قوة وتمكين ، وتأثير فى الأرض ومع ذلك مانفعت قوتهم عندما حلت عليهم كلمة العذاب .

وهذه هى الآيات .

قوله تعـــالى :

« قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ » . (الأنعام : ١١)

وقوله تعـــالى :

« أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ

الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلَا تَعْقِلُونَ» .
(يوسف : ١٠٩)

قوله تعـــالى :

« أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ » . (الروم : ٩)

وقوله تعـــالى :

« قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ » . (الروم : ٤٢)

وقوله تعـــالى :

« أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ اللهُ لِيُعْجِزَهُ مِن شَيْءٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا » .
(فاطر : ٤٤)

وقوله تعـــالى :

« أَولَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ

الَّذِينَ كَانُوا مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِّنَ اللهِ مِن وَاقٍ »

(غافر : ٢١)

قوله تعـــالى :

« أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الأَرْضِ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ » .

(غافر : ٨٢)

قوله تعـــالى :

« أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا » .

(محمد : ١٠)

آيات قرآنية تعـــزز دعوة التفكر :

تحدثنا عن التفكر على ضوء البيان القرآنى، وتناولنا أنماطه ، وتحدثنا عن سماته ، وألقينا شيئاً من التفصيل على أحد أنماط التفكر وهو السير فى الأرض .

والآن ما الهدف من ورائه ؟

الهدف كما أسلفنا أن يظل الباب مفتوحاً بين المؤمنين الواعين وبين

آيات الله فى السماء والأرض ، لتظل عقيدة الإيمان قوية راشدة . وليبقى استمساك المسلم بالأسباب الهادية إلى خير الدنيا والآخرة .

وقد قدمت فيما مضى جانباً من آيات التفكر وأمثلة لأنماطه المختلفة وضروبه المتنوعة ، وبقيت آيات أخرى تعزز الدعوة إلى التفكر .

وهذه الآيات جميعاً بلغت نحو ست عشرة آية من كتاب الله .

وسنذكر هنا الآيات التى لم يرد لها ذكر فيما سبق ، تأكيداً لقضية التفكر ، ودعماً لرسالته الهامة فى بناء اليقين ، ودعم الإيمان ، وترشيد السلوك .

قوله تعـــالى :

« أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ » (البقرة : ٢٦٦)

والتفكر هنا فى صورة مفترضة ، ليعزز قضية إخلاص العمل إلى الله ، كما يكشف عن مغبة الرياء وثمرته المزرية .

قوله تعـــالى :

« إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ

الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ». (يونس : ٢٤)

وهذه الآية تفتح كتاب الكون العظيم ، ليستوعبه المؤمن بفكره الواعى

وقوله تعـــالى :

« وَهُوَ الَّذِى مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِى اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِى ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ » (الرعد : ٣)

قوله تعـــالى :

« يُنْبِتُ لَكُم بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ ، وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِى ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ » .

(النحل : ١١)

قوله تعـــالى :

« ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِّلنَّاسِ إِنَّ فِى ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ » . (النحل : ٦٩)

وقوله تعالى :

« وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ » .　　(الروم : ٢١)

وقوله تعالى :

« اللهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِى قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَى إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ » .

(الزمر : ٤٢)

قوله تعالى :

« وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى السَّمَوَاتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ».　　(الجاثية : ١٣)

بهذه الآيات المتنوعة فى أسلوبها ، المتفقة فى هدفها وهو التفكر تتفتح للمؤمن أبواب اليقين ، وتتعزز صلته برب هذا الوجود ، ودينه القويم ، وشرعه الحكيم .

* * *

السؤال الثـــالث :

لماذا ارتبطت العبادات فى الإسلام من أول الرسالات إلى آخرها بالتقويم القمرى . ؟

ما رأيك فى تنشيط هذا التقويم القمرى لعامل التفكر فى خلق السموات والأرض ، من حيث إنة يتحتم به استطلاع مطلع الأهلة فى أوائل الشهور القمرية التى أصبحت هى الشهور الهجرية بعد ظهور الإسلام ؟

يقول تعالى فى ارتباط العبادات الجامعة فى الإسلام مثل الحج والصوم بالتقويم القمرى :

« إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَابِ اللهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ » . (التوبة : ٣٦)

ماهذه الأشهر الحرم ؟ وما حكمة حرمتها فى تاريخ بيت الله منذ أقام قواعده إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام ؟

الإجـــابة :

ارتباط العبادات بالتقويم القمرى .

الأشهر الحرم وحكمتها .

فى هذين نموذج تطبيقى للتفكر المثمر بالمفهوم الإسلامى .

وسنبدأ بالحديث عن العبادات وارتباطها بالتقويم القمرى .

كيف ارتبطت العبادات بالتقويم بالقمرى ؟

هذا هو ما أكدته آيات القرآن الكريم .

يقول تعالى :

« يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ » .

(البقرة : ١٨٩

ويبدو أنهم سألوا عن أسباب اختلاف أشكال القمر من هلال وتربيع وأحدب وبدر ، فأجيبوا عن شيء كان ينبغى لهم أن يسألوا عنه فلم يسألوا وهو فائدة القمر فى التوقيت وتحديد أزمان العبادة .

وكأن القرآن الكريم بهذا يصرفهم عن جدل نظرى لايليق بهم وليسوا أهله إلى وجهة عملية هم أحق الناس بها وأهلها .

ويقول تعالى :

« شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِى أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنَ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ » . (البقرة : ١٨٥)

ورمضان شهر قمرى .

ويقول تعالى :

« الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى الْحَجِّ » . (البقرة : ١٩٧)

وأشهر الحج قمرية .

ويقول تعالى :

« إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ » . (التوبة : ٣٦)

والإشارة فى الآية إلى الإثنى عشر شهراً ، وفيها الأربعة الحرم بأنها الدين القيم تأكيداً لصلة العبادات بالتقويم القمرى .

لكن ماسر هذا الارتباط ؟

يكشف هذا السر أمور :

منها : القمر من بين الظواهر الطبيعية ، أو قل من بين آيات الله فى أرضه له أثر بالغ فى حياة أمة العرب ، ويحظى بقدر كبير من اهتمامهم ، فبه يوقتون للرحلة ، وللنجعة ، وفى أسفارهم يسكنون فى القيظ حتى إذا هدأت حرارة الشمس، أقبل الليل، ونشر القمر فى الكون شعاعه الفضى ،تحركوا فى نشاط ، وانطلقت الإبل سريعة تضرب بأخفافها الأرض فى نغم رتيب ورجز منتظم .

وفى الليالى التى يغيب فيها القمر لارحلة ولا سفر ؟ ولذا قال ربنا عن الأهلة :

(هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ) (سورة البقرة)

والناس هنا وفى البيان القرآنى بعامة هم العرب الذين يعرفون لسان القرآن ويفقهون بيانه ، كما قال تعالى :

« فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا » . (الأنعام : ٩٦)

وتأتى آية أخرى تحدثنا عن ارتباط القمر بالتوقيت والتأريخ ، يقول الله تعالى :

« هُوَ الَّذِى جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ » . (يونس : ٥)

وكأن اختلاف منازل القمر من وسائل هذا التوقيت .

وفى مقام التذكير بالنعم يختص القرآن الكريم القمر بمزيد من الحديث ، فيقول تعالى :

« وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ • لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِى لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ » . (يس : ٣٩ ، ٤٠)

ويقول تعالى :

« وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا » . (نوح : ١٦)

ويقول تعالى :

« تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا » . (الفرقان : ٦١)

ومنها ارتباط الأشهر القمرية بالخصب والجدب ، والماء والجفاف ، وعشار الإبل ، ووضعها ، والحج والأشهر الحرم . وأحيانا تأتى بعض هذه الشهور فى حر ، وفى أحيان أخرى فى قر ، ولذا تجد من أسمائها ربيع ، وجمادى ، ورمضان من الرمض وهو شدة الحر ، وشوال عندما تشول الناقة بذنبها إيذاناً بعشارها ، يقول العربى القديم عن ناقته :

من لـــد شـــولا فإلى إتلائها

وهذا كلام جرى مجرى المثل ، ومعناه من يوم أن رفعت ذنبها للضراب إلى أن ولدت ، وتبعها ولدها ؛ لأن الإتلاء مصدر أتلت الناقة إذا تبعها ولدها .

والشهور التى ترتبط بالحج تستمد اسمها منه ، أو من الظروف المحيطة به مثل : ذو القعدة وذو الحجة الذى انتسب للحج ؛ لأن مناسكه منه .

والمحرم يحمل صفة التحريم التى هى من خصائص الأشهر الحرم ، وهو واحد منها .

فكان لها بهذا أثر عميق فى ضمير العربى ووجدانه ؟ لما ارتبط بها من أسباب حياته ، ولما اتصل بها من أسباب نعم الله عليه ، وكان من الحكمة البالغة أن ترتبط بها عباداته فى الإسلام . هذه العبادات التى ستحرر مشاعره تماماً من كل عبودية لغير الله .

وهناك أمر ثالث : التقويم القمرى يتيح فرصة العبادة فى أجواء مختلفة وظروف مفاجئة متباينة ، فصيام رمضان مثلا يأتى أحياناً فى الحر ، وفى أحيان أخرى فى البرد ، وفى أحيان فى جو معتدل ، ومثل ذلك فى الحج مما يدعم مهمة العبادة فى ابتلاء إيمان المؤمن ، وامتحان يقينه ، وسبر أغوار عزيمته .

كما يجد المؤمن فى أدائها من عام إلى عام نوعاً من الجدة ، والطرافة ، والحركة المؤثرة بدلا من الوتيرة الوحيدة التى تجعلها أشبه بالتقاليد ذات السمت والرتابة التى قد تبعث على الإملال فى حالة ما لو ارتبطت بالتقويم الشمسى .

إن فى ارتباط العبادات بالتقويم القمرى حيوية بالغة تبعث على التفكر المستمر والنظر الدائم فى ملكوت السموات والأرض .

الحرص على التقويم القمرى ضرورة إسلامية :

وبناء على ما قدمت من أوجه للربط بين القمر والعبادات الإسلامية ، وقيام عملية التأريخ والحساب عليه بنص آيات القرآن الكريم التى تذكر ذلك من بين وجوه النعم التى يذكر بها الإنسان ؛ ليعود إلى ربه ، ويلتزم منهجه بناء على هذا أدعو المسلمين فى كل مكان إلى الحرص على هذا التقويم القمرى ، والعمل على تنشيطه ، وإشاعته ، حتى يكون له أهمية التقويم الشمسى .

ووراء هذه الدعوة أسباب :

أولها : أن عمر بن الخطاب بعبقريته الفذة عندما أراد أن يضع التاريخ

الذى هو ضرورة لدولة الإسلام التى قويت فى عهده ، واشتد عودها ، وامتد سلطانها وأمامه الشهور العربية بأسمائها ، فاتجه إليها ، واختار حادث الهجرة بداية للتاريخ ، وكان ذلك منه رشاداً وسداداً ؛ لأن الهجرة امتحان كبير تجاوزته القلة المؤمنة بنجاح واقتدار ، وعظمة الأمم تقاس بمدى تجاوزها لما تمر به من محن أكثر مما تقاس بما تحصل عليه من كسب وفوز[1] .

ونتيجة لهذا ارتبط التقويم بتاريخ الإسلام ، وأحداثه الكبار ، ومكاسبه العظيمة ، ومحنه وابتلاءاته ، فكان من الضرورة الإسلامية أن نرتبط بهذا التاريخ ؛ لنرتبط بالتالى بمسيرة الإسلام على امتداد أربعة عشر قرناً .

ثانيها : فى تنشيط التقويم القمرى تعزيز لعامل الفكر فى خلق السموات والأرض ؛ إذ أن مما يتميز به هذا التقويم أنه يشد المسلمين دائماً إلى الفكر فى آيات الله التى حفل بها هذا الكون العظيم ، وذلك من حيث إنه يتحتم فى مطلع كل شهر من شهوره أن نرصد القمر ، وأن نتبين مطلعه سواء أكان ذلك بالنظر المجرد ، كما كان يفعل العرب قديماً ، وما كانوا يخطئون ذلك أم كان باستخدام ما استحدثه العلم من آلات . إذن هى عملية دائمة متجددة ، يتحرك فيها المسلمون مع الكون المتحرك .

وهذا الأمر الحيوى نفتقده تماماً فى التقويم الشمسى الذى يسير على أسلوب رتيب ، يستطيع معه الإنسان أن يحسب أوائل الشهور لسنوات وسنوات .

---

(1) راجع فى هذا المعنى العقاد فى « عبقرية عمر » .

ثالثها : فى تنشيط هذا التقويم إضفاء للروح الإسلامية على مجتمع المسلمين حتى يعيشوا فى أريجها الزكى ، ويكتنفهم طهر العبادات التى ترتبط بهذا التقويم ، وما يتبعها من سمو وقداسة .

رابعها : تمسك العالم الإسلامى بهذا التقويم يؤكد حقيقة كبيرة ، هى أن المسلمين برغم اختلاف مطالع القمر على البلاد الإسلامية فى الشرق والغرب ، ومايعنيه من اختلاف الجو الجغرافى ، والعادات البيئية تجمعهم برغم هذا الاختلاف — رابطة العقيدة ، وصلة العبودية الخالصة لله وحده ، والالتقاء حول هذه الشهور التى هى الوعاء الزمنى لما فى الإسلام من عبادات وطاعات .

يضاف إلى هذا أن الحرص على التقويم الهجرى فى بلاد المسلمين وهو تقويم العرب قبل الإسلام يعنى معنى عظيما ، وهو ارتباط المسلمين فى كل مكان بأمة الدعوة التى وعت الرسالة بلسانها ، وغرستها فى مشاعرها ، وحملتها على أعناقها رسالة يجب أن تبلغ وأن تذاع .

وبناء على ما تقدم أقرر ما بدأت به وأؤكده وهو أن تمسكنا بالتقويم الهجرى أمر عظيم الخطر ، عميق الأثر ، يحقق لأمتنا مزيداً من امتزاج المشاعر وتلاقى النفوس كما يعطى دفعة قوية للمؤمنين الصادقين أعنى أمة المسلمين نحو وحدة مأمولة ، جعلها القرآن خصيصة من خصائصها ، وسمة من سماتها ؛ إذ يقول ربنا تبارك وتعالى :

« وَإِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ » .

(المؤمنون : ٥٢)

ما حكمة حرمتها ؟ :

مما تميزت به الشهور القمرية أنه ارتبط بها منذ أمد بعيد حرمة أربعة شهور منها وأن مدى هذا التحريم يمتد إلى بدء الخلق ، كما تنص الآية ، وأن هذا التحريم لهذه الشهور دين ، ودين قويم أيضاً . هذه المعانى نجدها بيسر فى الآية :

« إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَابِ اللهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ » . (التوبة : ٣٦)

فما هذه الأشهر الحرم ؟

هى هذه الشهور على التوالى : ذو القعدة ، وذو الحجة ، والمحرم ، يضاف إليها رابعها ، وهو شهر رجب منفرداً بهذا التحريم بين الشهور التى تسبقه والتى تليه .

ولعل فى اسمه مايوحى لغوياً بتعظيمهم له ؛ لأنه من رجب فلاناً وأرجبه رجوباً عظمه ، ومنه الترجيب ذبح النسائك فى رجب .

ومنه قول عبد الله بن مسلم الهذلى :

ياليت عدةَ حول كلّه رَجَبًا لكنّه شاقَهُ أن قيل ذا رَجَبُ

الحكمة فى اختيارها على هذا النحو :

والحكمة فى اختيار هذه الشهور الأربعة على هذا النحو وراء مسوغات عدة .

منها : أن هذه الشهور الثلاثة المتوالية هى التى تحتوى مناسك الحج ، ومن أولها تبدأ القبائل على اختلاف منازلها فى التحرك إلى البيت الحرام حتى تتجمع قبيل الحج فى أسواق ثلاث تتبادل فيها المصالح ، وتتم فيها المقايضات التجارية ، ويتناشد الشعراء أشعارهم ، وتبدأ السوق الأولى عكاظ من أول ذى القعدة إلى العشرين منه ثم ينفض ؛ لتقوم بالقرب منه « مجنة » وتنفض فى أواخر ذى القعدة ، لتبدأ ذو المجاز من أول ذى الحجة إلى العاشر منه ، ثم يدخلون فى المناسك .

ومنها : أن رجب الفرد الذى جاء فرداً بين شهور غير حرم لماورثه العرب من تنظيمه على النحو الذى أسلفناه .

ماذا يعنى تحريمها ؟

وتحريم هذه الشهور يعنى أن يأخذ الإنسان نفسه بقدر من الضبط والتحكم فى مشاعره نحو الاستقامة والقصد ، والحفاظ على الحريات بأن يكف عن القتل والقتال ، ويتوقف عن الحرب والغارة اللذين قد تفرضهما عليه ظروف حياته ، وأصبح هذا التحريم لهذه الأشهر عنده فى مرتبة القداسة ، وكان يتحاشى بقدر ما أوتى من عزم الوقوع فى مخالفة لمقتضيات هذا التحريم ولاأدل على ذلك من أنه يلقى قاتل أبيه ، فيعرض عنه احتراما لهذه الأشهر التى يعدون القتال فيها فجوراً .

ومبلغ ما يقعون فيه مخالفة هو « النسيء » .. بأن يحلوا شهراً منها إذا غلبتهم شهوة الحرب ، ويحرموا مكانه آخر ، إذ يقول ربنا تبارك وتعالى :

« إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِيُوَاطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللهُ فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللهُ زُيِّنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ » . (التوبة : ٣٧)

وقد توارثت العرب هذا التحريم من أيام أبيهم إبراهيم كما ورثوا الحج والعمرة والطواف ، ولذا كانت الجريمة فى تقديرهم كبيرة إذا انتهك أحد حرمتها دون اتفاق على نسيء .

ولقد أعلنت قريش حرباً ضارية من الدعاية على النبى محمد صلى الله عليه وسلم وصحبه فى العام الأول من هجرتهم ؛ إذ خرج جماعة منهم للتصدى لعير قريش ، وكان ذلك فى أواخر رجب ، فرأوا أنهم إن انتظروا حتى ينتهى الشهر الحرام أفلتت العير وإن قاتلوهم انتهكوا حرمة الشهر ،وتشاوروا فى فيما بينهم وانتهوا إلى الرأى الأول وقتل رجل من قريش وأسر آخر ! وملأت قريش الجزيرة صخباً ، وعبأت نفوس العرب ضد المسلمين حتى إن النبى عليه الصلاة والسلام تألم لذلك ولام أفـــراد السرية وقائدها ، وأحس المسلمون ببلاء مما أشيع ضدهم ونزل قوله تعالى رداً على تهكم العرب :

« يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ

أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ اللهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ ».
(البقرة : ٢١٧)

بقى علينا أن نتساءل : ما الحكمة وراء هذا التحريم ؟

وراء هذا التحريم بلا ريب حكم عدة :

أولها : حكمة دينية ندركها من الآية ؛ إذ يقول ربنا تبارك وتعالى ، مشيراً إلى التحريم : « ذلك الدين القيم » يعنى أن تحريم الأشهر الأربعة هو الدين المستقيم دين إبراهيم وإسماعيل وهذه الحكمة الدينية تبدو فى ارتباط بعضها بعبادة الحج ؛ إذ يقول ربنا تبارك وتعالى :

« الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى الْحَجِّ » . (البقرة : ١٩٧)

والتعبير بلفظ معلومات ، يوحى بأنها معلومة للعرب الذين عرفوا حرمتها من عهد إبراهيم ولابد أن يتيسر فى أنحاء الجزيرة جو الأمن ؛ لتتحرك القبائل إلى المناسك فى غير خوف ولافزع فيؤدوا الفريضة فى ظلال من أمن الزمان ، وأمن المكان .

ثانيها : أسلوب الحياة فى الصحراء له طابعه الذى قد يحرك فى الإنسان بواعث البطش بالآخرين ، والتسلط على من هو دونه فى القوة لاستخلاص مرعى من المراعى ، أو استلاب عين من عيون الماء ، فلكى يتسامى هؤلاء وغيرهم من سكان الصحراء ، وفيهم بيت الله الحرام ، والحنيفية السمحة ملة إبراهيم وإسماعيل ، لابد أن يؤخذوا بمنهج تربوى إلهى قويم ، يخفف من حدة النوازع الطبيعية فى سكان الصحراء ، فكان تحريم هذه الأشهر

ترويضاً لهم ، وكبحاً لجماحهم ، وإتاحة الفرصة الآمنة ، لتتعطل هذه النوازع بعض الوقت ، فتخف وتلين .

ونتيجة لهذا كان العرب — برغم ما وقعوا فيه من أخطاء — أمثل بكثير من غيرهم من سكان الصحراء .

ثالثها : تتهيأ فيها الفرصة للقبيلة الضعيفة التى لاتستطيع السفر ، ولاتأمن الحركة أن تتحرك ، وأن تلتمس الموطن الخصب الذى يتوافر لها فيه الماء والمرعى إذ إذهب ماؤها ومرعاها بأن جف النبع ، وصوح النبت .

رابعها : تعلم العرب من الأشهر الحرم ، ومن موروثات عهد إبراهيم بعض القيم التى لمعت فى ظلام الجاهلية ؛ إيذاناً بأن هؤلاء الناس على صلة بمصدر كبير من الإشعاع الهادى ذهلوا عنه ، وصرفتهم الغفلة عن الاستمساك به .

من هذه القيم : حرب الفجار (بكسر الفاء وفتح الجيم) . وهى حرب وجهتها قريش لكل من يبغى ويظلم ، ويجور عن القصد وينتهك الحرمات . وقد شهدها النبى عليه الصلاة والسلام فى مطلع شبابه ويقول كنت فى هذه الحرب (أنبل لأعمامى) أى يناولهم النبال .

ومنها « حلف الفضول » وهو حلف تعاهد عليه أشراف قريش فى بيت أحد حلمائهم وهو عبد الله بن جدعان ، وبمقتضاه يقفون وقفة واحدة فى وجه من يبغى أو يظلم . وقد شهد النبى عليه الصلاة والسلام هذا الحلف فى شبابه ، معجباً به ، حتى إنه رآه صحوة إسلامية قبل أن يكلف بدعوة الناس إلى الإسلام .



القسم الثالث

القرآن الكريم والمجتمع

يجيب عنه

الكاتب الإسلامي

أحمد موسى سالم



ج ٧ — م ٩

يصدرها

المركز الثقافي

السؤال الأول :

ما هو الفرق فى الدلالة الاجتماعية والأخلاقية بين كلمتى « الدين الحق » وكلمة « الفلسفة » ؟

وهل صحيح أن كلمة « فلسفة » معناها كما فى الترجمة العربية السائدة « حب الحكمة » ؟

فاذا كان هذا صحيحا فكيف نجد فى هذا العصر أن الدعوة الشيوعية الى الالحاد تقوم على ما يسمى بالفلسفة المادية ، وأن النظم الاستعمارية الأوروبية تقوم على فلسفة أخرى هى « الفلسفة العنصرية » التى تعطى « الرجل الأبيض » الأوروبى حق احتلال أرض الملونين ، وأن نفس هذه الفلسفة العنصرية الخرافية هى حجة اسرائيل فى احتلال ما تحتله من أرض العرب ؟

الإجابة :

من أجل الإجابة عن الفقرة الأولى من هذا السؤال ينبغى أن نسبق إلى الإجابة عن الفقرة الثانية منه إجابة عامة موجزة — نفصلها فيما بعد إن شاء الله — فنقول إن الترجمة العربية السائدة لكلمة « الفلسفة » بمعنى « حب الحكمة » ليست صحيحة ، بل هى نقيض الصحيح ، لأن الفلسفة بكل ظنونها ، وافتراضاتها ، وتنوع جدلها لتزييف الحق ، وتحريف العلم ، وتقلبها الأسطورى مع وثنية عبادة « أرواح الأشياء » فى الطبيعة ،

والى شاعت مع فجر الفلسفة الأوروبية على عهد اليونان الأوائل الذين عبدوا « زيوس » بمعنى « روح النهار » — كل ذلك يجعل الفلسفة بمعناها الحقيقى « نقيضاً للحكمة » وليست طريقاً إليها ، أى أنه يجعلها نقيضاً للدين الحق ، لأن « الحكمة » من الدين الحق ، كما جاء ذلك فى قوله تعالى :

« وَأَنزَلَ اللهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ » (النساء : ١١٣)

وفى قوله تعـالى :

« ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ ...» (الإسراء : ٣٩)

الدين والفلسفة :

من هنا يمكن فى الإجابة عن الفقرة الأولى من هذا السؤال ، وإلى أن نتناول نقائض الفلسفة بالتفصيل ، أن نتبين أن الفرق بين الدين الحق والفلسفة هو كالفرق بين الحق والباطل ، وبين النور والظلام ، وبين الهدى والضلال . . .

وعندما نعمد إلى تحديد هذا الفرق بدلالته الاجتماعية بين مجتمع يقوم على الدين الحق ، وآخر يقوم على الفلسفة ، فسنجد هذا الفرق واضحاً وجلياً فى قيام مجتمع الدين الحق على « السواسية » بين الناس ، الذين يتنافسون بالإيمان على العمل الصالح ، فى « درجات » تدعم السواسية ولاتنقضها ، وتنمى المودة ولاتنقصها . هذا بينما يقوم مجتمع الفلسفة على

الطبقية والقسر ، وعلى التظالم والقهر . فالسواسية بين الناس فى مثل هذه المجتمعات التى يحكمها مذهب فلسفى وضعى ، إنما هى « وباء » يتسابق الملوك والكهان إلى القضاء عليه ، لتبقى السرية للمعرفة أو الفلسفة ، وتبقى الطبقة ، ويبقى القسر . . وتبقى الامتيازات للذين هم دائماً فوق الجميع !

وكذلك نجـــد من فروق الدلالة الاجتماعية بين مجتمع الدين الحق والمجتمع الفلسفى ، أن مجتمع الدين الحق يقوم بفضل هذه « السواسية » التى سنها الله للمؤمنين فيما بينهم ، على « العدل » الذى تحفظه شريعة الله ، وعلى « الشورى » فى الحكم كما نزل بها أمر الله ، وعلى طلب « العلم » بأوسع معانيه ، وعلى تكريم العلماء ، وعلى بناء « العمران » المؤمن ، وعلى تحقيق « الرخاء » الذى هو فوق « الكفاف » ودون الرفاهية ، وعلى « تقاسم » المؤمنين ما بأيديهم من مال الله بحق الله . . .

وأما عن الفرق بين مجتمع الدين الحـــق والمجتمع الفلسفى بدلالته الأخلاقية فهو فى واقعه متسع كاتساع الفرق الاجتماعى بينهما ، وأول شواهد هذا الفرق يتجلى فى أن مجتمع الدين الحق يقوم فى بناء أواصره ، وعلاقاته وعاداته الاجتماعية على أساس من ثبات « مكارم الأخلاق » التى يدعو إليها ، ويضيء من حقائقها ، ويجدد فى عمل قادته ودعاته ، وسلوكهم من الأسوة عليها . .

هذه الأخلاق بمكارمها ، وغاياتها ، وأسوتها ، لاتتغير فى حياة مجتمع الدين الحق من عصر إلى عصر ، ومن جيل إلى جيل ، وهى دائماً تستند ، وتقوم ، وتشرق ، بمعانى وحقائق الطهارة من كل رجس ،

والتنزه عن كل دنية ، والبعد عن كل عيب ، والحفاظ على العقل والإيمان من أية شبهة ، لكي تبقى بذلك منارات هذه الأخلاق الكريمة — من الصدق والأمانة ، ومن العفاف والوفاء ، ومن الصفح والإحسان — مشعة إلى أبعد الآفاق فى حياة المؤمنين وأجيالهم ، وحية بأسوتها فى تاريخهم وتراثهم ، وبعيدة عن أن تبلى معالمها بمرور الأزمان ، أو أن تتغير حقائقها بانتشار البدع . . .

وأما فى المجتمع الفلسفى الذى لايعرف تحت الطبقة ، والكهانة ، والقسر ، والتميز ، أية مكارم أخلاقية فإنه ، يعطى فى هذا المجال السلوكى دلالة حياة « التظالم » فيه على « الدنيا » التى لا آخرة لها ، وعلى « متاعها » الذى لاشبع منه ، وذلك باستعماله كلمة « القيم » بدلا من « الأخلاق » . . أى بوضعه الأخلاق فى صور « العملة » التى تتغير « قيمتها » بتغير الظروف المحيطة بها ، ومعاملتها معاملة « البضاعة » التى يحكمها « السوق » ارتفاعاً وهبوطاً ، أو تغيراً وتبديلا . .

إن المجتمع الفلسفى ، الوثنى حتى وإن تظاهر بالتدين ، يهدم بطبيعته الطبقية القسرية أية أخلاق كريمة ، ولكنه فى عالم شعاراته ، ودعاياته وفنونه ، يلجأ إلى هذه « القيم » فينتقل بها من قيمة إلى أخرى ، بما يتفق مع انتقاله من أوهام فلسفة إلى أوهام فلسفة أخرى ، وذلك كما حدث فعلا من تقبل أكثر الأوروبيين فى عصر الفروسية ، وبتأثير الحضارة العربية الإسلامية عندما وصلت إلى أسبانيا وفرنسا وجنوب إيطاليا ، لهذه « القيمة » الجديدة عندهم باحترام المرأة ، ورعاية حقوقها ، والدفاع عنها ،

هذه القيمة التى لم تلبث أن تبدلت لتصبح المرأة كما كانت على عهد اليونان ، وكما صارت بعد تأثر الحضارة العربية الإسلامية كائناً لاحق له فى الحياة ، ومتاعاً رخيصاً فى متناول اليد . .

وكذلك كما رأى العالم بعد الثورة الشيوعية من تبدل قيمة « القياصرة » ونبلائهم لتتحول إلى قيمة « العمال » وطبقتهم . . هذا فى مجال الدعاية والادعاء وحرب الشعارات ، بينما يبقى الواقع المخجل شاهداً على أن « قيصر » لايزال يحكم هؤلاء العمال التاعسين ، ويمتص عرقهم ، وينتزع حرياتهم ، مختفياً بصورته وسلطانه داخل « الكرملين » . . أى داخل قلعة السلطة . . أى داخل قلعة الحزب الشيوعى بقياصرته ودوقاته وراء الأقنعة !

الدين الحـــق :

وقبل أن نتكلم عن الفلسفة ومتاهاتها بالتفصيل نتكلم بالإيجاز المفيد عن الدين الحق للتعريف به وبدلالاته . .

الدين فى اللغة « الإسلام » ، والعبادة والطاعة ، والسلطان والحكم ، والملة والورع ، واسم لجميع ما يتعبد الله به . ودان يدين : عز وذل ، وأطاع وعصى ، واعتاد خيراً أو شراً .

وفى القرآن الكريم تجىء كلمة « الدين » فى جملة معان متكاملة داخل مفهومها العام الذى استمد دلالته الاصطلاحية من المعنى اللغوى للفعل : دان – يدين ، أى خضع يخضع ، وأطاع يطيع . . وذلك على الوجه الآتى :

أولا : جاءت كلمة الدين بمعنى الخضوع الخالص لله ، والعبودية التامة التى تعنى الالتزام بطاعته ، والاعتزاز بهذه الطاعة الخالصة فوق أية طاعة لأية آلهة كاذبة من حجر أو بشر أو هوى . . وفى هذا المعنى الشامل يقول تعالى :

« أَلاَ لِلهِ الدِّينُ الْخَالِصُ » . (الزمر : ٣)

أى الخضوع والطاعة لله بغير ريبة أو قصور

ويقول أيضاً :

« قُلِ اللهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُ دِينِى » . (الزمر : ١٤)

أى منيا له خضوعى وطاعتى وعبادتى .

ثانياً : ولما كان الخضوع لله ، وإخلاص الطاعة له ، لايستقيمان فى وعى الإنسان وعمله إلا من خلال شريعة ومنهج ينظمان طاعة المؤمن وعبادته ، ويمضيان به إلى تدبر حكمة الخلق ، وغاية الدين ، فقد جاء الدين فى القرآن الكريم بمعنى « الشريعة والمنهج » ، أى بمعنى المورد الثابت للأحكام والحدود ، وللعبادات والأخلاق ، كما يجىء بها وحى الله ، ثم بمعنى الوسائل والأدوات العقلية والتعبيرية التى تفتح وتمهد الطريق دائماً أمام المؤمن للاستمداد من هذا المنبع الثابت العذب ، منبع الشريعة والأحكام والحدود . . .

وفى هذ المعنى الواضح يقول تعالى :

« شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِى أَوْحَيْنَا

إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ » . (الشورى : ١٣)

أى أن الدين الحــق منذ آدم إلى خاتم النبيين محمــد عليه الصلاة والسلام دين واحد ، وشرع واحد ، أى استمداد من مورد واحد حق هو وحى الله . .

ويقول تعالى عن المنهاج اللازم للمؤمنين حتى يشقوا طريقهم إلى تدبر الشريعة على وجهها الحق كما أوحى بها الله :

« لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا » . (المائدة : ٤٨)

أى جعلنا لكل أمة من الأمم التى أرسلنا إليها رسلنا أحكاماً توافق عصرها وواقعها ، وطريقاً تشقه بقدراتها لتلتزم بهذه الأحكام ، وكان الكمال فى الشرعة والمنهاج فى الرسالة الخاتمة ، حيث نزل القرآن الكريم المحفوظ بأمر الله على رسول الله ، وحيث كان الرسول عليه الصلاة والسلام وقومه قد أوتوا — رغم عناد القلة — كمال هذا المنهاج الذى توجهت به قدراتهم إلى الاستجابة لدعوة القرآن الكريم ، والدخول فى دين الله أفواجاً . . .

ثالثاً : ولما كانت أعمال المؤمن التى يقوم بها فى حياته فى ضوء شريعة الله ومناهجه إليها إنما تتجه إلى ترجيح ميزان المؤمن بهذه الأعمال الصالحة « يوم الحساب » ، وحيث يرجو أن يكون الجزاء على عمله فى الدنيا عند

حسابه في الآخرة هو الجنة ، فقد جاءت كلمة الدين في القرآن الكريم بمعنى يوم الحساب ، وذلك حيث يقول تعالى :

« مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ » . (الفاتحة : ٤)

أي مالك يوم الحساب

وحيث يقول تعالى :

« إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ • وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ »

(الذاريات : ٥ ، ٦)

أي إن يوم الحساب حق .

رابعاً : كذلك تأتي كلمة الدين جامعة لكل هذه المعاني التي أشرنا إليها وهي : العبودية الخالصة لله ، والشريعة والمنهاج للقيام بطاعته بوحي وهدى منه ، ثم يوم الحساب . وذلك في مثل قوله تعالى :

« إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلَامُ » . (آل عمران : ١٩)

فالإسلام هو الخضوع الخالص لله ، في حال العمل الصالح بشريعته ، واليقين بعد البعث بحسابه وجزائه .

خامساً : وحيث إنه في واقع الحياة الإنسانية ، والوجود البشري ، فإن لكل إنسان أو جماعة أو أمة ، مع اختلاف المواقع والعصور « ديناً » مهما كانت صحته فهو تفسيرهم المتاح للحياة والخلق والمصير ، سواء أكان باتباع الرسل ، أو باتباع الكهنة والسحرة ، أو باتباع الفلاسفة على تنوع نظرياتهم ومذاهبهم ، أو باتباع الهوى الشخصي الذي يتعبد له فريق كبير

من الناس ، فيسيرون وراءه ، ويسجدون له بما عليه — فقد جاءت كلمة « الدين » فى القرآن الكريم تحمل فى جملة معانيها هذا المعنى الدال على « عقيدة ما تفسر الحياة والإنسان والوجود » وذلك فى مثل قوله تعالى على لسان رسوله الكريم :

« لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ » . (الكافرون : ٦)

أى لكم دينكم الباطل ولى الدين الحق .

وفى مثل قوله تعالى على لسان فرعون يحذر قومه من دعوة موسى :

« إِنِّى أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِى الْأَرْضِ الْفَسَادَ » . (غافر : ٢٦)

أى إن فرعون يخشى أن يبدل موسى من عبادة قومه له ولآلهته إلى دين آخر هو عبادة الله الحق .

• • •

ننتقل بعد ذلك فى التعريف العام بحقائق ومعانى « الدين الحق » إلى كلمة « الحق » فنقول إن الحق فى اللغة من أسماء الله تعالى ، أو من صفاته . والحق القرآن ، والحق ضد الباطل ، لأنه من عند الله ، وهو الذى له بالله هذا السلطان الذى يمضى به فى سننه تعالى ، وينتصر ، بينما ينهار الباطل فى كل مواجهة بينهما ، ويبطل ، كأن لم يكن .

والحق لغة أيضاً : الأمر المقضى ، والإسلام ، والصدق ، والعدل . والحاقة : النازلة ، بمعنى أن هذه النازلة تقع على من حق ذلك عليهم

بسبب مخالفتهم لحق ، وبذلك تكون هذه الحاقة لمن تصيبهم بياناً عما قضى الله به دائماً من إزهاق الباطل .

والحق من معانيه اليقين . ذلك بأن تحقق تعنى تيقن . وأحققت الأمر أوجبته . وهو حقيق بهذا الأمر أى جدير به . والحقيقة ضد المجاز ، والمحق ضد المبطل . .

وأما الحق فى القرآن الكريم فتأتى للدلالة على الله فى مثل قوله تعالى :

« فَذَلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ » (يونس : ٣٢)

وتأتى كلمة الحق بمعنى القرآن الكريم فى مثل قوله تعالى :

« لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِن رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ » .

(يونس : ٩٤)

وتأتى كلمة الحق بمعنى الإسلام والدعوة به إلى الله فى مثل قوله تعالى :

« إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا » (البقرة :. ١١٩)

وتأتى كلمة الحق بمعنى الصدق فى مثل قوله تعالى :

«فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ».

(البقرة : ٢٦)

وفى مثل قوله تعالى :

« نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ » .

(آل عمران : ٣)

وتأتى كلمة الحق بمعنى الأمر المقضى من الله والمنتصر به فى مثل قوله تعالى :

« فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ». (الأعراف : ١١٨)

وتأتى كلمة الحق بمعنى اليقين الذى يواجه بقوة سنن الله ، وعدالة شرائعه ، متاهات العقائد الوضعية الفلسفية ومظالمها فيكون للمعتصمين به النصر الموعود وذلك فى مثل قوله تعالى :

« إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ». (يونس : ٣٦)

ويضيف القرآن الكريم كلمة الحق إلى الدين الحق وهو الإسلام مشتملا على كل صفات الحق التى أشرنا إليها وذلك فى مثل قوله تعالى :

« هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللهِ شَهِيدًا » . (الفتح : ٢٨)

هذا الدين الحق ، كما اجتهدنا أن نقوم بتعريفه آنفاً ، وهو فى عموم معناه « الإسلام » ، قد قضى الله بالحق أن يظهره على الدين كله ، وذلك حين خصه تعالى فى الرسالة الخاتمة بكمال الشريعة فى القرآن الكريم ، وكمال المنهاج إليها ، كما توجهت به فى فضل الله قدرات النبى وقومه ، وهم يشقون طريقهم الرحب إلى هذه الشريعة للاستجابة إلى أركانها وأحكامها ، وللتسابق على الاستمداد من مواردها ، ومن معينها الذى لاينقطع مدده ، ولا تنفد آياته . .

الشريعة والمنهاج :

ومع الدين الحق نمضى بهذا الإيجاز الجامع للمفيد فنقول إن الشريعة فى اللغة هى ما شرع الله لعباده ، أى ماسن لهم من عبادات وأحكام ، وما أوصاهم به من حكمة وأخلاق . والشريعة فى الأصل اللغوى هى عين الماء التى تفيض بغير انقطاع ، فى مكان الحاجة البالغة إليها ، فهى مورد الحياة للشاربة ، لاينقطع ورودهم لها ، ليتزودوا بعطائها العذب ، وليأتلفوا من حولها ، ويعيشوا ، هم وأبناؤهم وأنعامهم . .

وأما المنهاج أو المنهج فهما فى اللغة بمعنى النهج ، أى الطريق الواضح ، وأنهج تعنى : وضح ، وأوضح ، ونهج الطريق : سلكه . .

ونعود فنسترجع قول الله تعالى :

« لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا » . (المائدة : ٤٨)

أما الشرعة فقد جمعها وفصلها وحى الله فى القرآن الكريم ، هذا الكتاب الذى حفظه الله بأمره مصدقاً لما بين يديه ، ومهيمناً عليه ، لتبقى رسالته الخاتمة ، ودعوته بها إلى الإسلام والدين الحق ، باقية بقاء الناس، ومشعة ملء الآفاق . ولهذا فقد جاء هذا الكتاب الكريم كاملا ومهيمناً ومبيناً كما وصفه الله تعالى بصفات بقائه بشرعته فى مثل قوله :

« قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ » .

(المائدة : ١٥)

وفى مثل قوله تعالى :

« مَا فَرَّطْنَا فِى الْكِتَابِ مِن شَىْءٍ ..» (الأنعام : ٣٨)

وفى مثل قوله تعـالى :

« وَلَقَدْ جِئْنَاهُم بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَى عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً ..» (الأعراف : ٥٢)

وقوله تعالى :

« وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً » (النحل : ٨٩)

وقوله تعالى عن القرآن الكريم أيضاً :

« وَإِنَّهُ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ » . « النمل : ٧٧)

وقوله تعالى إلى نبيه الذى حمل قرآنه وشرعة الله به باقين للعالمين :

« وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ...) (الأنبياء : ١٠٧)

هذا الكتاب المبين أرسله الله « هدى ورحمة » للنبى وقومه من أبناء إسماعيل وإبراهيم ، وللعرب جميعاً ، وقد قضى بفضله أن يكون الكمال لشريعته التى نزل بها « تبياناً لكل شىء » هدى ورحمة لهذه الأمة التى كانت « خير أمة أخرجت للناس » (آل عمران ١١٠) .

وهو لم ينزله عليها « تعجيزاً » لها ، « وتحدياً » لفصاحتها كما يزعم الزاعمون ، لأن الله القوى القادر ، والعزيز الرحيم ، لا يعاجز عباده وهو أعلم بهم ، بل إن هذه المعاجزة يحمق بها الكفار الذين يعاجزون الله بأوهامهم ، كما لا يزال يعاجزه الملحدون بفلسفاتهم . . وإنما أنزل هذا الكتاب على من سبق لهم دعاء أبويهم إبراهيم وإسماعيل به ، وعلى من أعدهم الله بالقدرات التى تهيؤهم لحسن استقباله ، وبالمنهج الذى يشقون به الطريق الرحب إلى تدبره ، حتى تكون هذه الأمة الوسط ، كما شاء بواسع رحمته ، وتمام فضله ، وبالغ حكمته ، أن تكون ، وحتى تظهر بكل فضائلها فى ختام الرسالات ، هذه الأمة التى اجتباها لتؤمن به بأجمعها على غير مثال سبق ، ولتسلم إليه ، وتبقى إلى زمن بعد عهد الرسول الكريم ، آية مضيئة ، وأسوة هادية ، كما جاء فى قوله تعالى :

« هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِى هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ » .
(الحج : ٧٨)

والسؤال الآن عن هذا المنهج ، أو المنهاج ، الذى أعد الله قوم النبى به ، وهو يجتبيهم لرسالته وشريعته ، ويصطفى النبى لها من بينهم . . كيف هو ؟ . . وما هى عناصره ؟ . . ذلك أنه ما كان لهـذه الأمة المباركة أن تتدبر القرآن المبين بغير هذا المنهج الذى تشق به الطريق إلى كتاب الله فتتدبره ،

وتؤمن به ، وتأتلف عليه . . كيف إذن كان هذا المنهج الذى غاب عنا فى هذه الأيام تصوره ، كما غاب عن أكثر المفسرين صحة تفسيره . . ؟

فى الجواب بغير إطالة ، واستناداً إلى محكم القرآن الكريم ، إن المقومات الأساسية ، والقدرات التى أنعم الله بها على قوم النبى ليؤمنوا بكتابه المنير ، ويستجيبوا لرسالته الخاتمة ، ويشقوا الطريق مجاهدين ، ومستبشرين إلى « شريعته » فى هذا الكتاب فيعملوا بها ، ويلتزموا بعباداتها وأحكامها ، ويأتلفوا ويتوحدوا من حولها هى :

أولا : الإيمان بالله الواحد الحق ، رب إبراهيم وإسماعيل ، رب البيت العتيق ، وإن أشركوا معه سفهاً واسترخاء بعض الأسماء الوافدة من الشام على يد عمرو بن لحى الأزدى ، ليتقربوا بها إلى الله زلفى . فهم لم يكونوا قط وثنيين يعبدون زيوس أو برهمن أو أهورامزدا ، ولكن كانوا يعبدون الله ، ويحبون الله ، ويقسمون أصدق القسم بالله ، ويحجون كل عام إلى بيت الله ، إلى أن أنجاهم الله برسالته الخاتمة التى خصهم بها ، واجتباهم لها ، من عارض الشرك فى تلك المرحلة الزمنية القصيرة قبيل بعثة الرسول . . . وفى البرهان على هذا من كتاب الله يقول تعالى :

« وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْض لَيَقُولُنَّ اللهُ » .
(لقمان : ٢٥)

ويقول تعالى زيادة فى هذا المعنى وأنهم كانوا يعبدون الله الحق الذين يعرفونه ويؤمنون به بأسمائه الحسنى :

« وَلَئِنْ سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ » .
(الزخرف : ٩)

ثانياً : نعمة الله عليهم باللسان العربى المبين ، اللسان الذى نزل به القرآن المنير ، الفارق بين الحق والباطل ، والباقى محفوظاً فى منارته وصدق تلاوته إلى يوم الدين . فلولا هذا اللسان الذى جعله الله فى لغتهم وأصواتهم بياناً إلى البيان ، وطريقاً إلى القرآن ، يحكمون بآية الله فى ألسنتهم على آية الله الكبرى فى كتابه إليهم ، وفى هذه النعمة الكبرى لهم ، والتى طال حرمان المسلمين فى العالم منها — عرباً وعجماً — حتى أصبح القرآن بينهم مهجوراً ، يقول تعالى من محكم آياته :

« وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ » .
(فصلت : ٤٤)

ويقول تعالى لرسوله الكريم :

« نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ * عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ * بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ »
(الشعراء : ١٩٣ـ١٩٥)

ثالثاً : نعمة العلم بالتاريخ الدينى الحق ، وسنن الله فى المؤمنين ، والمكذبين ، ولقد كان قوم النبى وهم أهل رحلة وتسيار فوق أرضهم فى قلب العالم ، ومجمع طرقه ، فى الأرض المحيطة بهم ، يعرفون الكثير



من وقائع هذا التاريخ ، وهم يمرون بأرض أحداثه ، وآثار من أنزل الله بهم غضبه من المكذبين برسله ، كما دأبوا على رواية وقائع هذا التاريخ فى مأثور حكمتهم وأشعارهم . وفى هذه النعمة التى يذكرهم الله بها ليعتبروا يقول تعالى :

« أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِى الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللهُ عَلَيْهِمْ » . (محمد : ١٠)

ويقول تعالى وهو يأمرهم بالسير لينظروا ويتذكروا إن كانوا قد غفلوا :

« قُلْ سِيرُوا فِى الْأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ » . (الأنعام : ١١)

رابعاً : إذا استوت لهؤلاء المدعوين لخاتمة الرسالات ، ولأكمل الشرائع ، هذه النعم الثلاث : الإيمان بالله الحق – دون حيرة أو شبهة فيه ، أو نزول عن مستوى العلم به ، ولو مع عارض طارىء من الشرك به بأسماء غير ذات شأن للزلفى بها إليه – ثم اللسان العربى المبين ، ثم التاريخ الدينى بعظاته وحقائقه ومعالمه وسنن الله فيه – كان من المحقق أن يتيسر لهؤلاء المدعوين ، الذين اجتباهم الله لدينه بهذه النعم الوافرة ، أن يدركوا فى صحوة التذكر بآيات الله البينات هذا « العقل » الذى توارى وراء غفلاتهم ، فتسقط عن أعينهم غشاوة الشرك ، وتشرق أمام أعينهم آية الله الكبرى بالقرآن ، فيسمعوا ويتدبروا ، ويخشعوا ويسجدوا ، ويؤمنوا ويصدقوا . .

ولقد ربط الله تعالى لسان القرآن العربى المبين بصحوة هذا العقل العربى إليه فقال سبحانه :

« إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ »

(يوسف : ٢)

ومعنى هذا أنه لايكون إيمان بغير عقل ، ولما كان العقل لايصحو بغير تدبر القرآن فيكون معنى هذا أيضاً أن هذا اللسان العربى المبين الذى أنعم الله به على قوم النبى كان مصدر صحوتهم إلى الإيمان بالعقل ، وإلى الله الحق بغير شريك أو شبيه ، وإلى مابين أيديهم من حقائق علم التاريخ الدينى وعظاته ، وسنن الله فى كل عصوره ، كما جاء فى قوله تعالى لهم وهو يذكرهم بما يعلمون من هذه السنن :

« أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ »

(إبراهيم : ٩)

وبهذا القدر الكافى من مقومات هذا « المنهاج » الذى شق به قوم النبى طريقهم المضىء والرحب إلى شريعة الله نجدهم وقد وقفوا بهذه المقومات الشامخة بعلومها ، والمشرقة بحقائقها ، على باب واسع للعلم كما وصف الله به من آمنوا منهم ، حتى تم إيمانهم جميعاً ، وذلك فى قوله تعالى :

« كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ »

(فصلت : ٣)

أى إن هذا الكتاب أنزله الله إلى من يملكون به من العلم ، ومن البيان، مايفتح الطريق بينهم وبينه لصدق الاستجابة له ، والإيمان به ، والالتزام الصادق بهذا الإيمان فى القول والعمل والأسوة .

وكذلك يقول تعالى عنهم بعد إيمانهم :

« يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ »
(المجادلة : ١١)

وهنا نقف مع قوم النبى صلى الله عليه وسلم ، النبى المصطفى بينهم ، ولقيادتهم ، أمام مصادر العلم التى هيأها الله لهؤلاء الذين هداهم واجتباهم ليؤمنوا بالدين الحق . . ليؤمنوا بالإسلام الخالص إلى الله ، قولا وعملا وأسوة ، كما جاء وحى الله به فى شرعة القرآن الكريم ودعوته . . **فإلى هذه المصادر بإذن الله . .**

مصادر العــلم :

إذا سألنا أنفسنا اليوم عما أبقاه الله لنا من مصادر العلم الدينى ، أى العلم بحقائق الدين الحق ، لقلنا إنها بتدرج اليسر فى استمداد العلم منها هى :

١ – الفطرة السوية .

٢ – التفكر فى ملكوت السموات والأرض بالسير الدائب – على طريقة إبراهيم – بين آفاق بلادنا المضيئة ليلا ونهاراً ،لنلتمس العلم والبرهان واليقين على حقائق الإيمان .

٣ — التدبر المباشر — إذا أمكنتنا اللغة المبينة — للقرآن الكريم ، مع اجتهادنا فى صحة التلاوة لآياته ، والفهم لشريعة الله به ، ولوصاياه وحكمته فيـــه .

وأما قبل اليوم فقد كان المصدر الحيوى ، والمعين الذى لاينضب لعلوم العرب الأولين ، هو بعد الفطرة السوية ، وقبل أن ينزل وحى الله بالقرآن الكريم ، هذا التحرك الدائب للإنسان العربى بطول أجياله وعصور تاريخه قبل الإسلام ، وذلك فى قلب جزيرته التى هى قلب العالم ، وحيث كان السير والتحرك بغير انقطاع تحت السماء ، وفوق الصحراء ، بدافع حيوى غير مفتعل هو طلب الماء والمرعى ، أو نقل وحراسة التجارة . .

بهذا استطاع السلف الصالح لقوم النبى وأصحابه ، وهم يتحركون مجدين متناظرين أحرار الإرادة ، وأسوياء الفطرة ، وبعيدى الغاية ، فى هذا الواقع المتحرك ، المضىء بآيات الله بالنهار والليل ، أن يكتشف هذه المقومات الأساسية للبرهان على « الله » باسمه الذى هو إشارة إليه بعيداً عن أى تجسيد أو تحديد ، وبصفاته التى يتنزه بها عن الشبيه والشريك . .

لقد اكتشف العربى بتسياره المجد بين آفاق السماء والأرض هذا « الاتساق » فى حركة الأشياء ، وفى علاقاتها ، وأنه لا « فطور » ولا « فراغ » ولا « اختلال » فى مسارها . كما تحقق من أن متغيرات هذا الكون الذى يراه ويرصده متحركاً داخل حركته ترجع إلى نظام غير متغير ، وإنما لأن كل الأشياء فى هذا الكون تمضى فى مسارها الحق ، والمقضى به ، فإنها وهى تتغير إنما تتغير « حتى لا تتغير » عن هذا النظام الشامل الذى تجتمع به ، وتمضى على سننه . .

بهذا الاتساق الذى لاتفاوت فيه ولااختلال ، ودلالته على النظام الشامل لهذا الكون الدائب الحركة ، والمتكامل فى حركته ، والثابت رغم متغيراته ، والمفطور بكل أجرامه وذراته على وحدة غايته ، انفتح طريق الحجة والبرهان أمام هذا الإنسان العربى الأول ، وهو يحكم على الواقع المتحرك فى قلب جزيرته المضيئة من قلب حركته هو فيه ، لكى ينظم هذه الحقائق التى استقاها ووعاها من مصادر علمه بين السماء والأرض على الوجه التالى:

أولا : لابد لهذا الكون المتسق ، والمتحرك بغير فطور ، والمتغير بغير تغير ، من خالق قادر مدبر .

ثانيـــاً : هذا الخالق القادر المدبر لاينبغى أن يكون معه آلهة غيره ، وإلا لفسدت بينهم السماوات والأرض ، ولعلا كل من هذه الآلهة على غيره ولذهب كل إلاه بما خلق . .

ثالثـــاً : إذن فهو إله واحد ، قيوم على خلقه ، مدبر لملكه ، ليس كمثله شىء ، وليس له شريك أو شبيه . .

على نفس هذا الطريق من السير فى الأرض المضيئة وتحت سمائها ، وإلى نفس البرهان على الله الواحد الصمد ، هدى الله إبراهيم عليه السلام ، وهو يستمع لصوت فطرته ، لكى يسير فى الأرض ويتفكر ويتدبر ، ليكون باليقين العلمى الذى وصل بمنهجه إليه ، إمام المسلمين فى برهانه الحق على الله الحق ، وفى حجته البالغة به ، وذلك حيث يقول تعالى فى بداية قصة برهانه ، ومنهج حنيفيته :

« وَكَذَٰلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ » (الأنعام : ٧٥)

ثم تمضى الآيات بعد ذلك لتقص من مراحل هذا « اليقين » الذى سلم به قلبه ، وأسلمت به نفسه ، بينما تمتد الحياة بدعوته إلى الإسلام والحنيفية حتى تبلغ غاية ازدهارها كما شاء الله فيمن اجتباهم لدينه ، ممن ألفوا السير فى الأرض ، والتفكر فى آيات الله ، حتى أنعم الله عليهم باللسان المبين ، وتنزل على رسوله إليهم بالقرآن العربى المنير . .

وعلى نفس الطريق الذى كانت به الأسوة بإبراهيم بسيره فى الأرض ، وتفكره فى آيات الله ، امتدت هذه الدعوة بالسير فى الأرض فى القرآن الكريم ، بعد أن تمت نعمة اللسان المبين على قوم النبى ، فضلا من الله من عطاء مصادر العلم التى ساروا طويلا بينها يتفكرون ويتدبرون ، ويستنبئون ويتعلمون . لقد جاءت دعوة القرآن الكريم معززة بلسانه العربى المبين تجدد الحض على السير فى الأرض شرطا لصحة الإيمان بالله ، وتجدد الاستدلال عليه ، وتثبيت اليقين به ، لتبقى بهذا اليقين صحة منهج العلم ، وصحوة إدراك العقل ، الذى لايكون إيمان بغير صحة إدراكه ، وقوة الإرادة به على « التقوى » بشطريها : أمرا بالمعروف ونهياً عن المنكر . .

فى أمر القرآن الكريم بمداومة السير فى الأرض كما لايزال يتلقاه المؤمنون فى كتاب الله بغير تبصر يقول تعالى :

« قُلْ سِيرُوا فِى الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ »

(العنكبوت : ٢٠)

ويقول تعالى :

« أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِى الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا »

(الحج : ٤٦)

ويقول تعالى وهو يذكرهم بنعمته عليهم بالأنعام التى يركبونها فى سيرهم فى الأرض ليتفكروا فى خلقه ، ويتعلموا من آياته ، كما يشهدونها فى اتساق حركتهم مع حركتها :

« وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَأَىَّ آيَاتِ اللهِ تُنكِرُونَ » (غافر : ٨١)

نعم . . ومرة أخرى نقول : لقد سارت أجيال طويلة من أبناء إسماعيل فى أرض الجزيرة المضيئة الآفاق ، ينظرون ويتفكرون ، ويتعلمون ويستيقنون ، على أرضهم مهد الرسالات ، ومطلع الآيات البينات ، وهكذا خلال تلك الأجيال المتتابعة . . ، وعبر العصور الطويلة ، نبتت ونمت وأشرقت نعمة الله الباقية على هؤلاء العرب بهذه اللغة العربية المبينة . . اللغة الحية بأصواتها ، ودلالاتها ، والمتسقة بكل أحرفها وكلماتها واشتقاقاتها، بهذه الإشارة الظاهرة فى كل أسمائها التى لاحصر لها على البشرى والإلهى ، وعلى الزائل والباقى ، وعلى الدنيوى والأخروى . . حتى إذا ماتمت نعمة الله على قريش فى صفوة العرب بهذه اللغة المبينة ، التى كانت ولاتزال صفوة وخلاصة وأداة مصادر العلم الحق بالدين الحق بين السماء

والأرض – نزل على رسول مصطفى من هذه الصفوة هذا القرآن المنير المحفوظ ، الذى كانت تنتظره – والعالم معها – ذاكرة صابرة فى انتظار وعد الله لأبويها إبراهيم وإسماعيل ، قرابة خمسة وعشرين قرناً . .

• • •

واليوم . . وبعد ظهور واستقرار المنهج العلمى القرآنى ، الذى صحح مسار العالم – على تنوع قدراته ومعتقداته – نحو الاستثمار الصحيح والسليم لموارد الله فى السماء والأرض . . اليوم . . أصبح من الممكن أن نكشف إتساق العلم الدينى بالمعنى الواسع فى دلالته على وحى الله فى كتبه ، وعلى علم التاريخ فى سننه ، وعلى علم قوانين الطبيعة وحركة الأشياء كما تمضى إلى غايتها بمشيئته . . اليوم . . أصبح من الممكن أن نرتب هذه المنظومة من الحقائق العلمية الشاهدة على فضل السير فى الأرض للتفكر الدائب فى خلق الله ، والاستمداد الدائم من مصادر العلم الواسعة الغنية فى السماء والأرض كما يسرها الله :

أولا : إلاه واحد . . إذن فهو كون واحد وليس جملة أكوان . . وفى هذا يقول الله تعالى :

« وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَاهٍ إِذاً لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَاهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ » (المؤمنون : ٩١)

ثانيـاً : الطبيعة فى هذا الكون الواحد متسقة القوانين ، غير مختلة ولا متضاربة ، لأنها مشيئة إلاه واحد ، وليست إرادات عدد من الآلهة .. وفى هذا يقول سبحانه :

« مَّا تَرَى فِى خَلْقِ الرَّحْمَٰنِ مِن تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِنْ فُطُورٍ » (الملك : ٣)

ثالثــاً : الوحدات فى عناصر هذه الطبيعة المتسقة القوانين متساوية مع عناصرها وأنواعها فى القيمة العلمية ، أى أنه ليست هناك ذرة من الحديد هنا أصغر أو أكبر من ذرة من الحديد هناك فى أى قطر أوموضع شرقاً وغرباً ، وشمالا وجنوباً . . ولهذه المساواة فى القيمة العلمية بين وحدات العناصر – أى ذراتها – أثرها فى تقدم العلم ، واحتمالات تنمية حياة الإنسان وتحقيق رخائه . . ويضرب الله المثال على صحة هذه القاعدة بالإنسان الفرد ، باعتباره وحدة نوعه ، وذلك حيث يقول تعالى :

« مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا »

(المائدة : ٣٢)

معنى هذا أن الإنسان الفرد فيما شرعه له الدين الحق من الحقوق والواجبات يساوى جميع نوعه فيما وهبه الله منها ، فمن اعتدى على إنسان واحد بغير حق فكأنما قد اعتدى على الناس جميعاً . ذلك لأنه بحسب القاعدة الثالثة من هذه المنظومة الدينية العلمية لايوجد إنسان خلقه الله تعالى أصغر فى حقوقه وواجباته ، وفى دلالته الخلقية من إنسان ، أو إنسان أكبر من إنسان ، فى حدود هذه الحكمة التى يجمعهم بها الله فى غاية خلقهم ، فى صف واحد ، تجاه إله واحد حكيم عليم ، ورحمن رحيم .

ثم ماذا بعد . . فى تعريفنا بالإيجاز الجامع للدين الحق ؟

الحجة والبرهان :

ونمضى فى هذا التعريف الموجز والمفيد بالدين الحق من أكثر جوانبه لنواجه الإجابة عن الفقرة الأولى من السؤال الأول ، وهى التى تتطلب بيان الدلالة الاجتماعية والأخلاقية فى الدين الحق ، لنقارنها بنقائض ذلك فيما بعد فى الفلسفة .

وإذا كنا قد أوفينا فى الصفحات السابقة جانب الثبات للأخلاق ومكارمها فى الدين الحق ، فإن الكلام عن الدلالة الاجتماعية بمفهومها الواسع سياسياً واقتصادياً فى هذا الدين الحق نستوفيه إن شاء الله فى هذه الكلمات ، مستلهمين الله تعالى من مصادر علمه الغنية المتاحة فى الفطرة ، والكتاب ، وآياته فى السماء والأرض ، مانسجله بها من رأى حق ، وبيان غير مسبوق مقدمين بذلك الحجة إلى الله ، والحجة من الله على كمال هذا الدين الحق ، وعلى ثباته المتغير من غير أن يتغير ، تأكيداً لهذا الكمال الدائم الإشراق ، واستيقاناً به . .

وإذا كان أهل الدين الحق لايزالون يحاجون عنه إلى اليوم بهذه الحجة إلى الله لمن يجاهدون فيه ، وبهذه الحجة من الله لمن يؤمنون به ، فإن هذه المحاجة عن الحق بحجة الحق ، والمجادلة عن الدين بعلم الدين ، وأخلاق الدين ، هما فى التاريخ الدينى ، وتعاقب أجيال المؤمنين بالدين الحق ، من الداعين بالحجة إليه ، والذائدين بالحجة عنه ، غير هذا الذى عرفته الفلسفات المتلاحقة الإنهيار من جدلها الماحك ، أوسفسطتها المخادعة ، أو ماتتشبث به من « ديالكتيك » تصطنع به نسقاً من الأوهام لإلباس الباطل الفلسفى ثوب الحق العلمى ، داخل بؤرة نظام سرى كهنوتى ، أو حزبى ، بعيداً عن شمس الواقع ، إلى أن يتغلب الحق ، وينتصر الواقع.

إن هذه المحاجة عن الدين الحق حجتها وبرهانها من الحق ، أى إن أساس حجتها وبرهانها هو أساس علمي بأوسع معانيه ، فمن حاج وجادل عن الله وعن الدين الحق ، بغير هذا الأساس العلمى فحجته داحضة ، وإنكاره للحق ، وجداله فيه ، وجحوده له، إنما هو إنكار المكابر الذى يعلم ويجحد لمرض فى قلبه ، وغفلة أو غفوة فى بصيرته ، وفى هذا يقول تعالى :

« وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ » (الحج : ٨ ، لقمان : ٢٠)

ويقول تعالى فيمن آتاهم الحجة ممن علمهم ، ومن رفعهم بهذا العلم إلى أعلى درجات الإيمان وذلك عن إبراهيم الحليم الحنيف عليه السلام :

« وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ » (الأنعام : ٨٣)

ومن أجل أن هذه المحاجة فى سبيل الله ، والمجادلة عن الدين الحق يقومان على « العلم » وليس « السفسطة » ولا المداورة يقول تعالى لنبيه الكريم من وصية مبينة تصبح بعد أسوة النبى المصطفى وصية وقانوناً لجميع العلماء المؤمنين ، من الدعاة إلى الله بالعلم الحق والأسوة الحسنة :

« ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ » (النحل : ١٢٥)

• • •

ومرة أخرى نستلهم حجة الله إليه ، فى هذا العصر الصاخب ، وبعد أن تشتت أمر المسلمين ، وتزعزعت وحدتهم ، منذ ضعفت الألسنة العربية عن مستوى العبور فى ضوء البيان الحق إلى آيات الله فى كتابه الحق ، فغزت الفلسفات والمذاهب ، وغرائب المعتقدات والفرق ، والملل والنحل ، عقول المسلمين ، لتذهب بهم أشتاتاً حول الدين الحق ، وبعيداً عن الألفة والوحدة به ، كل مذهب . . إننا نستلهم اليوم ، وفى هذه الإجابة الموجزة ، حجة الله إليه ، لنؤكد من حقائق الدين الحق تمام كماله فى هذا البناء السياسى ، والاقتصادى ، والاجتماعى ، والأخلاقى ، الذى بنى به القرآن بقيادة الرسول مجتمعه المؤمن الأول ، والذى لايزال القرآن الكريم ، وأسوة الرسول الأمين ، قادرين على تجديد بنائه فى حياة المسلمين المعاصرين ، بقدر ما يصدقون بسلامة الفطرة ، وصحة اللغة ، وصحة التاريخ ، تدبرهم لكتاب الله ، وتأسيهم بأسوة رسول الله .

لقد سبق مجتمع المؤمنين الأول على عهد النبى الكريم وصحابته كل أمانى الفلسفات فى « المدينة الفاضلة » المنشودة لتحقيق الحريات ، وتكريم العمل ، منذ أفلاطون ، وحتى توماس مور ومن بعده إلى اليوم ، فى تحقيق هذه الحريات القائمة على أساسها المتين من تكريم العلم والعمل ، وتزكية الطهر والأخلاق ، وتأصيل العدل والإحسان ، فى الدين الحق ، وفى دعوة الإسلام الدائمة إلى إخلاص الإيمان بوحدانية الله بغير شبيه أو شريك . .

لقد تراجعت هذه الفلسفات الطوبائية عن تحقيق أى شىء تتعزز به حرية الإنسان ، وألفة المجتمع ، حتى لقد صح أن هذه « المدينة الفاضلة »

ليست أمام هؤلاء الفلاسفة الخياليين وغيرهم إلا « اليوتوبيا » ، أى « اللامكان » ، أى الأمل المحال تحقيقه على وجه هذه الأرض ، وبين هؤلاء البشر ، فى الوقت الذى يحقق فيه الدين الحق ، وتحت رايات القرآن الكريم ، وأحكامه وأخلاقه ، هذا « المجتمع المؤمن » بكل مايقوم عليه من حريات وحقائق ، ومن فضائل ومكارم . .

وحجتنا إلى الله ومنه — كما نستلهمه فى هذه الإجابة — هى ترتيباً على المنظومة العلمية الدينية التى هدانا الله إليها ، والتى أشرنا إليها فيما سبق بقولنا :

إله واحد . . إذن فهو كون واحد وليس جملة أكوان
الطبيعة فى هذا الكون متسقة القوانين . . لأنها مشيئة إله واحد

الوحدات فى عناصر هذه الطبيعة المتسقة القوانين متساوية مع عناصرها فى القيمة العلمية .

هذه الحجة كما نستلهمها الله فيهدينا بها منه وإليه تكشف لنا عن هذه المنظومة الدينية العلمية الأخرى ، التى تتم بها الإجابة عن الفقرة الأولى من السؤال الأول فى بيان معاصر وغير مسبوق للرأى الحق حول كمال الدين الحق اجتماعياً وأخلاقياً .

ه إن الله الحق فى الدين الحق إله واحد ، إذن فالمجتمع المؤمن الذى يبنيه هذا الدين الحق مجتمع إنسانى واحد .

ه فى هذا المجتمع الواحد ، غير المتصارع فى مجتمعات وطبقات ، تكون العدالة كما أوحى بها الله الواحد متسقة القوانين ، وتكون هذه

القوانين لجميع لأفراد ، ويكون هؤلاء الأفراد ، أو وحدات المجتمع ، متساوين تماماً أمام هذه القوانين فى الواجبات والحقوق ، فليس هناك فى مثل هذا المجتمع المؤمن الواحد إنسان يحسب بأقل من واحد ، أوإنسان يحسب بأكثر من واحد ، لأن معنى هذا هو الإخلال بوحدة القوانين والأحكام واتساقها وتسلسلها من مصدرها الأول وهو الله : رب الدين الحق ، وواهب الحياة . .

ه هذه المساواة الفعلية فى واقع المجتمع المؤمن بين الأفراد المؤمنين فى الواجبات والحقوق أمام قوانين الله وشريعته وسننه تجعل الالتزام الأول لهؤلاء الأفراد هو العمل الصالح والصادق والدائب لبناء المجتمع المؤمن بناء شرعياً ، والدفاع المتجدد عن بقائه ورخائه وتقدمه ، دون أن يكون ذلك بإهدار وجودهم الذاتى ، أوحقهم فى قدر عادل من الحرية الخاصة ومن الرخاء . ذلك أن الأفراد هم ثمرات المجتمع ، والمجتمع هو حركة الأفراد ، واتساق هاتين الحركتين فى حياة الفرد بالإيمان والعلم والحرية يحفظ للفرد المؤمن قدرته الفلكية على أن يدور حول نفسه فى ذات المدار الدائب له حول مركز المجتمع ، الذى يجتذبه دائماً لمصلحة وجوده الأفضل أى لمصلحة وجود الأفراد أنفسهم وجوداً عزيزاً مطهراً ومكتملا ، الأمر الذى لايستطيع الفرد المؤمن أن يحققه لنفسه مستقلا عن إخوته فى المجتمع المؤمن ، كما أن الفرد — بصفة عامة — لايستطيع أن يحقق مثل هذه المزايا الفردية والاجتماعية بمثل هذا التعادل النشط بأواصر الألفة ، وهذا التكامل الحى بدوافع المسئولية ، فى غير المجتمع المؤمن كما يبينه الدين الحق بشريعة الله ، ونحو أشرف وأبعد الغايات فى حكمة الله .

الانهيـــار الفلسفى :

عـــبر العصـــور : :

وفى التمهيد لمواجهة الإجابة فى ضوء الدين الحق عن : ماهى الفلسفة؟.. وذلك بالتحليل العلمى واللغوى لطبيعة فكرها السرى الباطنى نقدم هذا الموجز من أقوال الفلاسفة عن حقيقة الانهيار الفلسفى المتعاقب عبر كل العصور إلى اليوم ، مما قد يلقى بعض الضوء على طبيعة مشكلات العالم المعاصر ، رغم حضارته التكنولوجية المتطورة ، وهى فى أساسها مشكلات فلسفية ، إذا ما اعتبرنا الشيوعية الإلحادية فلسفة ، والصهيونية العنصرية فلسفة ، والاستعمارية الأوروبية فلسفة كذلك . .

فى كتاب ج . ف . ديسون « خطباء اليونان » ترجمة أمين سلامة ، ومراجعة الدكتور محمد صقر خفاجة يقول ديسون :

« فى منتصف القرن الخامس قبل الميلاد عندما فشل خيال الفلاسفة الأيونيين الطليق فى حل لغز البقاء على أسس طبيعية قام بارمينيدس الفيلسوف الباحث فى الأسباب والمسببات وأنكر احتمال المعرفة الصحيحة »

ثم يقـــول :

« وكثيراً ما نوقشت أخلاق السفسطائيين التى وصفها شعراء الملهاة بأنها الوسيلة الأساسية لهدم المثل القديمة للأخلاق » .

وبعد أن أشار إلى أحد السفسطائيين وهو بروتاجوراس الذى كان يفاخر بقدرته فلسفياً وسفسطة على أن يجعل الخطأ صواباً تحدث عن زميل آخر له فقال :

« بدأ جورجياس الليونتينى — أحــد معاصرى بروتاجوراس — كسفسطائى من حيث الاعتقاد بأن قرر أنه لايمكن معرفة أى شىء ، وأن متابعة الفلسفة هى كالحرث فى الرمال ، أوالنقش على الماء لايخرج منها أحد بنتيجة » .

وتمضى الفلسفة اليونانية فى عصر اليونانيين الأوائل بكل أوهامها ، وتجريداتها ، وبعدها عن العلم والحق والأخلاق ، حتى تبلغ أوروبا فى القرنين السادس عشر والسابع عشر ، وحيث يظهر الفيلسوف الإنجليزى فرنسيس بيكون « ١٥٦١ — ١٦٢٦ » الذى نشأ فى البلاط الإنجليزى متأثراً بثقافته بأثر ازدهار الثقافة العربية القرآنية وتأثيرها على أوروبا فى عصر النهضة الذى أضاء عصورها الوسطى بأثر هذه الثقافة العربية ومنهجها العلمى التجريبى .

لم يستطع فرنسيس بيكون رغم تعصبه للأوروبى الأبيض إلا أن يسترجع ماضى الفلسفة اليونانية فى عهدها الأول أيام سقراط وأفلاطون وأرسطو، وأن يقوم بنقد هذه الفلسفات فى ضوء المنهج العربى نقداً علمياً جاداً فى كتابه الشهير « تفنيد الفلسفات » وذلك حيث يرى فى كتابه هذا أن « المنطق الأرسطى غير مفيد بوصفه أداة للكشف . إنه يجبرنا بمنطقه الصورى — أى بسفسطته — على التسليم بنتيجته ، ولكنه لايكشف عن شىء جديد ، بينما نراه يجر التجربة من ورائه — التى هى أداة العلم الصحيحة — كما يجر الأسير » ! . .

ثم يواجه فرنسيس بيكون هذه الفلسفات بوجه عام فيقول عنها فى كتابه المذكور :

« إن تعريفات الفلسفة ليست إلا ألفاظاً لاتنتهى إلا إلى ألفاظ ليس فيها من المادة — أى من الواقع — إلا صورها ، مالم تدب فيها حياة العقل والاختراع ، حتى لايصح التعلق بها كالتعلق بالصور » .

ثم يقول فى وصف الفلاسفة أنفسهم ناقداً لأوهامهم وهرائهم :

« إن الفلاسفة العقليين فى نسيج أفكارهم الباطنية المجرد مثل العناكب ينسجون أفكارهم من تجاويف عقولهم . على أن الفلاسفة التجريبيين الغلاظ ليسوا أفضل من هؤلاء لأنهم كالنمل يجمعون المواد دون ماهدف »

وأخيراً فى القرن العشرين يأتى الفيلسوف اليهودى النمسوى لودفيج فنجشتين « ١٨٨٩ — ١٩٥١ » لكى يدين الفلسفة بوجه عام ولكن بفلسفة جديدة هى « الفلسفة الوضعية المنطقية » التى ظهرت بها « جماعة فيينا » فى تلك الفترة . يقول فنجشتين فى كتابه « رسالة منطقية فلسفية » بأنه لم يجد مايغريه بأن يهتم بالفلسفة التى لاهى بالتجريبية مثل العلم ، ولا هى من تحصيلات الحاصل مثل الرياضة ، ولذلك فقد قرر أن ينبذها . . وإن يكن إلى فلسفة أخرى !

ثم يعود فنجشتين فيصف الفلسفة بوجه عام وصفاً قريباً إلى الصواب الذى يعلل تعاقب انهيارها فلسفة بعد أخرى على مر العصور ، وذلك حيث يقول :

« وليست الفلسفة أكثر من سقوط فى حيرة ذهنية لايتخلص الإنسان منها إلا بالمنبهات التى تنبه إلى استعمال اللغة فى السياق السليم لوظيفتها تجاه الفكر الإنسانى » .

فماذا بعد الحيرة الذهنية لأى متفلسف إلا الهدى بالحق، واليقظة للفطرة، والصحوة للعقل ، والحجة إلى الله بالعلم ، والحجة من الله بالإيمان ؟ .

الفلسفة الهندية :

فى الوقت الذى كان فيه إبراهيم عليه السلام يدعو إلى الدين الحق ، وإلى الإسلام إلى الله الواحد فوق أرض العراق ، وهو يحاج عن دعوته بحجته إلى الله ، وحجته من الله ، بهذا المنهج العقلى العلمى الذى لخصه فى كلمة « الحنيفية » ، وكان ذلك فى نحو القرن العشرين قبل الميلاد . . فى ذلك الوقت ، وحيث كان الدين الحق يواجه البديل منه وهى « الأساطير » فى أرض الحضارات الإنسانية الأولى فى الجزيرة العربية ومصر وبابل — كانت الفلسفة التى بدأ ظهورها فى الهند ، فى أرض الحرارة الشديدة والأمطار الغزيرة والغابات المثمرة والخصب ، وكراهية العمل وحب الاسترخاء ، لاتزال تغط فى نومها . .

ظهرت الفلسفة الهندية فى الهند قبل ظهورها باليونان ، وذلك تبعاً لأن الشعوب الأوروبية فى غالبيتها شعوب هندية بالهجرة ، وعلى ذلك فأسلاف اليونان هم الهنود الذين هاجروا باتجاه أوروبا من طريق بحرقزوين أو أرض فارس، ليحتلوا أرض شبه جزيرة اليونان قادمين إليها فى هيئة الهمج القساة عبر نهر الدانوب ، وحيث قاموا فى قسوة بشعة بقتل سكان شبه الجزيرة الأصليين من الفلاسجة وإلقاء جثثهم للكلاب . .

كان أول ظهور الفلسفة الهندية المدونة فى القرن السابع قبل الميلاد ، وعلى رغم تعددها إلى فلسفات،فقد كانت كلها نسقاً واحداً من العقيدة

الحلولية والعدمية التى تدعو إلى طرح العقل ، وترك العمل ، والفناء فى المعبود الذى هو برهمن أو « برم آتمان » أى الروح الأعلى الذى يحل فى كل الأحياء والكائنات من البشر إلى الكلاب والقطط والصراصير !

ومن كتاب الفيلسوف الهندى الشيعى أبو النصر أحمد الحسينى « الفلسفة الهندية » والذى عاش فى مصر طويلا موظفاً فى وزارة الأوقاف ننقل وصفه لشكل من أشكال الوصايا والتعاليم فى الفلسفة الهندية الوثنية إسمه « أو بانيشاد » ومعناه بالسنسكريتية الهندية كما يقول : « الجلوس بقرب الأستاذ لتلقى أسرار العقيدة » أى إن الفلسفة الهندية فى عمومها كانت منذ عصر تدوينها فى القرن السابع قبل الميلاد نوعاً من « المعارف والتعاليم التلقينية السرية » التى تتحدد بها فى أكثر من مرحلة ، وأكثر من فلسفة ، عقيدة مذهبية ، حلولية وثنية ، كأكثر ماظهر فى عصر تفرق المسلمين وتنازعهم من الفرق والنحل والمذاهب المتطرفة ، البعيدة تماماً عن الإسلام ، وإن كانت تدعى الانتماء بجذورها إليه . .

ويحكى أبو النصر أحمد الحسينى فى كتابه الجزيل الفائدة للباحث المسلم رغم إيجازه عن عدد من هذه الفلسفات والمراحل الصاعدة بالهندى البراهمى باتجاه الفناء فى برهمن وهى :

١ – فلسفة «أدوائيتا» أى مذهب«وحدة الوجود» الذىيقرر أن«الآتمان» أى روح الفرد ، وروح العالم هوالحقيقة الوحيدة، حيث أن البريم آتمان أى « الروح الأعلى » أو « برهمن » هو : الأساس الكونى لجميع الوجود ،

ومركز المعرفة لجميع العلم ، وأن الحقيقة الوحيدة هى هذا الروح الأعلى ، وأن كل شىء آخر هو « آرتا » أى « البلاهة » لكونه مشتقاً محضاً !!

٢ ــ فلسفة « كأن » . . وهى تركيب آخر من الأوهام التى تنتهى إلى « غير المعقول » فى سبيل الفناء فى غير الموجود . . بينما تجعل كل شىء من الحق ، أو الواقع ، تحت ظلال الشك والوهم ، فهو . . كأن ! !

٣ ــ فلسفة ويدانتا . . ويقول المؤلف عنها : « إن هذه الدنيا « مايا » أى وهم ، وليست حقيقة ، هذه هى الفكرة الأساسية فى ويدانتا الباطنى ، والتى لاتنال بعمل فكرى ، بل بحالة « أنوبهوا » أى بالرجوع من هذه الدنيا الملونة إلى معزل عميق فى أنفسنا ، أى آتماننا ــ يعنى فى روحنا ــ إعمله أنت إن شئت فأنت تعرف به هذه الحقيقة التى تختلف كثيراً عن حقيقة « التجربة » وهى حقيقة مجردة عن الزمان والمكان والتغير » !!

٤ ــ فلسفة اليوجا . . وهى التأكيد بالرياضة البدنية العنيفة وبالشخوص الباطنى بين فقراء الهنود ، سواء من تاجروا بهذه الفلسفة بتحويلها إلى شعوذة وسير على الحبال فى الهواء ، أو من احتفظوا بها مرحلة نحو الفناء فى المعبود الوهمى ــ على أنه فى الإمكان بالغاء الحواس والعقل تحقيق هذا الفناء المنشود ، وفى هذا يقول المؤلف :

« يوج تعنى « الاتصال والانضمام » . . وينشد مذهب يوج أنه يجب أن نقهر النطق ونحوله إلى إحساس ، ثم نقهر الإحساس ونحوله إلى فكر ، ثم نحول الفكر إلى الشعور العام . عندئذ ندرك عمق الطمأنينة فى السرمدى . ونعلم أننا لايمكننا العلو المنشود إلا إذا هدأت المصادر الخمسة للعلم وهى

الحواس ، وسكون العقل والفهم ، والطريق لارتياد الهدوء والسكون هو تركيز أفكارنا وحواسنا في هدف واحد ، ومحو الأهداف الأخرى » ! !

وهكذا . . كما استطاع بعض فقراء الهنود بتدريبات اليوجا أن ينجحوا فى لعبة الإيهام بقدرتهم على « الاختفاء عن أنظار الناس » فإن فلسفات الهند المختلفة ومنها اليوجا ، وخرافة الروح الأعلى ، والفناء فيه ، قدنجحت فى تحقيق صورة من هذا الفناء الفلسفى وهى « اختفاء الحقيقة » عن هؤلاء المخدوعين . .

وباختفاء الحقيقة فى طريق التوجه إلى الله الحق ، بالعقل والتفكر ، وليس بإغلاق الحواس وإطفاء نور العقل ، فإن الحقيقة فى جوع الملايين من الهنود ، وموتهم جوعاً ، بينما يموت الذين فوقهم من المهراجات فجوراً وترفاً ، أخذت تختفى عن أعين المصلحين عندما أفاقوا لمواجهة الاستعمار ، ومواجهة التخلف . . بل ما أكثر هذه الحقائق التى لاتزال مختفية وراء السراب الفلسفى اليوجى من تتابع الأوبئة والمجاعات ، ومن هوان المرأة على الرجل ، حتى إنهم ليزوجون الطفلة ، وحتى لتقف المرأة بباب الرجل كأنها بشر ناقص بحضرة إله ، هذا إلى تعدد الألسنة ، وتعدد اللهجات ، وتعدد الآلهة والأقطاب من البشر ، الذين يحكمون بغير اعتراض من غابت عنهم الحقيقة ، وتخففوا من أعباء العقل ، ونعموا كثيراً وكثيراً بأحزان الفناء . . ! ! !

فلسفة اليونان :

يقول أحمد أمين فى كتابه « قصة الأدب فى العالم » إن اليونانيين فى مناخ أساطيرهم من الآلهة كانوا « يفكرون بخيالهم »

ثم يقول أحمد أمين عن اليونان الأوائل نقلا عن أحد شعرائهم « هزيود » أنهم خلعوا صفات الإنسان على آلهتهم ، وبذلك قربوها إليهم بعد أن حملوها نزواتهم ، وبعد أن صنعوا فلسفة للكون تماشى تسلسل الآلهة وتوزيع الاختصاص بينهم .

ثم يقول : « إذا كان الهنود يعتقدون بالحلول الإلهى فى الكون ، فإن اليونان اعتقدوا بالحلول الإنسانى فى الآلهة ، فالإنسان عندهم حال بكل شىء ، حال بالآلهة ، ثم حال بالطبيعة التى تصوروها تملك كل خصائص الإنسان ، وهكذا اتخذ اليونان من الإنسان محورا للوجود كله ، ومنبعاً له » .

ويشهد تاريخ الهيلينيين واليونان الأوائل الذين يزعمون أنهم أبناء الآلهة بأن اليونانى القديم ، يونانى عصر الفلسفة التى اعتنقتها أوروبا فيما بعد لم تكن له فطرة الإنسان السوى التى تهديه فى بداية العلم المكتسب إلى أول الطريق الصحيح فى تفسير الوجود الصحيح ، وحل مشكلة الإنسان والطبيعة ، فتأله من خلال آلهته ، وبدأ يمارس تفكيره الباطنى الذى يتيح له من غير ضوابط الفطرة ، أو قوانين العلم ، أن يفجر بأفكاره كما يشاء ، وأن يهذى ويخدع الناس ، بعد أن يكون قد غرق فى خديعة نفسه إلى مافوق أذنيه . .

والآن نقدم الدليل على الركائز الخرافية فى فلسفة اليونانى الأول ، وأساطيره ، ومسرحه الذى استمده من كلمة « ثغاء الماعز » أو باليونانية «تراجوس أويدوس» أى « المغنى المعزى » وهو كائن خرافى نصفه الأعلى

والأدنى على شكل الماعز ، تصوروه يعيش فى الغابة مع إله الخمر ، ديونيسيوس ، وحيث كانوا فى احتفالاتهم المخمورة بهذا الإله الوهمى يظهرون فى شكل ذلك الكائن المعزى ، يغنون ويسكرون ويفجرون . .
أقول إن كل ثمرات الفكر الخيالى لليونان الأوائل الذين قرنوا فلسفة سقراط وأفلاطون وأرسطو بمسرح « التراجيديا » ، أو المأساة ، وهى المشتقة من كلمة « تراجوس » كما رأينا ، ثم بالكوميديا وهى الملهاة — لم تكن إلا وليدة حمى الهذيان الفلسفى المخمور الذى جمعوا فيه بين المأساة والملهاة ، وبين ظاهر الجد وواقع العبث ، والدليل القاطع على ذلك أقدمه من بعض كلمات قليلة عن حياة وأعمال وكلمات أفلاطون الذى كان أول من استعمل كلمة «فلسفة» — كما يقال — بمفهومها الصحيح .. !

فى الموسوعة الفلسفية المختصرة والتى ترجمها عن الإنجليزية فؤاد كامل وآخرين جاء فى ترجمة حياة وأعمال أفلاطون أنه كان أول من استعمل كلمة فلسفة ، بالمفهوم الصحيح لمنهج البحث الذى يطلق عليه اسم فلسفة . . وأن أفلاطون كان يرى مع سقراط فى تعريفاته أن هناك عالماً من المعقولات يتألف من « الصور » أو « المثل » التى يتعذر الإمساك بها ولكنها ضرورية لكى تجعل لعالمنا ولكلامنا معنى . .

ولكن أفلاطون — كما جاء فى هذه الموسوعة . كان يرى فى كلمة « مثال » أنها الصورة الأولى المرئية ، ثم أصبح معناها « الصورة » بصفة عامة . . واسم لذلك الشىء الواحد ذاته ، الذى هو فى ذاته كامل وخالص وخالد . . وإذن فهذه « المثل » التى اكتشفت بلا توقع كانت هى

نقطة الابتداء التى يبحث عنها أفلاطون ليضمن السداد فى كل من الجانبين العملى والنظرى ، بل التى كان يبحث عنها لتكون نوعاً من « الدين » فقد عدها أفلاطون — أى هذه المثل — إلهية ! !

وعلى هذا وفى جو هذه القدسية المدعاة للمثل والصور وضع أفلاطون كتابه الذى تصور فيه « الجمهورية الفاضلة » على أساس قيام الحكومة الصالحة لأدارتها من ملوك فلاسفة يعرفون قدسية « المثل » و « الصور » ، وأن يكون حكم هؤلاء مطلقاً وليس مقيداً بالقوانين الجامدة . .

ثم نرفع الستار عن عدد من هذه « الصور » المخزية التى وضعها « الفيلسوف » أفلاطون ، وهو فى حالة نشوة ، بعد أن لبس ثوب « المغنى المعزى » واحتفل بإله الخمر ديونيسيوس . . وذلك حيث يقرر فى جمهوريته الخرافية أن الأمر فى إنشائها بعد إلغاء كل العادات غير النافعة مهما كانت عزيزة — سيؤدى إلى أن يكون بهذه الجمهورية — كما جاء فى الموسوعة المذكورة — ثمة نساء حاكمات ، كما أنه سيكون بها معهن رجال حاكمون . وأن هؤلاء النسوة الحاكمات سيقمن بالتدرب على الحكم المثالى فى نظر أفلاطون « عاريات » تماماً كالرجال سواء بسواء . كما أن نظام هذه الجمهورية الأفلاطونية سيلغى الأسرية بين « الحكام » من الرجال والنساء ، وذلك من أجل نظام اتفاق بينهما عماده « شيوعية الآباء والأبناء » ! . . . أى إن العلاقة بين الحكام والحاكمات العراة تكون حرة جسدياً من قيد « الزواج » ، أى إنها تكون فى هذه الشيوعية الجنسية أقرب أوأقل مما بين القطط والكلاب ،أو مما بين« الماعز» والحمير !

فإذا أضيف إلى ذلك شيوع الملكية فى الأموال ذابت الطبقة الحاكمةجميعها فى « اتحاد حاكم » ليست له مصلحة ذاتية يرعاها ، ولاتكون رياسته بذلك موضع الشك عند المحكومين أبداً . . . ! ! !

كذلك ينص أفلاطون فى بناء جمهوريته الخرافية ، مستبيحا كل هذه الخطايا باسم الفلسفة ، على حرمان أرباب الحرف من الحقوق السياسية ، ذلك لأن أعمالهم — من وجهة نظره الأرستقراطية العنصرية والعدوانية — تعوقهم وهم يسعون بها وراء الكسب اليومى — عن الاهتمام بالواجبات العليـــا الملقاة على عاتق المواطن المثالى الذى هو المحارب والسياسى ، ولذلك استحقوا منه الزراية والاحتقار ، والحرمان من حق المواطن فى جمهورية أوهامه . . !

وأخيراً هذا هو أفلاطون « المثالى » الذى يرى أن عالم المثل والصور هو دين إلهى بالنسبة إليه . فهل يا ترى قد كان بما عرضه من مشاهد الشيوعية المتعددة فى النساء والأموال هو الجد الأعلى فى الفلسفة الشيوعية لكارل ماركس ؟ . . ثم هل كان أيضا هو « المثال » الأول لتلك الغواية التى سقط إليها بعد الحرب العالمية الأولى أصحاب مدن « العرى والجنس » فى أوروبا . . ؟ . . أم هو فقط « المثال » الباقى إلى اليوم من عصر اليونانيين الأوائل للدلالة على منبع آسن ، وبئ ، من خمر الهذيان المأساوى ، والمضحك فى نفس الوقت ، اسمه : الفلسفة . ! ؟

ثم ماذا بعد من فلسفة اليونان الأوائل !؟

يقول ول ديورانت فى كتابه « حياة اليونان » ما تقشعر له جلود

المعاصرين من احتقار مفكرى اليونان الأوائل للمرأة . فيذكر أن أكثرهم كان ينادى بأنه : « يجب أن يحبس اسم المرأة فى البيت كما يحبس جسمها » وكان خطيبهم العظيم ديموستين يقول فى تحديده وظائف المرأة كما تمارسها طبقة الحكام والفلاسفة يومذاك : « إننا نتخذ العاهرات للذة ، ونتخذ الخليلات للعناية بصحة أجسامنا اليومية ، ونتخذ الزوجات ليكون لنا الأبناء الشرعين » ! . . هكذا تماماً كما كان أجدادهم الهنود يحتقرونها ويمتهنونها بتعاليم فلسفاتهم . .

وكذلك فلقد كان من نزوات الفلسفة اليونانية بأطوارها ، وفى هذيان حمى خمورها وفجورها ، أنهم كانوا يلجأون إلى خصى عبيدهم الذين كانوا يبلغون بتعدادهم خمسة أضعاف عدد الأحرار من اليونان فى ذلك العصر ، مع تحويل نخبة منهم إلى أغوات « كاستراتى » أى مخصيين ، وذلك ليحتفظوا لهم فى خدمتهم المقربة إليهم بنعومة صوت المرأة ، مما يعلنون به عن المزيد من احتقارهم لهم ، كما هو احتقارهم للمرأة اليونانية التعسة ، التى طالما شقيت بالظلم والامتهان تحت نير ديمقراطيتهم الفلسفية الخادعة !!

التحليل اللغوى لكلمة « صوفى » :

والآن نصل إلى الجزء الأساسى من الإجابة عن هذا السؤال ، وهو تقديم الحجة من التحليل اللغوى لكلمة « صوفى » أو Sophy ، التى هى الأصل فى كلمة Philosophy بغير المعنى الذى ترجموه إلى العربية

خطأ وهو « حب الحكمة » ، وسوف نتتبع مجموعة الكلمات الدالة على الفلسفة أو المنتمية إليها فى اللغتين اليونانية القديمة ، والانجليزية المعاصرة التى هى أشبه اللغات الأوربية بها ، كما أنها أكثر هذه اللغات اليوم انتشارا فى أوروبا وأمريكا ، وذلك لنثبت بعرض الاستعمالات المختلفة لمجموعة هذه الكلمات الفلسفية بعدها تماماً فى أهدافها ومعانيها عن معنى كلمة « الحكمة » فى اللغة العربية ، هذه الكلمة التى وردت فى مصادر الدين الحق بهذه اللغة بالمعنى الذى لا تستطيع جميع اللغات القديمة والمعاصرة – فى أى مكان من الأرض – أن تعى مدى دلالته الدينية ، والعلمية ، والأخلاقية ، فضلا عن أن تستوعب هذه الدلالة .

ولئن كانت بعض القواميس الانجليزية المعتمدة مثل « أوكسفورد » قد ذكرت من معانى كلمة الفلسفة أنها : Love of wisdom or knowledge أى أنها « حب الحكمة أو المعرفة » فإن كلمة wisdom التى شاعت ترجمتها فى القواميس الإنجليزية العربية إلى « حكمة أو عقل » لا تدل فى جذورها اللغوية – كما سنرى بعد لحظات إن شاء الله – على معنى « حكمة » بل إنها تعنى نوعاً من « المعرفة السرية الكهنوتية » فرعاً من فروع التفلسف ، وباتجاه غايات نفعية وعدوانية .

وإتماماً لهذه المقدمة باتجاه التحليل اللغوى لمجموعة الكلمات الدالة على الفلسفة نقول إن كلمة « عقل » فى اللغة العربية ، والذى ينص القرآن الكريم على أنه مصدر الهدى إلى الله بالتفكر فى آياته ، والتدبر لوحيه وكتبه ، والاتساق مع الفطرة السليمة فى دوام الإقبال عليه ،

. والمحاجة عنه ، والعزة به ، ليس لها أى مقابل فى اللغات الأجنبية القديمة والمعاصرة ، فإن كلمة عقل فى اليونانية القديمة وهى Nous لا تعنى إلا « الحدس » أى الظن ، وفى اللغة الانجليزية المعاصرة فإن كلمة Mind لا تعنى إلا « الذاكرة » والمصدر اليونانى لها Mainesthe كما أن كلمة Intellect وهى من الأصل Intellectous لا تعنى غير الدماغ والمخ والذهن والذكاء ، وكما أن كلمة concious والتى يستعملونها أحيانا بمعنى العقل لا تعنى فى حقيقتها إلا « الشعور » .

• • •

والآن إلى تحليل كلمة صوفى أو Sophos التى كانت تعنى « المدرس » الذى يمتهن تعليم « المعرفة » أو العلم الخاص بالعارفين ، وذلك بقصد تحسين مستوى المعرفة والمنفعة لهؤلاء الشبان الذين يوكل إليه تعليمهم هذه « المعرفة السرية » . وقد اشتهرت كلمة Sophos و Sophistés فى تاريخ الفلسفة اليونانية بدلالتها على المعنى الذى لا توجد كلمة عربية تدل عليه وهو « السفسطة » أى « فن الخداع الجدلى » والتدريب على اكتساب البراعة اللفظية التى تساعد على التغلب على الخصم فى أى مناظرة من أجل غايات وقتية ونفعية، لا علاقة لها بالعلم ، ولا بطلب « الحقيقة » ولهذا فلقد كان السفسطائى ، وهو البنية الأساسية للفيلسوف يكون مستعداً دائماً بسفسطته للبرهنة على صحة رأى ما ، ثم البرهنة بعد ذلك ، إذ اشاء أحد منه — على صحة الرأى المناقض للأول !

ولقد آخذت هذه الكلمة فى مرحلة من مراحل الفلسفة اليونانية شكلا دينيا وذلك باستخدامها داخل هذا التركيب Theosophos باليونانية أو Theosophy بالانجليزية ، أى بعد إضافة كلمة Theo بمعنى إلهى إلى كلمة Sophos بمعنى سفسطة أو خبرة جدلية ، وذلك بمعنى محدد عام لهذا المصطلح : ثيوصوفية هو « معارف سرية باطنة » وبمعنى محدد لزيادة الإيضاح حوله هو كما تشرحه المعاجم الإنجليزية « أية فلسفات قديمة أو حديثة تدعى الوصول إلى العلم الآلهى — نسبة إلى ثيو — أو الوصول إلى المعرفة الآلهية نفسها ، سواء بالاستغراق الباطنى ، أو بالعيان والتلقى المباشر ، أو بوسائل اتصال ذاتية خاصة » !

ثم نصل إلى كلمة : Philosophia بمعنى فلسفة باليونانية أو كلمة Philosophy التى تعنى كلمة فلسفة بالانجليزية ، والتى عربها المعربون فى فترة تسلط الفكر الفلسفى اليونانى على المسلمين فى مرحلة تخلفهم الدينى والثقافى والسياسى فى العصر العباسى ، فقالوا ضلالا إنها « حب الحكمة » فنقول إن هذه الكلمة تعنى فى لغتها الأصلية « حب المعارف السرية الخاصة » والتى تأسست أصلا على فن السفسطة ، والجدل الخداعى ، واللعب بالحقائق ، وكسب المناظرات لأغراض نفعية غير علمية ، كما كان الأمر منذ مناظرات وحلقات سقراط ، وكما تعنى بوجه سطحى مفهوم « التنظير » أى Theorise ، وكما تعنى النظر فى وضع قواعد الأخلاق ، بين من لا سند لهم إلى الاخلاق من دين حق ، أو علم هاد ، بل سفسطة وتغالب وكهنوت للمعارف السرية . . !

ولما كانت هذه المعرفة السرية بمفهوم الفلسفة تعنى ما تعنيه اليوم كلمة Wisdom بالانجليزية ، وأن كلمة **wise** أى عاقل بهذه اللغة لا تخرج فى معناها الحقيقى عن جذورها فى اللغة اليونانية القديمة وهى Gewise, Yuis ، أى لا تخرج عن المعنى المستمد من هاتين الكلمتين ، وهو Gnosis أى الغنوصية ، أو بالانجليزية Gnosticism أى الغنوسطية ، والتى معناها المحقق فى اللغتين هذه « المعرفة السرية الغامضة والعدوانية » ، والتى عاشت بها جماعات « مغلقة » كثيرة تحارب الإسلام والمسيحية ، بدوافع فارسية أو يونانية أو صهيونية أو أوربية ، كما حدث ذلك بوقائعه البارزة فى التاريخ الدينى من أعمال الهراطقة والنساطرة فى بدايات المسيحية الأولى ، وكما حدث من هذه الجماعات الغنوصية السرية فى محاربة الدين الحق ، والكيد لأهله ، ومحاولة الطمس لمعالمه ، والتقويض لدولته ، وذلك فى كل من المدن التى اشتهرت بهذه التنظيمات العدوانية الفلسفية الغامضة فى كل من مدينة جنديسابور فى فارس، ونصيبين والرقة والرها من مدن شمال العراق وشمال الشام . .

هذه هى الفلسفة كما نبتت شجرتها الوهمية على منابعها الفكرية السرية الآسنة والوبيئة فى عهدها الأول ببلاد اليونان ، وهذه هى صورة موجزة من ثمراتها العدوانية والنفعية فى بلادنا ، بعد أن تمكنت منها باحتلال اليونان لأكثر الوطن العربى سنوات طويلة ، وبعد أن عادت للظهور فى أرضنا بعد ضعف المسلمين وتخلفهم وتفرقهم .

هذه هى الفلسفة التى اصطنعت لها من أجل التلبيس بالباطل على وجه الحق ، أو على حركة الواقع ، جدلا تحتج به بخداع اللفظ ،

وخداع البرهان ، جدلا سفسطيا خداعيا سموه على عهد اليونان القدماء وبلغتهم Dialektikos والذى لا يزال هو المحور النشط لكل المذاهب الفلسفية المعاصرة بهذه التسمية القريبة من اليونانية Dialéctic ، حيث يحتوى هذا « الديالكتيك » أو الجدل بمفهوم الفلسفة — على الخصائص السرية لقدرة أى مذهب فلسفى على التمويه عن خداعه بصناعة البرهان الملائم لأهدافه ، وهى دائماً : السلطة ، والقسر ، والسرية على مصدر السلطة سواء أكان قيصر . . أو الحزب .

ولمـا كان هذا الجدل بمفهومه الفلسفى يختلف تماماً عن مفهوم الجدل والمجادلة بالحجة إلى الله أو بالحجة من الله فى الدين الحق ، لأن الفلسفة تعنى السقوط عن حافة الطريق السوى إلى الحق ، فإن حجة الدين الحق لا تزال قادرة كما كانت على الانتصار على كل البراهين « الزائفة » و « المخادعة » لهذا الجدل الفلسفى . . الجدل الذى لا تتسع لغات فلسفاته لتعى فضلا عن أن تستوعب معانى كلمة « الحق » . . والتى لا ترى الحق كما هو فى الانجليزية إلا فى مثل كلمة Right التى تعنى فى نفس الوقت اليمين فى الاتجاهات ، ومنها كلمتى Right Hand أى اليد اليمنى ، مما يحمل الدلالة اللغوية العميقة على ارتباط معنى الحق عند الأوربيين بمعنى القوة ، الأمر الذى يفسر الطابع العدوانى لنشاطهم العنصرى فى أكثر مراحل تاريخهم . .

لا فلسفة فى الإسلام :

كان المؤمنون الأولون من المهاجرين والأنصار من أصحاب الرسول

الكريم ، كما كان من جاءوا بعدهم من الذين اتبعوهم بإحسان ، يستقون عقيدتهم من القرآن الحكيم ، ومن أسوتهم بالنبي الكريم ، فلا يخوضون فى ذاته تعالى ، حتى إذا ما وقعت الفتوح ، واختلط المسلمون بغيرهم من الأمم من أصحاب الديانات والفلسفات الوثنية القديمة ، وبعد أن وقع الخلفاء الأمويون فى قبضة المتاع والترف ، ثم بعد أن وقع الخلفاء العباسيون من بعدهم فى قبضة النفوذ الفارسى ، وفيما هو أشد نكالا فى قصورهم من المتاع واللهو والترف ، تمزقت الدولة العــربية الإسلامية الكبرى ، فظهرت فيها المذاهب والملل الخارجة على الإسلام ، كما انتزع أجزاء الدولة فيها من خرجوا عليها من القرامطة والإسماعيلية ، ومن الفرس من آل بويه فى الديلم ، ومن السامانيين فى خراسان ، وبدأ التفلسف والتشيع والتمذهب : لا حول الأداء الصالح لأحكام الشريعة ، ولكن فى صميم « العقيدة » نفسها ، وفى أركان الإيمان بالله الواحد الأحد ، وما تنزل به من وحيه على خاتم رسله . .

مع كل هذه التحولات كانت اللغة العربية المبينة قد تخلت عن «بيانها» وأصبحت ألسنة هذه الأحزاب المتنافرة من المسلمين إلى ماهو أقرب للعجمة فى رطانتها ولهوها ، وماهو أبعد عن العربية فى جلائها وجدها . ولهذا فإن الإمام الشافعى الذى جاء بعد مرحلة على طريق هذا التخلف ، ومع بداية ظهور الإغراء بالفلسفة والتفلسف ، أعلن فى كتبه وحلقاته أن كلا من الجهل باللغة العربية ، والإقبال على تعلم اللسان اليونانى من أجل التتلمذ على فلسفة أرسطو . هما من أقوى عوامل الهدم التى تدفع بالمسلمين إلى الخلاف فى العقيدة ، والانقسام بعد الوحدة . .

ويأتى السيوطى فيما بعد فيعقب على قول الشافعى بأن فتنة خلق القرآن التى حمل المعتزلة وزرها ترجع إلى الجهل باللغة العربية ، وبالبلاغة الموضوعية فى لسانها المبين الذى جرت عليه نصوص القرآن والسنة .

وإذا كانت فرقة المعتزلة قد نشطت وشطت عن القصد على عهد المأمون ، الذى جعل منها سوط عذاب على علماء المسلمين وفقهاء السنة ممن لايتفلسفون ، فإن هذه الفرقة التى شقت أول طريق الانحراف بالتفلسف بين المسلمين قد ظهرت قبل ذلك فى العصر الأموى . والأكثرون من الرواة على أن رأس المعتزلة هو واصل بن عطاء ، وكان ممن يحضرون مجلس الحسن البصرى فى المسجد ، وكان من أوائل المسائل التى ثارحولها الخلاف مسألة الموقف الذى يصل إليه مرتكب الكبيرة من الإسلام . فلقد خالف واصل الحسن البصرى فى قوله : إنه منافق يبقى على الإيمان برجاء التوبة ، إلى القول بأنه يبقى فى « منزلة » بين المنزلتين ، أى معلقاً بين الكفر والإيمان !

واعتزل واصل بن عطاء مجلس الحسن البصرى ، واتخذ له مجلساً آخر فى المسجد ، حيث قال الحسن قولته التى نشأ عنها اسم « المعتزلة » وهى : اعتزلنا واصل . .

وعندما جاء عصر المأمون ، وكان شطط المعتزلة بتفلسفهم فى النظر الدينى قد تجاوز حد الإنابة ، قربهم المأمون إليه ليجعلهم أداته فى فتنة المسلمين عن دينهم ، وفى الترويج للفلسفة التى كان يرى الترويج لها هدفاً من أهداف حكمه .

ولقد كان المعتزلة فى بعض تفلسفهم قد نفوا عن الله تعالى صفات المعانى وهى القدرة والإرادة والسمع والبصر والكلام ، وغيرها من الصفات المذكورة فى القرآن على أنها من أسماء الله الحسنى وليست وصفاًله

وبنفيهم صفة الكلام من بين مانفوه أن يكون الله متكلماً، وقالوا بأن ماورد من إسناد الكلام إلى الله فى قوله تعالى « وكلم الله موسى تكليما » النساء : ١٦٤ — إنما هو بالتأويل أن الله خلق الكلام فى الشجرة كما يخلق كل شيء وعلى هذا الشطح بنوا قولهم بأن القرآن « مخلوق » لله سبحانه وتعالى . ثم وهم يستندون إلى بطش المأمون وزيفه قدموا هذا الإفك إلى عدد من فقهاء المسلمين على عهده ، وعلى رأسهم أحمد بن حنبل ، ومنهم محمد بن نوح والقواويرى وسجادة ، فشدوا وثاقهم ، وكبلوهم بالحديد ، وعرضوا عليهم محنة الجواب عن القرآن الكريم « وهل هو مخلوق » ! ؟ .

أما القواويرى وسجادة فقد استهولا العذاب فأجابا رؤساء المعتزلة المؤيدين بسلطان المأمون وعسكره ، إلى ما زعموه من خلق القرآن فأطلقوا سراحهما . وأما ابن نوح فقد استشهد بعذابه ، وأما أحمد بن حنبل فشاء الله له أن يصبر على ما آذوه به جلداً وإهانة حتى النهاية ، نهاية عجز الباطل وخزيه أمام جلال الحق ومقاومته . .

ولقد جاء الفقهاء بعد ذلك فحاكموا المعتزلة بجريمة تفلسفهم فى الدين الحق ، وفتنة الإكراه على القول بخلق القرآن . فأما الإمام أبو يوسف صاحب أبى حنيفة فيعدهم من الزنادقة ، وأما الإمام مالك والإمام الشافعى

فقد أفتيا بأنه لاتقبل شهادتهم ، وأما الإمام الشيبانى فقد أفتى بأن الصلاة وراء « معتزلى » غير صحيحة ، وأن من صلى وراءه خطأ فعليه إذا علم ذلك أن يعيد صلاته . . .

• • •

وأخيراً . . وبعد أن تجاوز فتنة المعتزلة بتفلسفهم كثيرون غيرهم ، ممن جاؤوا بعدهم ليزداد المسلمون ضعفاً وتفرقاً ، وليزداد أعداؤهم عليهما تسلطاً وبغياً ، فأن هذا الخط الفاصل بين الدين الحق وبين الفلسفة والتفلسف ، والذى يبلغ وضوحه وجلاؤه وبيانه وضوح هذا الحد بين الحق والباطل ، وبين الحلال والحرام ، وبين العلم الذى يعززه العقل والشعوذة التى تنسب إفكها وعبثها وخداعها إلى العقل — هذا الخط الفاصل والحد الواضح بين الدين وبين الفلسفة والتفلسف ، لايزال فى حياة المسلمين المعاصرين — رغم صحوتهم وبداية فطنتهم لغزوات أعدائهم — منطمساً ، وغير تام الوضوح ، ولا حاسم التحديد ، الأمر الذى يفرض على مجتهدى علمائهم وفقهائهم أن يسارعوا بكل وسائل الدعوة ، والتوجيه ، والترشيد ، إلى تحديده تحديداً حاسماً ، تام الوضوح ، مبين الدلالة . .

أقول ذلك ، وها نحن هؤلاء نشهد الكثير من مآسى تردى العديد من الشباب الأذكياء ، والمثقفين النشطين ، فى مهاوى العديد من الفلسفات الأوربية الشائعة وعلى رأسها الفلسفة الشيوعية الإلحادية ، وما تحمل من المخاطر المباشرة على عقائد المسلمين ، وعلى مقومات إسلامهم الحق ، ومصادر هذا الإسلام فى كتاب الله ، وسنة الرسول ، وصحيح التراث . .

بل إن الطريق — مع انطماس الحد الفاصل بين الدين الحق والفلسفة أصبح مع صخب هذا الصراع الفلسفى المذهبى والسياسى فى العالم المعاصر ، ومع كثرة التحديات أمام الأمم النامية ، ومع ما تعرضت له المقومات الأساسية للدين الحق فى اللغة والعلم الدينى والتاريخ الصحيح فى بلادنا من ضعف وتفرق وخلاف — أصبح هذا الطريق يتسع إلى ماينبغى أن تتضافر قوانا القومية الواعية للإسراع بمواجهته ، ولتحويل نشاط الشباب والمثقفين إلى البديل الصالح منه ، وبخاصة ومصر الرائدة فى أصالتها الدينية ، وفى بناء الحضارات العلمية الإنسانية ، المرتكزة إلى الدين ، وفى إيثار السلام ، واعتياد الصفح ، وتشجيع العلم ، وبناء التقدم والرخاء ، هى الأقدر على دفع مثل هذا الخطر عن أهدافها السامية ، وعن مصائر أجيالها النشطة . .

ويكفى فى الإشارة إلى مثال واحد من خطر هذا « التفلسف » الذى أصبح البعض يمارسه بغير مسئولية ، وعلى شكل هواية ، أن أذكر بالمقال الذى نشره الدكتور عبد الحليم حفنى عميد معهد كلية البنات الإسلامية بأسيوط فى جريدة الأهرام بتاريخ ٢٤ يوليو ١٩٧٩ تحت عنوان «الإعجاز الحقيقى فى الإسراء والمعراج » ، وذلك ليتدارك به الرد على مقال لأحد المثقفين بنفس العنوان المذكور ، والذى جرب فيه أن « يتفلسف » بغير علم ، ولاهدى ، ولاكتاب منير ، بل وبغير رادع من عقل ، أو رأى عام ، أو علماء مؤثرين ، فبدأ انزلاقه إلى منحدر هذا التفلسف بهاتين الشطحتين الخطرتين ، فى فتنة المسلمين ، والابتداع فى الدين :

أما الشطحة الأولى التى آخذه عليها دكتور حفنى وهو يعظه ويتلطف به فهى زعمه بأنه كان لابد لكى يتحقق معراج النبى إلى السماء — مع أن القرآن الكريم لم يشر إلى هذا المعراج وإنما للاسراء وحده — فلا بد من أن يكون النبى صلى الله عليه وسلم قد خرج من الطبيعة البشرية فتحول إلى «ضوء»، ثم عاد إلى طبيعته البشرية بعد عودته إلى بيته ، وذلك بناء على القاعدة العلمية التى تقول إن المادة إذا تحركت بسرعة أكبر من سرعة الضوء تحولت إلى ضوء . . !

وأما عن الشطحة الفلسفية الثانية ، وهى أبشع فى هذا الشطح الفلسفى الذى يورث الكفر ، فهى زعمه بأن « ذات الله يمكن أن تتحول من النور؟ أو الضوء إلى المادة ، وذلك بعد تكثف هذا النور أو الضوء بدرجات عالية » ! ! !

أليس هذا مما يدعو إلى الرثاء للعديد من المثقفين فى تعرضهم لمثل هذا التيه الفلسفى ، وفى مواجهة الدين الحق ، بغير مرشد، ولاهاد، ولارادع ؟

أليس هذا المثال الواحد الذى شاء الله فقيض له أحد العلماء الصادقين ، الذين يحاجونه عن الدين الحق بالحجةوالموعظة متلطفا فى إرشاده، وتوجيهه إلى الصراط المستقيم . . أليس هذا المثال الواحد ، العابر ، نذيراً بهذا الخطر المتفاقم فى تيار التفلسف الذى لايلقى من يرده ، ومن يبين بالحجة البالغة التى أوردنا الكثير من براهينها على أن « الفلسفة ليست من الإسلام » . . ! !

نعم . . ونحن نعلم — أو ينبغي أن نعلم ، وأن نربي أجيالنا على أن يعلموا أن العلم بكل أجزائه ومفاهيمه هو مع الدين الحق وليس مع الفلسفة ، وأن الأخلاق والمحبة ، والمكارم والسلام ، هي مع الدين الحق وليست مع الفلسفة ، وأن القوة ، والوحدة ، والمستقبل ،والنصر ، هي مع الدين الحق وليست مع الفلسفة . وهاهي نذر انهيار حضارات المذاهب الفلسفية تحلق فوق رؤوس العالم وشعوبه المعاصرة ، حاملة إليه مشاعر الرعب ، وعلل المرض النفسي ، تحت بشاعة التهديد المعلق بالحرب النووية . . !

إذن فماذا بعد الحق إلا الضلال . . ؟

وكيف يضل قوم لايزال بينهم ، محفوظاً بأمر الله ، كتابه المنير ، وأسوة رسوله الذي لايزال يضيء لهم الطريق من سراجه المنير . . ؟

بل سيهتدي المؤمنون إلى طريقهم القويم ، وإلى دينهم الحق ، إن شاء الله مكبرين مطمئنين ، ومتحدين مؤتلفين .

واللهم اهد قومي إن كانوا لايعلمون ، والحمد لله رب العالمين .

* * *

السؤال الثانى :

اذا كان الاسلام فى لغة القرآن الكريم هو الحق وحده كما جاءت به شريعة الله ، وذلك فى مثل قوله تعالى :

« وَالَّذِى أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ »

(فاطر : ٣١)

وقوله تعـــالى :

« فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلاَّ الضَّلَالُ » (يونس : ٣٢)

فكيف يصح لنا أن نتصــور امكان اقامة مجتمعنا المتقــدم بالعلم والايمان ، والمتطهر بالاخلاق والحب ، على غير شريعة الله .. مرتفعين بهذا المجتمع عن مخاطر آية فلســفة وضــعية ، أو اعتقاد مغاير ؟

اكتب فى هذا ما تراه الصواب .

الإجــابة :

من الغريب ، ونحن المسلمين فى كل العالم الإسلامى ، سواء فى قلبه ورأسه ، أو فى أجنحته وأطرافه ، نجتاز العتبة الأخيرة من نهاية القرن الرابع عشر الهجرى ، والخطوة الباقية نحو مطلع القرن الخامس عشر من هذه الهجرة ، التى لاتزال منارة انتصار الإسلام ، وبداية انتشار الدين الحق . . . من الغريب حقاً أننا لانكاد نحس بما مر من هذا الزمن الغالى ، المليء بالانتصارات والمصاعب ، والزاخر بالأحداث والآمال ، وكأنما

قد انقطعنا عن تراثنا، وخرجنا من هويتنا ، وفقدنا إحساسنا المرهف بالزمن الذى يمر بنا ، رغم أننا — وبخاصة فى مصر رائدة العالم الإسلامى— نواجه اليوم أعباء الصحوة ، وآمال تحقيق الذات ، وتحديات بناء الأخلاق والرخاء والتقدم . .

لقد كان الأمر المنتظر أن تكون جهود العلماء والمثقفين مؤتلفة ونشطة فى هذه الأيام ، وهى تحيى معالم ذلك الماضى العظيم من تاريخ الإسلام ، باتجاه هذا الحاضر الحى ، ونحو هذا المستقبل المأمول ، مؤكدة بإيقاع أصواتها المسموعة ، وكلماتها المكتوبة ، وعلى أوسع مدى ، طموح شعبنا — وكل الشعوب الإسلامية — لصحة العودة فى مسار العصر إلى الدين الحق ، والإسلام الخالص ، والشرع الحكيم . .

لماذا إذن لم يقع هذا الأمر المنتظر من وحدة جهود علماء الدين ، والمثقفين المسئولين ، لترشيد هذا الطموح الظاهر فى مشاعر شعبنا والتفاتاته باتجاه العودة إلى الله ، والعمل الجاد لبناء مجتمع المؤمنين ؟ . . ولماذا كان شبه هذا الصمت الناطق ، والاسترخاء المتحفز ، ونحن ننظر — مابين علماء وعامة — إلى مغيب قرن ، ومطلع قرن جديد ، هو القرن الخامس عشر فى تاريخ الإسلام العظيم ؟

نضوب الاجتهاد :

من أجل أن نوضح هذه الظاهرة الغريبة ، هذا الإيضاح الذى يقودنا إلى الإجابة عن هذا السؤال الثانى علينا أن نبدأ فنتذكر — فى نظرة شاملة لهذا التاريخ الإسلامى الحافل — ماتراكم على المسلمين فى عصرنا هذا من

آثار مامر بالمسلمين بعد العصر الزاهر والدائم الإشراق على عهد الرسول الكريم وصحابته ، وعلى عهد الخلفاء الراشدين والمجاهدين والمرابطين والعلماء من قوى المسلمين معهم وحولهم . .

لقد مر على المسلمين من النصر والهزيمة أمام القوى الداخلية والخارجية المعادية هذا الكثير الذى نوجزه فيما عرض لهم بعد استتباب أمر الدولة العربية الإسلامية باتساع الوطن العربى وماحوله ، وذلك منذ القرن الثانى للهجرة — من ترف الدولة الأموية وغفلاتها ، ومن صراعات الدولة العباسية وانتشار مذاهب ونحل المتفلسفة خروجاً على الإسلام فى عهدها، ومن هجمة الاجتياح والتدمير والقتل التترية الدموية على عهد هولاكو الذى قوض بقايا أركان الدولة العباسية ، ومن أطماع الدولة التركية وتجبرها بعد ذلك ، مع سوء الأسوة فى سلاطينها وولاتها الذين عاشوا يغتصبون الأموال، ويمتهنون الزوجات فى الحريم ، أو يقتنون المئات من الجوارى والخصيان والأغوات . . !

ثم ينتهى العهد التركى الطويل بالمسلمين إلى الاستعمار الأوروبى ، وإلى غزوه التشريعى والفكرى والاجتماعى واستنزافاته، ثم تجد الصهيونية بعد هذا الإنهاك المتواصل فرصة تتوهمها مواتية لتزرع دولتها التوسعية العنصرية الوهمية من « النيل إلى الفرات » . . . ثم تكون الصحوة من جديد . . وبقوة . . وتفاؤل . . رغم كل آثار وتراكمات تلك العصور القاسية بعوامل الصراع ، والفرقة ، والاستنزاف . . والبعد عن الاعتصام العملى بمصادر ومقومات الدين الحق . . فى شريعة الله . .

لقد كان أول آثار البعد عن استطلاع العصر النبوى المشرق والتأسى به والتدبر الواعى لكتاب الله والعمل بمافيه أن شمس « الاجتهاد » المغنى للفقه فى كل مالم يرد فيه نص ، قد احتجبت ، وأن رياحه المنعشة لحركة العلم الدينى ، ودعوة علماء الدين ، قد ركدت . بذلك سادت ظاهرة «التقليد» حياة العلماء ، إلا قلة لاتؤثر ، وذلك منذ انتهى ببداية القرن العاشر الهجرى آخر العهد بأولئك العلماء النوابغ المجتهدين الذين ظهر أكثرهم بمصر من أمثال : العز بن عبد السلام ، وابن الحاجب ، وابن دقيق العيد ، وابن تيمية ، والسبكى ، وابن القيم ، والبلقينى ، والأسنوى ، وجلال الدين المحلى ، وجلال الدين السيوطى •

بهذا الاحتجاب الطويل لشمس الاجتهاد فى الفقه ، والنضوب لمعينه بين المسلمين ، والركود لرياحه ونسماته ، انقطعت الصلة بين علماء الأمصار الإسلامية ، وأصبحت الحدود السياسية التى تفرق بها المسلمون إلى دول متعددة النظم هى حدود العلم الدينى ، الذى هو القائد والحافز لكل علوم الحياة الأخرى ، فأصبح علماء أى قطر منفصلين عن علماء القطر الآخر ، فلا يكاد أحدهم فى مصر يسمع بزميل له فى المغرب ، أو فى الهند ، بينما كان الأمر فى عصور الاجتهاد وصحواته أن لا تنقطع رحلة عالم الدين من بلد إلى بلد ، ومن قطر إسلامى إلى آخر ، ليجمع العلم بالرواية والتلقى من علمائه وأئمته المبرزين هنا وهناك ، ثم تتعاقب مواسم الحج التى تجمعهم ، فيزداد كل عالم بما عند زميله أو إمامه علماً ، فى كل العلوم الشرعية ، بل فى علوم الأولين التى عمدتها الرواية والتلقى . ثم يعود بعد ذلك بثمار

رحلاته الطويلة إلى أهله وقومه فيروى ويتحدث ، ويكتب ويملى ، ويضيف ويصحح ، وكأنه بهذا ينقلهم فى ضوء العلم ، وفى تيار الألفة عليه ، والعزة بمصادره ، والأمل فى مستقبله ، إلى إخوانهم فى الأوطان الإسلامية كلها ، ليزدادوا أملا ، وليحسنوا عملا . .

كذلك فقد كان من نتائج نضوب الاجتهاد بين العلماء ، وانقطاع الصلات بالعلم الدينى بجميع فروعه بينهم فى الأمصار المختلفة ، رغم كثرة عددهم ، وشدة شوقهم للمزيد من الإطلاع على الصحيح ، والبحث فيه . والإضافة إليه – أن صلة هؤلاء العلماء قد انقطعت كذلك بأهم ماتركه الأئمة البارزون من آثار فقههم ، وثمار اجتهادهم ، مثل كتب الإمام محمد بن إدريس الشافعى ، والإمام مالك بن أنس ، وهى بطبيعة ما احتوته من علم زاخر ، واجتهاد أمين ، ومسائل وقضايا وأحكام يحتاج المسلمون إلى التبصر بها فى كل عصورهم ، جامعة متنقلة ينشأ بها الفقيه الكامل . والعالم الراشد ، ويجد المسلمون فى ضوئها المتجدد حاجتهم من العلم الرحب الذى يقيمون عليه ركائز نهضتهم ، ويطلعون به شمس صحوتهم كلما احتاجوا إلى ذلك فى أى قطر ، وفى أى عصر . .

هذه الكتب النفيسة والقيمة ، والتى كأنها النجوم الهادية فى سماء صافية طويت فى سجلاتها ، وتجمدت فى أماكنها وخزائنها ، رغم الحياة العلمية التى تزخر فى كل سطورها . ولقد كان ذلك أيضاً بسبب ماخيم على المسلمين بعد نضوب الاجتهاد من تجمد حركة العلماء وراء حدود بلادهم ، ومن سيادة التقليد أكثر ما تطمع إليه هممهم ، وما تركته خطط الاستعمار المدمر ، بعد العهد التركى المتجبر ، من آثار على مناهج التعليم الدينى الذى

تم فصله — فى أقسى ضربة موجهة إلى الإسلام والمسلمين — عن التعليم المدنى . . .

هذه الكتب النفيسة القيمة لكبار الأئمة المجتهدين أصبحت اليوم مع الأسى بعيدة المنال عن إدراك أكثر العلماء ، كما جاء ذلك فى شرح واف للعالم المرحوم الشيخ محمد الخضرى الأستاذ السابق بالجامعة المصرية لمادة التاريخ الإسلامى وذلك فى كتابه « تاريخ التشريع الإسلامى » . وكيف نلوم عالم الدين المعاصر ، وهو رغم قدراته العقلية ، وأشواقه العلمية ، قد عاش بآثار التقليد ، ومناهج حال الانقطاع والركود [illegible] سيطرة القوى المعادية ، تحت المستوى العلمى الذى كان يليق به [illegible] ولايزال يطمع فى تحقيقه ، إن شاء الله . .

القوانين الأجنبية :

لم يحاول الاستعمار الأوروبى فى خططه المعادية للإسلام والمسلمين [illegible] يضعف فقط من المناهج التى يتخرج بها علماء الدين الأعلام فى الأزهر [illegible] ليبعدهم عن الغايات الشريفة والكبرى رغم وضوحها أمام أعينهم [illegible] لقد تجاوز ذلك كثيراً إلى تنحية الشريعة الإسلامية عن مكانتها التى لم [illegible] عنها — حتى فى عهد الترك والمماليك — فى صياغة قوانين المعاملات بين المسلمين مدنياً وجنائياً . .

ذلك أنه بعد زيادة النفوذ الأجنبى فى مصر ، وفرض قوانين أجنبية فرنسية تماماً عليها سنة ١٨٧٥ فى نظام قضائى أطلقوا عليه اسم « المحاكم المختلطة » جاء الاحتلال البريطانى بعد ذلك بعشر سنوات [illegible]

من هذه المحاكم المختلطة أصلا دائماً فى حياة مصر القانونية فى صورة لها هى المحاكم الأهلية .

وفى رسالة قيمة للمستشار عبد الحليم الجندى نشرها فى مجلة إدارة قضايا الحكومة عدد ٣ السنة الثامنة عشرة بعنوان «نحو تقنين الفقه الإسلامى» يقول فيه عن القوانين التى لاتزال سائدة فى بلادنا إلى اليوم :

« إن التنظيم القضائى والمدنى والجنائى المعمول به حالياً هو نسخة فرنسية من قانون فرنسى أريد بنقله إلى مصر تطبيق قانون فرنسى يحمى الأجانب من شريعة البلاد ، ثم خضعت النسخة الفرنسية للتطور بحسب الضرورات على مدى قرن بتمامه من ١٨٧٥ إلى ١٩٧٤ ليخضع لها المصريون دائماً » وطبعاً هـذه القوانين لاتزال سائدة بعد نشر هـذه الرسالة إلى اليوم أى حتى سنة ١٩٧٩ . .

ثم يقول المستشار عبد الحليم الجندى يصف هذه القوانين الأجنبية التى لازلنا نتعامل بها اليوم ، وذلك على لسان المستشار الإيطالى مسينا وهو أحد القضاة المنصفين الذى شهدوا فترة قيام المحاكم المختلطة وقوانينها التى أحالها الاستعمار على مصر فى صورة « المحاكم الأهلية » :

« هذا التقنين ليس تقنيناً صنعته مصر ، وإنما هو ، مستورد ، وهو عمل شخصى ومستعجل ، بل مستعجل جداً ، وواضعه لاتتعدى ثقافته العلمية درجة متوسط . إن هذه القوانين المجمعة من هنا وهناك على غير أصول وضع القوانين ، وفقاً لحاجات الجماعة ومصالحها ، تجعل شبح زعيم المدرسة التاريخية سافينى يرتعد من تصور استيراد ، أو اقتراض أمة ، لتشريعاتها » ! .

المجتمع المؤمن وكيف نبنيه :

كيف إذن نتصور – كما جاء فى هذا السؤال الثانى – أن مثل هذه القوانين الأجنبية المستوردة من فرنسا وإيطاليا وغيرها ، القوانين الغربية ، والمنبعثة من فلسفات تشريعية تتناقض مع الشريعة الإسلامية التى أشرقت بها عقيدة المسلمين ، وسادت قوانينهم ومعاملاتهم قروناً طويلة . . كيف نتصور هذه القوانين المجمعة من هنا وهناك ، والتى تجعل فى فلسفتها قيمة المال فوق قيمة العرض ، متناقضة مع صميم الدين والحق ، وحكمة الله فى شريعته ، ونسق أخلاقه . . كيف نتصور مثل هذه القوانين التى تمزقت بها أواصر الأسرة فى أكثر بلاد أوروبا وأمريكا ، وضاعت بها الحقوق ، وانتشرت « المافيا » وتنوع الإرهاب . . كيف نتصور أن نقيم بصورة من صور هذه القوانين الأجنبية ، المستوردة ، والمعيبة بفلسفتها التشريعية حتى فى بلادها – هذا المجتمع المؤمن ، المتقدم بالعلم والإيمان، والمتطهر بالأخلاق والحب ، بينما شريعة الله هى الأقرب الينا ، والأسرع توجهاً بها إلى ألفة قلوبنا ، ووحدة أفكارنا ، وتضافر جهودنا لبناء رخائنا وتقدمنا . . ؟ . !

نعم . . كيف نقيم بهذه القوانين الأجنبية المعيبة هذا « المجتمع المؤمن » الذى كان هدف الاستعمار هو القضاء على أى أمل لقيامه فى مصر مرة أخرى ، وذلك بأن يدمروا اللغة والأخلاق ، ووحدة الشعب الوطنية ، التى نجحت بها مصر دائماً ، وكذلك ليمسخوا طبيعتها ، وليبعدوها – كما يقول المستشار عبد الحليم الجندى فى رسالته القيمة – عن تقاليدها ، ويحدثوا انفصالا فى حياة شعبها بين الحقيقة القانونية والواقع الاجتماعى ؟.

وكما يقول المستشار الجندى أيضاً « فإن المصريين الذين يتبايعون ويتعاملون بتقاليد ومعاملات أوروبية ، ويؤاخذون مؤاخذات أوروبية ، ويعاقبون عقوباتهم غير الإسلامية ، لايؤلفون مجتمعاً إسلامياً ، ومهما كانت معاملاتهم وعقوباتهم أوروبية فلن يصيروا أوروبيين ، وإنما يصيرون غير مسلمين ، وغير مصريين ، وغير أوروبيين . وبهذا يصبحون « أمساخاً » أو يصبحون صوراً مهزوزة للذين يقلدونهم ، وينسلخون من الجماعة التى نشأوا على قواعدها إلى جماعة هم ذيول لها ، وهذا بعض ماعناه الاستعمار ومشرعوه منذ ذلك الزمان » !

الجواب الوحيد إذن هو أن تعود الشريعة الإسلامية إلى مصر ، وأن تعود مصر إليها ، حتى يعود المصريون إلى طبيعتهم السوية ، ووحدتهم القانونية ، ليستأنفوا بناء حضارتهم التاريخية بطابعها ، ومقوماتها ، غير مقلدين ولا مترددين .

الشريعة تشرق لتحكم وتبنى :

منذ وقع هذا الانقلاب التشريعى فى مصر ، وشعبها العريق بأصالته وحضارته لم يهدأ له بال ، ولم تغمض له عين ، تجاه سيادة هذه القوانين الأجنبية المستوردة ، فأخذت أصواته تتعالى — ما بين علماء وفقهاء الأزهر ، ومستشارى ورؤساء المحاكم ، وأساتذة وعمداء الجامعات — وهم يطالبون طوال القرن الماضى وهذا القرن بتغيير هذه القوانين الأوروبية ، ليحل محلها فقه مستمد من الشريعة ، إلا أنه لم يكن فى وسع حكومة من حكومات

الخديويين ، أو حكومات الملك والأحزاب ، أن تستمع لشيء من هذه النداءات ، أو أن تطلع على شيء من هذه المذكرات .

إلى أن شاء الله فكانت الثورة ، ثم جاء النظام الحاضر بعد هذه الثورة وفى منهجه لتصحيح كل ما سبق من الأخطاء أن يعود بمصر إلى سابق تقاليدها ومنابعها ، وأن يبدأ فيجعل من « الإيمان » أساساً راسخاً لدولة العلم والتقدم . وبهذه البداية السليمة تهللت القلوب فى المناخ الملائم للأمن ، والتفاؤل بالمستقبل ، وأخذت الشريعة تشرق من أفقها على من تطلعوا إلى قيامها فى الواقع ، وإلى ظهورها فى قوانين جديدة مستمدة منها . ثم لم يلبث النظام الحاضر أن خطا خطوته الواسعة الأولى نحو إحياء هذا الأمل ، وإحقاق هذا الحق ، فسجل الدستور الدائم أخيراً أن « الشريعة الإسلامية مصدر أساسى للتشريع » .

لاشك أن النظام الحاضر قد توفر لقيادته الوطنية المسئولة مالم يتوفر لغيرها فى السابق من إدراك فضائل الشريعة الإسلامية ، وخصائصها الإنسانية والأخلاقية ، والعمرانية والتقدمية ، التى خصها الله بها ، وذلك منذ اهتدى إلى أن يكون « الإيمان » هو الأساس الراسخ والحيوى لدولة العلم والتقدم التى التزم بإقامة أركانها ، وإعلاء بنيانها . .

نقول إنه لاشك أدرك أن « الاجتهاد » فى الفقه الإسلامى هو أداة التطور الدائم باتجاه بناء المستقبل ، وأن أبدية الشريعة الخاتمة هى التى تجعل هذا الفقه عصرياً فى كل عصر ، وقادراً دائماً على التمهيد للتطور .



ونقول إنه أدرك أن التشريع الإسلامى ميسر يدفع الحرج ، ومحلق يدفع المؤمنين بأحكامه القانونية إلى أعلى ، ويحضهم على الارتقاء . واجتهاد الرأى فى هذا التشريع تعبير قانونى عن أصل حرية الرأى ، وحرية العقيدة ، والحرية الشخصية ، والشورى ، وعن الأساس العلمى للتطور والمعاصرة . ولذلك فإنه كلما سجلت أمة لحضارتها القانونية نقطة تقدم كانت فى الواقع نقطة لقاء مع اتجاهات الإسلام .

كذلك فقد أدرك أن المساواة أصل الأصول فى الشريعة بين المسلم والذمى، والعربى والعجمى، بل حتى مع العدو مادام لايحارب المسلمين .

كما أدرك أن الشورى فى الشريعة الإسلامية أصل يقترن مكانه بالصلاة لجلال مكانه فى النظام الإسلامى كله ، منذ تجلى ذلك فى السياسة والحكم فى المجلس الدائم للشورى فى العصور الأولى .

وكما أدرك أن العمل فى هذه الشريعة حق وواجب ، بل هو أفضل الكسب كما يقول النبى عليه الصلاة والسلام « أفضل الكسب بيع مبرور وعمل الرجل بيده » .

وكما أدرك أن العلم فى هذه الشريعة فريضة على كل مسلم ومسلمة ، وأنه بهذه الفريضة أصبحت المساجد معاهد للتعليم ، وأصبحت الجوامع الكبرى جامعات المسلمين التاريخية .

وكما أدرك أن « التخطيط » للصناعات فى هذه الشريعة هو فرع على العلم الواجب ، ومنه تعلم هذه الصناعات ، كما أن منه توجيه المال إلى

ترقيتها فى مثل تكاليف الجهاد ، والإنفاق العام، مع شرط تجنب الاستغلال والاحتكار .

وأنه أدرك أن الفقه الإسلامى باستناده إلى شريعة الله هو الذى أرسى قواعد « التضامن الاجتماعى » حيث جعل الإنسان « مستخلفاً فى مال الله » وبذلك حلت الشريعة المشاكل التى أقضت مضاجع السياسيين والثوار منذ القرن الثامن عشر .

وأنه أدرك أن هذا الفقه الإسلامى هو الذى يرى أن الإباحة هى الأصل، وأن الحرية هى الأصل ، فالناس أحرار فى أن يعقدوا مايشاؤون من العقود والشروط ، إلا أن يحلو حراماً أو يحرموا حلالا .

الفقه الإسلامى هو فقه « الأسرة » الذى يسوى المرأة بالرجل فى عقد الزواج ، ويجيز لها أن تشترط على الزوج شروطها ، ثم يوجب لها على الزوج النفقة ، وذلك بعد أن ساوى بين النساء والرجال فى الحقوق الإنسانية ، وبعد أن جعل للأمهات على الآباء درجة . .

كل هذا الذى لانشك فى أن النظام الحاضر يدركه سيقرب بمشيئة الله من هذا اليوم الذى تشرق فيه الشريعة الإسلامية من مطلعها الدائم فى فقه مصر ، وقوانينها ، وأخلاقها ، وذلك لتحكم مسار نهضتها ، وتسهم فى بنائها ، فى هذه المرحلة الحاسمة من التاريخ، التى تجتاز فيها مصر أضخم العقبات والتحديات ، باتجاه أعظم الآمال وأشرف الغايات . .

* * *

السؤال الثالث :

ما هى من وجهة نظرك هذه الاعمــال التى يجب ان نبادر فنتخلى ونتطهر منها ، وهذه الأعمال الأخرى التى يجب أن نبادر فنتحلى ونعتصم بها ، حتى نقيم مجتمعنا المؤمن المتماسك السليم، كما ننشده ، مستقرا على الاصالة والعصرية ، ومتطهرا من الهوى والحقد ، ومن الفوضى والعيب ؟

أيد رأيك بآيات من القرآن الكريم .

الإجابة :

تتسع الإجابة عن هذا السؤال لتشمل افتراضين :

• الافتراض الأول أن نتصور ما تبادر إليه دولتنا القائمة فى وجهاتها المعلنة لإقامة دولة العلم والإيمان ، من الأعمال التى تهيىء لها ما وعـدت به من بناء الإنسان المصرى الجديد ، مع بناء مصر المستقبل ، ومصر العـلم والتقدم والرخاء ، على أساس الإيمان والعلم والأخلاق .

• الافتراض الثانى أن نتصور مبادرات كل فرد ليكون أسوة لغيره فى هذه الأعمال التى يتحلى بها الشعب ، أو يتخلى عنها ، انتظارا لما تقوم به الدولة من استكمال بناء هذا المجتمع المؤمن الذى تنظم جهودها وتوجهها لبنائه ، ومشاركة للدولة وعونا لها بهذه الأعمال التى تجـد المناخ الملائم لها فى هذه المرحلة .

ولئن كان من حق المتسابق أن يجيب عن افتراض واحد من هـذين إلا أن الأفضل هنا ، فى هذه الإجابة الموجهة إليه ، أن نجيب على الافتراضين معا .

الأركان الخمسة :

فى تصورنا لهذه الأعمال التى تبادر إليها دولتنا القائمة بقيادتها الوطنية المؤمنة ، لكى تبنى فى ضوء توجهاتها المعلنة هذا المجتمع المؤمن على أساس الإيمان والعلم والأخلاق ، فى دولة العلم والتقدم التى تعيد بها بناء الإنسان المصرى الجديد ، وبناء مصر المستقبل القريب ، مصر العلم والتقدم والرخاء ، نقول إن هذه الأعمال الواضحة والمحدودة ، التى ستقوم بها الدولة بديلا من واقع أو أعمال أخرى لا تزال سائدة ، وتصحيحا لهذا الواقع وهذه الأعمال — ترتكز على أركان خمسة تشمل كل مبادرات وأنشطة التغيير والتصحيح ، وقد بدأت الدولة فعلا فى قطع خطوات على طريق التخطيط والتنفيذ لها . . هذه الأركان الخمسة تشمل ما يأتى :

١ — **القوانين السائدة :** كما تناولنا بوضوح فى الإجابة عن السؤال الثانى مخاطر استمرار العمل بالقوانين الأجنبية المستوردة ، فإن العمل أو التصحيح هو تقنين الشريعة الإسلامية التى يتهيأ تحت مظلتها السمحة هذا المناخ الملائم لتحقيق الوحدة الوطنية على أساس أن الأصالة المعاصرة ، وتحقيق ذات مصر ، وهى تستعيد بقوانين هذه الشريعة طابعها، وهويتها الحضارية الخالدة ، وأخلاقها ، بينما ينتهى نهائيا بسيادة

القوانين المستمدة من هذه الشريعة هذا الانفصال القائم – مع القوانين المستوردة – بين الحقيقة القانونية فى حياة الشعب وبين الواقع الاجتماعى .

٢ – مناهج التعليم : وفى ضوء تقنين الشريعة ستواصل الدولة جهودها التى بدأتها منذ قليل لكى تنجز هذا الهدف الكبير ، وتشيد هذا الركن الأساسى فى بناء المواطن المصرى الجديد ، وهو تخطيط وإعداد مناهج التعليم الموحدة ، المتكاملة ، التى تحمل طابع مصر ، وأصالة مصر ، باتجاه تعزيز قوى وغايات مصر من بنائها بالإيمان دولة العلم والرخاء والتقدم ، والتى يتم بها من الحضانة إلى الجامعة مرورا بمعاهد الأزهر الشريف إزالة هذا الانفصال المدمر ، الذى مزق به الاستعمار الشعب إلى طوائف مغتربة فى وطن واحد ، ونعنى به الانفصال فى المناهج والغايات بين التعليم المدنى والتعليم الدينى . هذا مع الاحتفاظ للأزهر بالتخصصات فى اللغة والفقه ، وعلوم القرآن والحديث ، وللجامعة بالتخصصات فى العلوم الطبيعية والتقنيات .

٣ – الأسرة والأمومة : والركن الثالث ، والأوسط ، والذى منحته الدولة قسطا كبيرا من عنايتها ، هو « الأسرة المصرية » هذه الأسرة التى هى « مهد الطفولة » والتى هى النهر العذب لحياة الشعب ، ونمو أجياله ، كما أنها « حصن الأمومة » حيث الأم هى المدرسة الأولى للطفل ، التى يتلقى فيها – وهى تصله بتاريخه وتراثه ، ويتفتح بها إلى حاضره ومستقبله ، أول ما يثبت لينمو فى ذاكرته من أصوات اللغة ، واتجاهات الإيمان ، وإشارات الأخلاق . إن المرأة من حقها فى الإسلام أن تعمل ، ولكن

على أن لا يتعارض عملها مطلقا مع رسالة أمومتها ، فإذا وقع التعارض كان الاختيار الإسلامى دائما للأمومة .

٤ ــ المسجد الجامع : والركن الرابع من هذه الأركان التى يقوم بها « المجتمع المؤمن » هو استعادة رسالة المسجد « الجامع » للمؤمنين بحق رسالته الكاملة ، بوصفه كما كان منذ مسجد الرسول الكريم فى المدينة هو المنارة ، والقلب النابض ، والعقل المرشد ، والأمن السابغ ، والجواب الحاضر ، والصف المستقيم ، فى حياة المسلمين اليومية ، ومن حيث هو بكل أجزاء هذه الرسالة الموحدة ، مركز الحياة السوية بالإيمان فى كل حى ، وكل مدينة ، وكل قرية ، وحيث يتسابق العلماء وأهل الرأى بين جدرانه إلى زكاة العلم ، وزكاة الرأى ، بين عامة المؤمنين ، قربى إلى الله ، لا يسألون عنها أجرا ، وهم مهتدون .

٥ ــ العمارة الإسلامية : وهى الركن الخامس والمتكامل بآثاره الحسية والمناخية والنفسية مع حتمية التصحيح العملى لهذه « العمارة الأوروبية المستوردة » ، والتى اجتهد الاستعمار فى حربه على مقومات الأصالة لمصر ، وهوية وانتماء مصر ، أن يستوردها ، وأن يفرضها على أيدى معماريين أجانب ، إلى أن استحالت مبانى مصر ما بعد الاستعمار أشبه بالرطانة الحجرية ، وبالقوانين الأجنبية ، إذا ما قيست بالمبانى الأثرية للعمارة الإسلامية ، والتى لا تزال باقية فى أحياء مصر الشعبية ، دلالة على طابعها وأصالتها وحرية إرادتها فى التعبير عن طراز عمرانها ، الناطق بلغة دينية ، والنافح بنسمات تاريخية ، والشاهد على مثال شامخ من حرية مصر

فى التعبير عن قوة تجانسها المعمارى مع تاريخها ، وعقيدتها ، ومناخها ، ومواردها .

ولقد سبق للنظام الحاضر بقيادته الوطنية المؤمنة أن خطا خطوة واسعة بالفعل نحو إيقاف هذا العدوان المعمارى الأجنبى ، الذى لا يزال مندفعا بقوة التقليد ، وذلك لاستعادة طابع مصر وتراثها فى طراز للعمارة الإسلامية المعاصرة يتوخى الحفاظ على أصالة الطراز المعمارى الإسلامى المصرى لمبانى القاهرة الحديثة ، وذلك عندما صدر خلال سنة ١٩٧٨ قرار من وزارة الثقافة والإعلام يستهدف المحافظة على التراث المصرى فى الطابع المعمارى المميز للقاهرة ، والحيلولة بذلك دون طغيان الأشكال المعمارية الغربية التى تشوه ملامحها ، وتطمس وجهها التاريخى الجميل .
إن مثل هذا القرار الذى استقبلته مجموعة كبيرة من أساتذة العمارة الإسلامية بالجامعات ، ومن المهندسين المعماريين بالحكومة والشركات العامة بالكثير من الترحيب ، وبالكتابة عنه من جوانبه المختلفة فى الصحف ، هو مقدمة واعدة بالكثير من الخير فى جهد الدولة الموفق لدعم وتأسيس هذا الركن الخامس من أركان صرح المجتمع المؤمن ، إبتداء من تيسير ورعاية هذه الدراسات التى تكشف عن مزايا عمارتنا الإسلامية الأصيلة . وتدرس كيفية استثمار هذه المزايا المتوافقة مع أخلاقنا ومواردنا ومناخنا ، فى مبانى المدن الجديدة ، والمنشآت الحديثة ، وذلك بعد تطويرها ، وتحديثها ، وإزالة العائق الاقتصادى من طريقها ، ودون الإخلال بالناحية الجمالية والتراثية فيها .

التغير للأفضل :

والآن فى تعرضنا لبيان مبادرات كل فرد – كما نتصورها فى الافتراض الثانى – حيث يتجه الشعب إلى أعمال يتحلى بها ، أو يتخلى عنها ، إنتظارا ومشاركة للدولة فيما تقوم به من استكمال بناء هذا المجتمع المؤمن ، الذى تنظم جهودها وتوجهها لبنائه ، نقول إن هذه الأعمال التى سيغير بها الشعب سلوكه من خلال أفراده للانابة إلى الله ، وإلى الدين الحق ، بصدق الإيمان ، وصلاح العمل ، هى بالتحقيق أعمال سيعتصم بحقائقها وهو يقوم بها ، بديلا لأعمال أخرى سيتبرأ من باطلها وغفلاتها وهو يتخلى عنها – وذلك باتجاه التغير للأفضل فى أسلوب وغاية حياتنا فى هذا العصر ، وهو التغير الذى لا يتم إلا باستبدال حق مكان باطل ، وعلم مكان جهل ، ويقين مكان ظن ، ونشاط مكان فتور ، وألفة مكان نفور ، كما وضعت قاعدته هذه الآية الكريمة فى قوله تعالى :

« إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ »
(الرعد : ١١)

والتصور الصحيح لمسيرة هذه الأعمال الصالحة ، التى يجرى استبدالها الدائم بما ينبغى التخلى عنه من الأعمال السيئة هو أن المسئولية عنها ، والقدوة فى نجاحها هى للآباء والأمهات ، متحدين معا على تحقيق هذا التغير الصالح بقوة الإيمان ، ونور الإيمان ، فى نفسيهما ، وفى توجيه أطفالهما ، وفى العلاقات والأسوة التى يقدمانها للمحيطين فى المجتمع بهما.

والبداية الصحيحة كما نراها هى فتح الطريق الذى أغلق طويلا بيننا وبين القرآن الكريم – فى مناهج التربية التى لا تزال تفصل الدين عن الحياة ، وفى اهتمامات الثقافة التى لا تزال تخلط الشرقى بالغربى ، بعيدا عن هذه الثقافة القرآنية الصحيحة التى ننشدها فى أعز مكانة علميـة ومعاصرة لها ، من أجل التنوير إلى أبعد مدى بحقائق الإيمان ، وهداية القرآن .

البداية فى كل أسرة ، وبين الأبوين ، هى العودة إلى حفظ ما تيسر من القرآن ، والاجتهاد فى تدبر معانيه ، من أجل الالتزام بما يهدى إليه ، الأمر الذى يقتضى الاقتراب بالدراسة من اللغة الفصحى ، حتى يتيسر بها تدبر القرآن الكريم ، وعلى أن يشمل ذلك جميع الأسرة برعاية الأبوين ، وفى هذا الارتباط الحيوى والدنيوى والأخروى يقول تعالى :

« إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا »

(الإسراء : ٩)

ويقول تعالى فى آيات كثيرة من سورة القمر تدل على يسر تدبر القرآن والعظة به :

« وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ »

(القمر : ١٧)

ويقول سبحانه فى قيام الليل وهو مستحب لكل قادر :

« فَاقْرأُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْ الْقُرْآنِ » . (المزمل ٢٠)

ويقول تعالى فى نفس الآية وهو يجمع قراءة القرآن إلى أركان العبادة اليومية :

« فَاقْرَأُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ »
(المزمل : ٢٠)

هذه هى شواهد القرآن الكريم عن الركن الأول فى أعمال المؤمنين باتجاه التغير نحو الأفضل ، وهو فقط ما تيسر من القرآن الكريم ، وتحفيظ ما تيسر منه كذلك لكل الأسرة وبخاصة للأطفال منذ قدرتهم على الكلام .

وأما عن الركن الثانى المساند لهذا الركن الأول وهو تعلم العربية « الفصحى » التى تعين على تدبر آيات القرآن الكريم ، مما ييسر الله من تلاوته وحفظه للعظة به، والطاعة لأحكامه، فيقول الله تعالى عنه وهو يجمع بين نزول القرآن الكريم بهذا اللسان العربى المبين وبين نشاط العقل السليم به لتدبره وتذكره :

« إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ »
(يوسف : ٢)

ويقول تعالى مؤكدا نفس المعنى :

« إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ »

(الزخرف : ٣)

أما الركن الثالث فى التزامات هؤلاء المؤمنين من الآباء والأمهات وهم ينشطون بالتغير للأفضل بين أبنائهم ، وذوى قرباهم ، وفى مجتمعهم ، باتجاه المشاركة الواجبة مع الدولة لإقامة « المجتمع المؤمن » فهو إقامة الصلاة فى مواقيتها بقدر ما يتيسر ذلك ، وتنشئة الأطفال من أبنائهم على الإقبال عليها بتحبيبها إليهم وهم الأسوة فيها أمامهم . ومن ذلك تعويدهم صلاة الجماعة بالمساجد كلما تهيأوا لذلك ، فالصلاة هى عماد الدين ، وهى تلخيص للصدق فى إقامة كل فرائضه وأركانه الأخرى ، وهى دلالة الإقبال على كل الصالحات التى يدعو إليها الإسلام ، وعلى مكارم أخلاقه .

وفى الحض على الصلاة وإعظام أمرها فى الإسلام يقول تعالى من بين آيات كثيرة :

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ » (الحج : ٧٧)

ويقول تعالى :

« وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ » (الأعراف : ١٧٠)

ويقول تعالى :

« حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ »
(البقرة : ٢٣٨)

والزكاة هى الركن الرابع فى مجموعة هذه الأركان الخمسة فى حياة هذا الثغر إلى الأفضل بين الآباء والأمهات ، داخل أسرهم النابضة بالإيمان ، والمتسابقة إلى العمل الصالح . فالزكاة بعد الصلاة تعنى الإقبال بحافز الإيمان على مقاسمة ذوى الحقوق فى مال الله بالصدقة والزكاة ، ليصبح ذلك مع الصلاة من عبادة كل يوم .

إن الصدقة والزكاة وهما من معنى واحد فى الدين ليسا فى الحقيقة تفضلا من أحد على أحد ، وإنما هما بالمعنى الشامل للزكاة صورة أخرى من صور الصدق فى الإسلام ، وذلك من حيث أن المؤمن المتصدق إنما يقوم بتطهير مال الله الذى فى يده ، ويزكيه ، حينما يقدمه بالبشاشة والبشر لأصحاب الحق فيه ، وفى معنى هذا التطهير للمال وأصحابه المسئولين عنه يقول تعالى :

« خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ »
(التوبة : ١٠٣)

ويقول تعالى من آيات كثيرة تقترن بها الزكاة بالصلاة حتى لكأنهما الدلالة العامة على الإسلام :

« ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَاةَ وَهُم بِٱلْآخِرَةِ يُوقِنُونَ » (لقمان : ٤)

ويقول تعالى فى هذا المعنى بنص محدد بالنسبة لمن ارتدوا ثم عادوا إلى الإسلام :

« فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا ٱلصَّلَاةَ وَآتَوُا ٱلزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِى ٱلدِّينِ» (التوبة : ١١)

هذا ولا شك أن من آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، ثم حافظ على إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة ، فإنه لن يتردد مع القدرة فى صوم رمضان ، ولن يتأخر مع الاستطاعة عن الحج إلى بيت الله .

وأما عن الركن الخامس فى قواعد هذا التغير نحو الأفضل فى حياة هؤلاء الآباء والأمهات المؤمنين فهو توثيق أواصر الأسرة بنفسها ، ثم بالمجتمع من حولها ، فى ضوء حقائق الإيمان وقوة حوافزه .

أما أواصر الأسرة فيما بين الآباء والأمهات وأبنائهم فهى تقوم على أن البر بالوالدين يأتى فى الدرجة الثانية بعد الإيمان الصادق بالله ، وفى هذا يقول تعالى :

« وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا » (الإسراء : ٢٣)

وتزداد وصية الله فى كتابه الكريم بالأمهات وهو يرفعهن فى الوصية ببر الوالدين درجة فوق الآباء ، وفى ذلك يقول تعالى :

« وَوَصَّيْنَا الإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْراً » (الأحقاف : ١٥)

كذلك فقد أوصى الله فى توثيق أواصر الأسرة بالإيمان بأن يحسن الآباء والأمهات تنشئة وتربية أبنائهم ، وقد وضع سبحانه الأمانة بهذا على عاتق الآباء ، وفى هذا المعنى يقول سبحانه امتدادا للآية السابقة :

« حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِى أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِى أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَى وَالِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِى إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّى مِنَ الْمُسْلِمِينَ » (الأحقاف : ١٥)

ثم تمتد الأمانة والجهود بهدى الإسلام فى توثيق أواصر الأسرة فتخرج عن نطاق الأبناء إلى ذوى القربى فيوصى الله ببرهم ، وبإيتائهم حقوقهم كما شرعها الله بالإسلام ، كما يوصى بالأقرب من الأسرة صلة ممن حولهم من اليتامى والمساكين ، ومن الجار القريب ومن يليه ، وفى هذا المعنى يقول تعالى فى صفة المؤمن :

« وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِى الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ » (البقرة : ١٧٧)

ويقول أيضاً من الوصية بهم وهو يقرن إيتاءهم حقوقهم بمعنى العدل والإحسان وأمر الله بهما :

« إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِى الْقُرْبَى »
(النحل : ٩٠)

ويقول تعالى فى الوصية بالجار بدرجات قربه :

« وَالْجَارِ ذِى الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ »
(النساء : ٣٦)

ومن هؤلاء المحيطين بالأسرة والملامسين لها تمتد وصية الله للمؤمن ، كما ينبغى أن يتدبرها هؤلاء المؤمنون من الآباء والأمهات فى تغيرهم بأعمالهم وأقوالهم وأخلاقهم نحو « الأفضل » إلى الناس جميعا فى المجتمع الكبير ، بكل ما يتوفر لهم من قدرات ومبادرات ووسائل ، وفى هذا يقول تعالى وهو يوصى بمحاسنة الناس ، ويقرن ذلك بلب الإسلام من عباداته وأركانه الظاهرة فى الصلاة والزكاة :

« وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ »
(البقرة : ٨٣)

ويقول تعالى فى إيثار الكلمة الطيبة ، والعمل الحسن ، بما تذوب معه العداوات ويستقر السلم والود :

« ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ » (فصلت : ٣٤)

كلمة التقوى :

ومرة أخرى نعود فى الإجابة عن هذا السؤال الثالث فنفتح الطريق أمام من تشوقهم المبادرة إلى التحلى بالأعمال الصالحة ، والتخلى بذلك عن الأعمال السيئة ، مما تسرب إلينا من هذه السيئات فلم نفطن إليه ، وما تشابه علينا حلاله وحرامه فلم نستوضحه . وذلك بأن نحدد نقطة الانطلاق إلى هذا الجهد الكريم فى عمل كل مؤمن ، وهى كما حددها القرآن الكريم فى الكثير من آياته ظاهرة وجلية فى كلمة التقوى .

والتقوى فى القرآن الكريم واحدة من كلماته العربية الكثيرة التى ليس لها بجوامع معانيها مقابل فى أى لغة من اللغات الأخرى ، وهى فى معناها العام تعنى أن المؤمن الصادق « يتقى » من خشية الله كل ما نهى الله عنه من المنكر ، أى أنه بهذه الخشية ينتهى ويبتعد عما نهى الله عنه ، وبذلك لا يكون أمامه بعد ذلك من طريق يسلكه إلا طريق الحق والخير والمعروف الذى أمر الله به .

بذلك أصبحت كلمة « التقوى » كلمة جامعة لحقيقة « الإسلام » كله ، وهى تشرق بين آيات الله بهذين الركنين المتلازمين دائماً : الانتهاء عن المنكر وبذلك يكون القيام بالمعروف . ومن هنا تنطلق الأعمال الصالحة بقوة وهدى الإيمان الصادق ، حيث يتزكى الإنسان مع إيمانه بخشية الله ، وحيث يقبل مع خشيته على طاعة الله .

وفى بيان معنى التقوى فى حقيقتها الجامعة للإسلام الخالص ، فى منهج حنيفيته للتفكر والعمل ، يقول تعالى من آيات كثيرة يعرض فيها القرآن الكريم لوجوه الحقائق فى دلالة هذه الكلمة المبينة :

« وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ »
(البقرة : ١٩٧)

ويقول تعالى :

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُم مُّسْلِمُونَ » . (آل عمران : ١٠٢)

ويقول تعالى :

« إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ » .
(الأنفال : ٣٤)

ويقول تعالى :

« إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ » . (الأعراف : ١٢٨)

ويقول تعالى فى أن هذه التقوى بمعناها الجامع فى الإسلام هى منطلق العبور إلى النصر بكل قوى المؤمن ، فوق كل الشدائد المحيطة به ، كما كان ذلك شأن المجاهدين الأوائل مع رسول الله فى حربهم للشرك من أجل جمع الكلمة على الإسلام :

« وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا » .

(الفتح : ٢٦)

التقوى إذن لمن يتقون الله من الصادقين ، هى نقطة الانطلاق ، وقوة الفهم ، وقدرة العبور إلى الحق والنصر ، فوق كل الشدائد ، لكل هؤلاء الذين يريدون أن يتزودوا فى تقربهم إلى الله بالأعمال الصالحة ، وأن يتخلوا بذلك وفى نفس الوقت عما يقابلها من السيئات ، تثبيتا لقلوبهم ، وزيادة فى إيمانهم ، وأسوة حسنة فى سبيل الله لمن حولهم .

ما نتخلى عنه وما نتزود به :

وفى تمام الإجابة عن هذا السؤال نقدم من كتاب الله الحكيم عددا من « وصاياه » تعالى لعباده المؤمنين حول هذه الأعمال الصالحة التى يأمرهم بالتحلى والتزود بها، وتلك الأعمال السيئة التى يأمرهم بالابتعاد والتخلى عنها ، وذلك فى ثلاث سور من القرآن الكريم هى « الأنعام » و « الإسراء » و « الفرقان » . .

أولا — يقول تعالى فى سورة الأنعام من هذه « الوصايا العشر » الصريحة :

« قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِّنْ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ

وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِى حَرَّمَ اللهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ * وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَبِعَهْدِ اللهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ * وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِى مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوه وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ * ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِى أَحْسَنَ وَتَفْصِيلاً لِكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ * وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ » (الأنعام : ١٥١ ، ١٥٥)

هذه الوصايا العشر فى هذه الآيات الكريمة نوجزها كما أوصى الله المؤمنين بها فيما يأتى :

١ — لا تشركوا بالله .

٢ — أحسنوا البر بالوالدين .

٣ — لا تقتلوا أبناءكم خشية الفقر ، وكيفما كانت طريقة هذا القتل الذى أصبح فى هذا العصر باستخدام أسلحة منع الحمل .

٤ — لا تقربوا الفواحش جميعها .

٥ — لا تقربوا مال اليتيم إلا برفق .

٦ ـ أوفوا الكيل والميزان .

٧ ـ أبلغوا الشهادة بالحق على وجهها .

٨ ـ أوفوا بعهد الله .

٩ ـ لا تتبعوا الملل والنحل والمذاهب التي ابتعدت عن صراط الله المستقيم حتى لا تتفرقوا بها عنه وهو الحق .

١٠ ـ عليكم بكتاب الله المبارك تدبراً واتباعاً فهو هدى ورحمة لكم.

ولقد شاء الله فذكر موسى فى هذه الآيات ، وذكر ما أنزل عليه من الكتاب ، ليذكر بنى إسرائيل بذلك بما حملته ألواح التوراة من « الوصايا العشر » كما جاء فى سفر الخروج الاصحاح العشرين من عدد ١ إلى عدد ١٧ وليعلموا أن ما يوصى الله به عباده من الوصايا فى هذا القرآن المبارك هو فى هذه الآيات وفى غيرها أكثر شمولا فى هداية المؤمنين ، وأبعد أثرا فى صلاحهم وتقواهم .

ثانيا ـ يقول تعالى فى سورة الإسراء من هذه الوصايا الخمس عشرة :

« وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاَهُمَا فَلاَ تَقُلْ لَّهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُما وَقُلْ لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ۝ وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ۝ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِى نُفُوسِكُمْ إِن تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ

غَفُوراً * وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ
تَبْذِيرًا * إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ
لِرَبِّهِ كَفُورًا * وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا
فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا * وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ
وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا * إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ
الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا * وَلَا
تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ
كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا * وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ
سَبِيلاً * وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَن قُتِلَ
مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلَا يُسْرِفْ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ
مَنْصُورًا * وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى
يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا * وَأَوْفُوا الْكَيْلَ
إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً *
وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ
أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا * وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن
تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا * كُلُّ ذَلِكَ كَانَ

سيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا . ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللهِ إِلَهًا آخَرَ » (الإسراء : ٢٣ ، ٣٩)

هذه الوصايا الخمس عشرة التى بدأها الله وختمها بوصية الإيمان به وحده بغير شريك نوجزها فيا يأتى :

١ — لا تعبدوا إلا الله وحده .

٢ — أحسنوا البر بالوالدين .

٣ — آتوا ذا القربى والمسكين وابن السبيل حقوقهم .

٤ — لا تبذروا فى أموال الله بأيديكم فأنتم مسئولون عنها أمامه .

٥ — إذا لم تجدوا ما تقدمونه لذوى القربى فأحسنوا الاعتذار إليهم حتى يأتيكم رزق الله .

٦ — اجتنبوا الشح والتقتير .

٧ — لا تقتلوا أبناءكم خشية الفقر ولو كان ذلك بسلاح منع الحمل الخفى .

٨ — لا تقربوا الزنا المدمر لطهارة المجتمع وقوة أواصره .

٩ — لا تقتلوا النفس التى حرم الله إلا بالحق .

١٠ — لا تسرفوا — إن كنتم أصحاب القصاص — فى الثأر لإطفاء العداوات.

١١ — لا تقربوا مال اليتيم إلا مترفقين به وبما يصلح به أمره .

١٢ — أوفوا العهد فأنتم محاسبون عنه .

١٣ — أوفوا بالكيل والميزان فذلك حق الله .

١٤ — اجتنبوا « التفلسف » غير المجدى والفضول فى القول، فإن أعمال حواسكم واستثمارها فى العلم اليقينى والعملى رزق من الله تحاسبون عنه .

١٥ — إياكم والغرور القاتل ، وتوهم الزيادة بشيء فوق الناس فى الخلق . ذلك أنه مهما أوتى أحدكم من قوة فإنه لن يخرق الأرض بقدمه، ولن يبلغ الجبال طولا برأسه .

ثالثا — يقول تعالى أيضاً فى سورة الفرقان من هذه الوصايا الخمس عشرة كما يعرضها الرحمن فى صفات عباد الرحمن :

« وَعِبَادُ الرَّحْمٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهم الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا • وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا • وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا • إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا • وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا • وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللهِ إِلٰهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِى حَرَّمَ اللهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا • يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا • إِلاَّ مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللهِ مَتَابًا • وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا • وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا • وَالَّذِينَ

يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِن أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا • أُولَٰئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا . خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا »

(الفرقان : ٦٣ ، ٧٦)

هذه الوصايا الخمس عشرة كما قدمها الله سبحانه فى صورة الأسوة الحسنة من الأعمال الصالحة – أداء وتجنبا – فى حياة صفوة المؤمنين المخلصين من « عباد الرحمن » نلخصها فى صفاتهم وأخلاقهم كما نصت عليها الآيات الكريمة كما يأتى :

١ – إنهم غير المتكبرين فى الأرض .

٢ – وهم الذين إذا جادلهم أهل الجهل والكبر أجابوهم بالكلمة الحسنة التى لا تشعل عداوة .

٣ – وهم الراكعون الساجدون لله ، بعد فرائض الصلاة ، أداء لحق قيام الليل له .

٤ – والذين لا تفارقهم صورة اليوم الآخر ، وخشية عذاب جهنم ، ليذكروا الحساب والجزاء .

٥ – والذين لا يسرفون فى مال الله بأيديهم .

٦ – والذين لا يقترون ، لأن فى هذا المال حقوقاً واجبة الأداء لأصحابها .

٧ – والذين لا يشركون بالله أحدا .

٨ – والذين لا يقتلون النفس التى حرم الله قتلها .

٩ — والذين لا يزنون ، ويستبشعون هذا الإثم المدمر لطهارة الجماعة وأواصرها .

١٠ — والذين يعرفون أن طريق التوبة إلى الله مفتوح دائما برحمته أمام المؤمنين ليرجعوا به إلى الصراط المستقيم .

١١ — والذين يتبرءون من الزيف والزور ولا يشهدون إلا بالحق .

١٢ — والذين إذا مروا بأهل اللغو فى مجالسهم ترفعوا عن اللغو ولم يشاركوهم فيه .

١٣ — والذين إذا سمعوا آيات الله تتلى عليهم لم يدعوها تمر بهم دون تدبر جديد ووعى جديد ، ليعملوا ويحسنوا العمل بها ، إنهم لا يصمون آذانهم وعقولهم عنها اكتفاء بأنهم تدبروها من قبل وصدقوا بها .

١٤ — والذين ينشئون أبناءهم على طاعة الله ، وأخلاق القرآن ، وحب الإيمان ، وهم يدعون الله أن يجعل لهم من هؤلاء الأبناء بصحة إسلامهم قرة أعين لهم .

١٥— والذين يسألون الله بما أحسنوا فى طاعته ، وما تطهروا به له فى حبه ، وما صدقوه القول والعمل فى إخلاص الإسلام إليه — أن يجعلهم فى كل أعمالهم الصالحة هذه أسوة حسنة باقية ومرشدة لغيرهم .

الأسوة الحسنة :

ثم نحمد الله ، ونختم هذه الإجابة ببيان ما أوضحه القرآن الكريم من أن الميزان الدقيق للحكم على الأقوال والأعمال الصالحة فى سعى المؤمنين

والمؤمنات إلى الله ، هو قيامهم فى حدود قدراتهم وظروفهم بالدعوة إلى الله ، إيمانا به وطاعة له ، دعوة غايتها الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وبرهان صدقها هو فى إشراق هذه الأسوة الحسنة التى يقدمها هؤلاء المؤمنون العاملون الصادقون لمن حولهم، بشهادة أقوالهم ، ودلالة أعمالهم ، وفى مثل هؤلاء الدعاة المؤمنين الصادقين يقول تعالى عن أبرز صفتين من صفاتهم توجبان اتباعهم على الحق ، والتأسى بهم فيه :

« اتَّبِعُوا مَن لَّا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ».

(يس : ٢١)

ويقول تعالى أيضاً فى صفة هؤلاء المؤمنين الصادقين :

« وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَا إِلَى اللهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ الْمُسْلِمِينَ » (فصلت : ٣٣)

ويقول تعالى فى الحض على الدعوة الصادقة ، غير المأجورة ، ابتغاء وجهه :

« وَلْتَكُنْ مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ »

(آل عمران : ١٠٤)

ويقول سبحانه فى دعوة المؤمنين والمؤمنات معا إلى حمل أمانة هذه الدعوة الخالصة إلى الله بين المؤمنين :

« وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ » .

(التوبة : ٧١)

ويقول سبحانه وتعالى فى أفضل وأكرم أسوة لا تزال بنعمة الله حية وناطقة بين المسلمين فى كتابه المبين :

« لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللهَ كَثِيرًا » .(الأحزاب : ٢١)

صلى الله عليه وسلم ، والحمد لله كثيراً ،وسبحان الله بكرة وأصيلا .

* * *

القسم الرابع

القرآن الكريم
واللغة العربيّة

يجيب عنه

الدكتور محمد رشاد خليل

استاذ الثقافة الاسلامية
بكلية التربية بجامعة الرياض

السؤال الأول :

— ماذا تعلمه من خصائص اللغة العربية التى جعلتها بين جميع لغات العالم هى اللغة التى نزلت بها كتب الله وشرائعه ؟

— وما هى العوامل التى ترى أنها ساعدت العرب على ارتقـاء هذا اللسان العربى حتى تم بيانه ، بحيث أصبح أهلا لينزل به وحى الله ، وشرعه ، ونوره ، فى القرآن الكريم ، وليبقى هذا القرآن بعد ذلك منارة الاسلام فى الأرض ، وحجة الله على الشرك والبغى والالحاد ؟

الإجابة :

هذا السؤال يتكون من شقين : الشق الأول يتعلق بخصائص اللغـة العربية . والشق الثانى يتعلق بعوامل ارتقاء هذه اللغة .

ونبدأ بالإجابة عن الشق الأول وهو : خصائص اللغة العربية فنقول : إن خصائص اللغة العربية هى نفسها خصائص الفطرة الإلهية ، فى الجهاز الصوتى الإنسانى ، وفى تكوين العقل والنفس الإنسانية على أساس هذه الفطرة الإلهية للإنسان الذى خلقه الله فى أحسن تقويم .

ولما كان الإسلام هو دين الفطرة التى فطر الله الناس عليها نزل وافيا من عند الله بحاجات هذه الفطرة ، مصححا لما أصابها من انحراف ، مكملا لما يطرأ عليها من نقص ، لذا كان اللسان العربى هو أصلح الألسنة للوفاء بحاجات هذا الدين ، لأنه اللسان الذى استقام على أساس فطرة الإنسانية ، واستوفى كل حاجات الدين المقوم لهذه الفطرة .

تناقض فى تعريف الفطرة :

وأحب أن أنبه إلى أن مفهوم الفطرة ظهر بمفهومين متناقضين بين البشر ، وهذا التناقض يشكل وجهتى نظر متباينتين أشد التباين فى تراث الفكر الإنسانى فى أصل الإنسان وأصل العالم ، وهذا التناقض يشكل الفارق بين عالمين هما : عالم الإسلام وعالم الكفر ، أو عالم الدين وعالم الفلسفة ، أو عالم التوحيد وعالم الوثنية .

المعنى الصحيح للفطرة :

والمعنى الأول والصحيح للفطرة يبدأ مع الإنسان الأول ثم يستمر عبر كتب الله وأنبيائه من خلال الأمة العربية المسلمة موصولا من آدم أبو البشر وأول الأنبياء إلى محمد أفضل البشر وخاتم الرسل والأنبياء .

ومما يؤكد على أن اللغة العربية هى اللغة التى استمر فيها تراث الفطرة الإنسانية المستقيمة ، كما استمر فيها تراث الدين الحق الذى تواترت به الأنبياء على أرض العرب ، أن يكون معنى الفطرة فى العربية هو نفسه المعنى الذى نزل به القرآن وختم به الدين .

الفطرة فى اللغة العربية وفى الإسلام :

ولسنا فى حاجة إلى بحث تاريخى مستفيض لنضع أيدينا على هذه الحقيقة التاريخية الكبيرة التى تقول بأن اللغة العربية هى مستودع الدين الحق الذى حافظ عبر العصور على سلامة هذا الدين فى أصوله الأساسية من التحريف والتبديل ، وإنما يكفى أن نقارن بين مفهوم الفطرة فى اللغة العربية وفى القرآن لتتأكد لنا هذه الحقيقة بجلاء .

فالفطرة فى اللغة العربية معناها (الشق) جاء فى اللسان : فطر الشيء يفطره فطراً فانفطر ، وفطره شقه ، وتفطر الشيء تشقق، والفطر الشق ، وفى التنزيل :

« هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ » . (الملك : ٣)

وأنشد ثعلب :

شققت القلـب ثم ذررت فيـه هواك فـليم فالتـأم الفطـور

وفطر الله الخلق يفطرهم ، خلقهم وبدأهم ، والفطرة : الابتـداء والاختراع ، وفى التنزيل العزيز :

« الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ » .

(فاطر : ١)

قال ابن عباس رضى الله عنهما : ما كنت أدرى ما فاطر السموات والأرض حتى أتانى أعرابيان يختصمان فى بئر فقال أحدهما : أنا فطرتها ، أى أنا ابتدأت حفرها . .

والفطرة ما فطر الله عليه الخلق من المعرفة به . . وقال أبو الهيثم : الفطرة ، الخلقة التى يخلق عليها المولود فى بطن أمه ، وفى الحديث : « كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه ، كما تنتج البهيمة وليدة جمعاء ، هل ترى فيها من جدعاء » والجمعاء السليمة الخالية من العيوب ، والجدعاء ، ما قطع منها طرف . . ومما ورد فى أقسام العرب قبل الإسلام : لا وفاطر الأشباح ، أى الأشخاص .

الفطرة والخلق :

وقد ارتبط معنى الفطرة فى العربية بمعنى الخلق ، والفاطر هو الخالق ، وفاطر العالم وخالقه هو الله تعالى ، فالله فى لغة العرب وفى علمهم المطابق لعلم الكتاب هو فاطر العالم وخالقه ، وصانعه ، ومصوره ، ومنشئه ، ومحدثه ، ومبدعه .

يقول قيس بن الخطيم فى الخالق المصور :

قضى لها الله حين صورها الخالق ألا يكنها سدف

الديوان ص ٣٩

ويقول سويد بن أبى كاهل اليشكرى فى الصانع :

قد كفانى الله ما فى نفسه   وصنيع الله والله صنع

مفضليات ص ٤٨٨

ويقول الأعشى فى الله المنشىء الفعال :

والأرض حمالة لما حمل الله   وما إن ترد ما فعلا

أنشا لها الخف والبراثن والحا   فر والأعصم الوعلا

الديوان ص ١٣١

• • •

الخلق فى العربية :

ويأتى معنى الخلق فى العربية مطابقاً تماما لمعنى الخلق فى القرآن ، جاء فى اللسان : الخلق التقدير ، يقول زهير : ولأنت تفرى ما خلقت ، وبعض القوم يخلق ثم لا يفرى ، ومعنى تفرى ما خلقت : أى تنجز



ما قدرت على أحسن وجه ، وخلق الله الخلق خلقا أحدثه بعد أن لم يكن وفق تقديره . . وتقول العرب حدثنا فلان بحديث الخلق ؛ وهى الخرافات والأحاديث المفتعلة ، ورجل خالق أى صانع ؛ والعالم : الخلق .

والله عند العرب يخلق بمقتضى المشيئة والأمر ، ومن أعجب الأشياء أنهم اشتقوا اسما للعالم المخلوق من المشيئة الإلهية فقالوا : شىء ، من المشيئة ، والجمع أشياء ، وشَيَّأ : خلق .

والْمُشَيِّئُ هو الله تعالى . .

ومشيئة الله فى العربية لا تحدها حدود ، ولا تقيدها قيود ، ولايشترط لها شروط ، وذلك مطابق لقوله تعالى :

« إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُون »

(يس : ٨٢)

ومما يطابق ذلك الأصل قول طرفة :

فلو شاء ربى كنت قيس بن خالد

ولو شاء ربى كنت عمر بن مرثد

مختار الشعر جـ ١ ص ٢٣٤

ومما يؤكد أن العرب قد قصدوا فى معنى خلق الله للعالم : أنه الخلق ابتداء من غير مادة سابقة قديمة وأزلية كما هو اعتقاد الوثنيين الدهريين من الفلاسفة والزنادقة . من غير العرب أمران :

الأول : هو أن الله تعالى قد حكى عقيدة العرب فى الخلق ، ولم ينكر

عليهم فيها ، كما أنكر عليهم شركهم ، قال تعالى فى حكايته عقيدة العرب فى أصل العالم .

« ولَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ . . . » (لقمان : ٢٥)

الثانى : هو احتجاج القرآن الكريم على العرب بنفس اعتقادهم ، قال تعالى :

« أَوَ لَيْسَ الَّذِى خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ . . »

(وذلك هو اعتقاد العرب) .

« بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ » .

(وتلك هى حجته على منكرى البعث منهم) .

« بَلَى وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ • إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ » (يس : ٨١ ، ٨٢)

الدهريون العرب :

لقد توهم جواد على فى كتابه : تاريخ العرب قبل الإسلام ، أن العرب قد عبدوا إلها اسمه « الدهر » قبل الإسلام ، واستدل على ذلك بمثل قوله « يد الدهر ، وريب الدهر ، وعدواء الدهر » وهذا وهم ظاهر البطلان من مقتضى ما أوردناه من معنى الفطرة والخلق عند العرب ، ومن تأكيد القرآن على أن عقيدة العرب هى الإيمان بالله وحده خالقا ، ذلك أن القرآن لم ينسب إلى العرب قط شركا فى الربوبية : أى شركا فى

الخلق والتدبير ، وإنما نسبوا إليه شركا فى الألوهية أى شركا فى العبادة ، ذلك لأن العرب لم ينسبوا إلى الآلهة التى عبدوها من دون الله قدرة على الخلق والأمر ، وإنما عبدوها كوسائط وشفعاء لهم عند الله المنفرد وحده بالخلق والأمر ، وذلك ما سجله القرآن بنصوص قاطعة فى مثل قوله تعالى :

« وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللهِ » . (يونس ١٨)

وقوله :

« مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللهِ زُلْفَى » .

(الزمر : ٣)

الدهرية عند العرب :

تختلف الدهرية عند العرب عن الدهرية الإغريقية اختلافاً أساسياً ، ذلك أن الدهرية الإغريقية تعنى أن للدهر سلطانا حاكما حتى على الآلهة الوثنية نفسها ، كما سجلت ذلك الأساطير والدراما الإغريقية ، أما الدهرية عند العرب فإنها تعنى الهلاك بسنة الدهر ، وقد تردد ذلك المعنى كثيرا فى شعرهم ، يقول الأعشى :

فإن دوائر الأيـــام يفــــــــنى تتابع وقعها الذكر الحساما

الديوان ص ١٩٠

ويقول طرفة بن العبد فى معلقته :

أرى العيش كنزا ناقصا كل ليـــلة

وما تنقص الأيام والدهـر ينفــد

ويقول أبو كبير :

أخلا وإن الدهر مهـــلك من ترى

من ذى بنين وأمهم من أبـــنم

والدهـــر لا يبـــقى عــلى حــدثانه

قب يرود بذى شجون مـــبرم

ديوان الهزليين ص ١١٠

وقد حكى القرآن الكريم عقيدة العرب فى الدهر ، قال تعالى :

« وَقَالُوا مَا هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلاَّ الدَّهْرُ وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلاَّ يَظُنُّونَ »

(الجاثية : ٢٤)

لقد أنكر الدهريون العرب الحياة الآخرة على أساس من قياس خاطىء ، نبههم القرآن إليه ؛ ذلك أنهم لما رأوا أن الميت لا يعود أبداً ، ظنوا ظنا خاطئا ، أن الميت لا يبعث أبداً قياساً على ذلك ، ولم يكن ذلك الإنكار شكا منهم فى قدرة الله ، وإنما كان ذلك مبلغهم من العلم ، وكانوا حتى وقت إنكارهم للآخرة لا يؤمنون بأن محمدا صلى الله عليه وسلم رسول من عند الله ، ولا يؤمنون بأن ما يتلوه عليهم وحى من الله ، فالإنكار منهم هو لادعاء محمد صلى الله عليه وسلم أن هناك حياة آخرة ، وليس إنكارا لوحى الله ، أو إنكارا لقدرته .

والدهر فى اعتقاد العرب هو الحركة المطردة الدائمة التى يجرى عليها نظام العالم كما خلقه الله ، ويجرى بمقتضاهافناء الأحياء وهلاكهم كما قدر

الله ، فالفعال فى اعتقادهم هو الله وحده ، وليس الدهر ، وإنما الدهر عندهم هو سنة الله فى الإهلاك ، وفى الحياة والموت ، لأن الدهر عندهم هو الزمن الدوار ، يقول قيس بن الخطيم :

يود المرء ما تعـــد الليـــالى   وكان فناؤهن لـه فنـــاء
كذاك الدهـــر يصرف حالتيه   ويعقب ظلمة الصبح المساء

الديوان ص ٧٧

وقد نسب زهير الإهلاك إلى الله وحده حين أراد أن يتحدث عن الفعال على الحقيقة ، وهو الله تعالى فقال :

ألم تـر أن الله أهـــلك تبعـا
وأهـلك القمان بن عاد وعاديـا
وأهلك ذا القرنـين من قبل ما ترى
وفرعون أردى عنـده والنجاشيا

ش الديوان ص ٢٨٨

• • •

الفطرة فى الفكر الأوروبى :

تعنى الفطرة فى الفكر الأوروبى عبر تاريخه الطويل (الطبيعة) ، والطبيعة عندهم تقابل الخلق فى العربية وفى الإسلام ، وشىء طبيعى صنعته الطبيعة بمقتضى قوانينها الذاتية .

والقول بالطبيعة يمثل تاريخ الفكر الأوروبى من أوله إلى يومنا هذا ، وقد عرف الفكر الإغريقى الطبيعيين الأولين من أمثال طاليس ،

وانكسيمندريس وأنكسيانس ، وهرقليطس الذى نقل عنه أرسطو قوله : إن الله نار لطيفةحالة فى العالم تدبره وتديره ، ولكنها لم تخلقه ، فالعـالم لم يصنعه أحد من الآلهة أو البشر . .

وقد ذهب الطبيعيون المتأخرون منهم إلى القول بأن الآلهة والنفوس تتكون كما تتكون الأشياء الفاسدة ، كما ذهب ديموقريطس إلى القول بأن كل شيء امتداد وحركة فحسب . .

وقد اتفق الفلاسفة المثاليون مثل سقراط وأفلاطون وأرسطو مع الطبيعين فى عقائدهم الأساسية مع محاولتهم التأكيد على الآلهة ولكن فى صورة وثنية .

• • •

التطور والطبيعة :

ولقد هلل المفكرون الغربيون المحدثون للقول بمبدأ التطور ، وحسبوا أنهم قد اهتدوا إلى التفسير الصحيح ، مع أنهم لم يخرجوا قط عن تراثهم الوثنى فى القول بالطبيعة وقدم العالم ، إن عقولهم لم تستطع أن تستوعب الحقيقة الوحيدة الصحيحة التى جاءتهم عن طريق المسيحية ، وهى القول بالإله الخالق المدبر ، وحسبوا أنهم حين رفضوا المسيحية ، ورفضوا ما جاءتهم بهم من القول الحق فى الإله الخالق قد حرروا فكرهم من الخرافة والأسطورة ، مع أن الذى حدث هو ارتدادهم أكثر فأكثر إلى عالم الخرافة والأسطورة الإغريقى :

• • •

التطور فى اللغـة العربية :

وتسجل اللغة العربية التى احتفظت بعلم الدين الحق مدى امتياز التراث العربى عن التراث الإغريقى والغربى حين ترفض مفهوم التطور الوثنى فى الاصطلاح العربى ، وتأباه اصطلاحا واشتقاقا ودلالة . والعربيـة لا تعرف فى أصولها واشتقاقاتها ذلك الاصطلاح الوثنى الذى هلل لـه الغرب ، وحاول المستغربون من العرب فرضه قسرا على اللغة العربية .

إن مصطلح التطور بمفهومه الغربى الحديث هو اصطلاح منحرف عن أصل الفطرة المستقيمة ، وكل اصطلاح منحرف عن أصل الفطرة المستقيمة هو اصطلاح باطل عربيا وإسلاميا . .

والتطور مأخوذ فى الاصطلاح الحديث من مادة (طور) العربية ، وهو اشتقاق خاطىء لم تعرفه العربية قط فى أى عصر من عصورها ، وهى ترفضه وتلفظه لأنه لا يستقيم مع أسلوبها فى الاشتقاق .

ووجه الخطأ فى هذا المصطلح ، هو أنه يضيف إلى مادة (طور) العربية مفهوماً لا تعرفه بل تأباه وتنكره ، وهذا المفهوم هو : الإيجاد والإنشاء . .

والإيجاد والإنشاء فى العربية له أصول مختلفة ليس منها أبدا مادة (طور) ذلك أن (الطور) فى العربية هو الحالة والتارة ، والأطوار هى الحالة بعد الحالة ، جاء فى اللسان : « الطور : التارة ، تقول طورا بعد طور ، أى تارة بعد تارة ، قال الشاعر فى وصف السليم (والملدوغ) الذى تعاوده حمى السم : تراجعه طوراً ، وطوراً تطلق .

قال ابن برى : صوابه هو : تطلقه طورا ، وطورا تراجع .

وجمع الطور : أطوار ، والناس أطوار أى أخلاق على حالات شتى ، قال الله تعالى : وقد خلقكم أطوارا ؛ معناه : ضروبا وحالات مختلفة .

وقال ثعلب : أطوارا : أى خلقا مختلفة ، كل واحدة على حدة ، وقال الفراء : خلقكم أطوارا ؛ أى نطفة ثم علقة ثم مضغة ثم عظما . .
وقال الشاعر : والمرء يخلق طورا بعد أطوار .

فمعنى الطور فى العربية لا ينصرف بتاتا إلى الخلق والإنشاء أو الابتداء ، وإنما ينصرف إلى الحالة التى يكون عليها الخلق أو الإنشاء . . .

وقد لبس واضعو الاصطلاح الحديث وهم من أنصار مذهب دارون على المسلمين لغتهم ودينهم ، حين زوروا هذا المعنى المغلوط الذى لا تسمح به العربية فى مادة (طور) حين نقلوا على غير قاعدة معنى الطور إلى معنى الإنشاء والابتداء ، ثم زادوا الأمر إفسادا وتلبيسا حين صرفوا الطور تصريفا جديدا على غير أصول العربية فقالوا : (تطور ، يتطور ، متطور) بمعنى نشأ ثم تدرج ، فى درجات بعضها فوق بعض ، وهذا ما لا تعرفه العربية فى هذه المادة ؛ وإنما عرفت طوار ، بمعنى حذاء أو جوار ، وعرفت يطور بمعنى : يقرب ويحوم ، يقال فلان لا يطورنى أى لا يقرب طوارى أى بنائى . وفلان يطور بفلان : أى كأنه يحوم حواليه ويدنو منه ، ويقال لا أطور به أى

لا أقربه ، وفى حديث على رضى الله عنه : والله لأطور به ما سمر سمير . أى لا أقربه أبداً .

ومن معانى الطور الحد بين الشيئين ، وعدا طوره : أى جاوز حده وقدره .

• • •

ومن هذا ترى أن مادة (طور) العربية لا علاقة لها من قريب أو بعيد بالإيجاد والإنشاء ، ثم التدرج من البسيط إلى المركب إلى الأكثر تركيباً ، وهو صلب مفهوم التطور الحديث بمفهوم نظرية دارون .

التطور ضد الخلق والفطرة :

والتطور فى الاصطلاح الحديث إلى جانب كونه غريبا على العربية اشتقاقاً فهو غريب عنها معنى ودلالة ، فالكلمات : فطر وخلق وصنع وبرأ وذرأ وأبدع وصور لا تنصرف فى اللغة العربية ــ حين يراد بها الإحداث والإيجاد والإنشاء فى العالم ــ إلا إلى الله كما سبق القول . وعلى ذلك يكون اصطلاح التطور الخاطئ اشتقاقاً ودلالة هو اصطلاح مقابل ومضاد للخلق والفطرة لغة وإسلاما ، وهو بذلك اصطلاح منحرف عن أصل الفطرة الإنسانية المستقيمة يريد أن يحل الطبيعة المخلوقة محل الإله الخالق .

• • •

خصائص اللغة العربية هى خصائص الفطرة :

مما سبق يتضح معنى قولنا إن خصائص اللغة العربية هى نفسها خصائص الفطرة الإلهية فى الجهاز الصوتى ، وفى التكوين العقلى والنفسى ، وتفصيل ذلك هو أن اعتقادنا كمسلمين أن الله تعالى قد خلق الإنسان فى أحسن تقويم ، أى خلقه تاما وافياً فى عقله وفى بدنه، صالحا لممارسة المهام التى كلفه الله بها بمقتضى العهد الإلهى . .

العهد والفطرة :

وأساس العهد الإلهى هو قوله تعالى :

« وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِى آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ »

(الأعراف : ١٧٢)

والعهد هو الفطرة ، والفطرة هى الحنيفية كما جاء فى قوله :

« فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللهِ الَّتِى فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ »

(الروم : ٣٠)

الفطرة وافية بالحاجة الإنسانية من أصل الخلقة :

وقد خلق الله تعالى آدم وعلمه الأسماء كلها ، وأعطاه عقلا وسمعا وبصرا وهداه إلى الطريق المستقيم وأخذ عليه العهد بطاعته وتوحيده وعبادته ، ونزل آدم عليه السلام بعد قصة الابتلاء بالجنة واعيا بالعهد ، ذاكرا له ، عاملا به ، وترك ذلك العهد لأبنائه ليحفظوه ويعملوا به ، وإذن فالأصل فى الاجتماع الإنسانى هو الفطرة المستقيمة على عهد الله ، كما قال تعالى :

« وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلاَّ أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا ... »

(يونس: ١٩)

أى مجتمعة على دين واحد ، وعهد واحد هو عهد الإسلام وميثاقه .

وهذا الخبر الصادق عن أصل الاجتماع الإنسانى السليم هو عكس ما يذهب إليه علم الاجتماع الحديث ، والذى يقوم على أساس مادى إلحادى من أن أصل الاجتماع الإنسانى قد تطور من الحياة البسيطة للمادة الحية ، التى تطورت بدورها عن المادة الجامدة فى تسلسل افتراضى جزافى هو محض اختراع وافتراء .

إن القول بأن الإنسان قد تطور من الحالة الهمجية الوحشية الحيوانية ثم تدرج إلى الحياة العاقلة ، هو نقيض القول بالفطرة المستقيمة التى قال بها القرآن وتصدقها اللغة العربية القديمة .

الفطرة لاتمنع اتساع المعرفة والتطور :

على أن هناك لبساً يجب التنبه إليه ، وقد وضحه القرآن الكريم ، وهو أنه لاتعارض بين اكتمال الفطرة فى أصل الخلقة وبين تدرج المعرفة البشرية فى الاتساع ، فالقرآن يؤكد على حقيقة أن الإنسان قد خلق فى أحسن تقويم ، وفى نفس الوقت تتسع معرفته بالتعلم ،

« عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ » (العلق : ٥)

« وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ » (النساء : ١١٣)

وتوضيح ذلك هو أن أجهزة التعلم والإدراك تامة فى أصل الفطرة ، ولكن إدراك الإنسان للأشياء يتدرج مع اتساع معرفة الإنسان بالعالم الذى يحيط به ولاتعارض فى ذلك ، بل إن ذلك يؤكد كمال الاستعداد للتعلم ، وقدرة الإنسان على التعلم عن طريق الاتصال بالعالم إلى غير ما حد . فكلما زاد اتصال الإنسان بالعالم كلما زادت معرفته ؛ وقدرته على الإدراك والتخيل والتمييز والاستنباط ، وافية بهذه الحاجة التى تتسع على الدوام .

والإنسان مفطور على التعلم إلى أبعد مدى :

« وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا » (البقرة : ٣١)

والعالم مهيأ على صورة مسخرة للإنسان :

« سَخَّرَ لَكُم مَا فِى السَّمَوَاتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ »

(الجاثية : ١٣)

دورة التعلم :

وقد رتب الله تعالى للتعلم دورة كاملة تبدأ بالسمع والبصر والحواس الأخرى .

« فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا » (الإنسان : ٢)

وتتصل بالعقل المدرك الذى يتلقى من الحواس ثم يترجم عنها المدركات فى صورة معقولات يترجم عنها اللسان المبين .

فهناك فى عملية التعلم مراحل ثلاث رتب الله لها أجهزة تامة الاستعداد تقابل مراحلها ، وهذه المراحل هى : التلقى ؛ الترجمة ، البيان .

مرحلة التلقى :

وتتم مرحلة التلقى عن طريق السمع والبصر ومختلف الحواس التى يشهد لها علم التشريع بأنها بالغة الدقة ، وافية القدرة بحاجات التلقى ، وهو موضوع لامجال لبسطه هنا .

مرحلة الترجمة :

وهى تتم عن طريق العقل الذى يتلقى إشارات الحواس ويترجمها فى صورة معقولات ، ويؤكد علم النفس الحديث على تنوع قدرات العقل ، وعلى دقة العمليات العقلية ووفائها بحاجة الترجمة ؛ وعمليات الترجمة كثيرة منها الإدراك ، والتخيل والتمييز ، والاستنباط ، والتوصيف أى إعطاء المسميات المناسبة للمدارك ، وخزنها للانتفاع بها .

مرحلة البيـــان :

وتتم عن طريق اتصال العقل باللسان واليد ، فاللسان يعبر بالكلام المنطوق ، واليد تعبر بالكلام المكتوب ؛ والجهاز الصوتى جهاز بالغ الدقة والحساسية ، واف بحاجات البيان عما فى العقل ، واليد جهاز بالغ الدقة والحساسية ، واف بحاجات البيان عما فى العقل كذلك .

فهناك إذن دورة كاملة للتعلم رتبها الخالق العلام الخبير على أتم صورة تبدأ من الخارج إلى الداخل وتنتهى من الداخل إلى الخارج ، لتحقق الاتصال بين الإنسان والعالم ، وبين الإنسان والإنسان ؛ وبين الإنسان ونفسه .

واللغة العربية أدق اللغات وأكفأها فى أداء هذه الدورة بمراحلها الثلاث ، وهى تعكس كفاءة بالغة فى أسلوب التلقى للحواس العربية ، وفى أسلوب الترجمة للعقل العربى ، وفى أسلوب البيان للسان العربى وللحرف العربى منطوقاً ومكتوباً ، والحديث عن هذه الدورة واسع متشعب يحتاج إلى مجلدات نكتفى هنا بمجرد الإشارة إليه ببعض الأمثلة .

مثال لمرحلة التلقى :

سجلت لنا كتب اللغة مادة علمية واسعة متنوعة عن معرفة العرب بالظواهر المحيطة بهم تعكس لنا مدى قدرة أجهزة الإحساس عندهم على الالتقاط . وتحتوى هذه المادة اللغوية ماتلقته مختلف الحواس من سمعية وبصرية ولمسية وشمية . ونضرب مثلا واحداً من مئات الأمثلة على كفاءة ودقة جهاز واحد هو الجهاز البصرى ، عن كيفية النظر وهيئاته فى اختلاف

أحواله ؛ وهو مثال معبر لايترك شاردة ولاواردة من هيئات النظر مهما دقت إلا وسجلها كما تسجل أدق أجهزة الالتقاط الحديثة .

جاء فى فقه اللغة للثعالبى عن كيفية النظر وهيئاته فى اختلاف أحواله مايلى :

إذا نظر الإنسان إلى الشيء بمجامع عينه قيل : رمقه .

فإن نظر إليه من جانب أذنه قيل : لحظه .

فإن نظر إليه بعجلة قيل : لمحه .

فإن رماه ببصره مع حدة نظر قيل : حدجه بطرفه .

فإن نظر إليه بشدة وحدة قيل : رشقه ، وأشف النظر إليه .

فإن نظر إليه نظر المعجب منه والكاره له قيل : سفنه وشفنه إليه شفونا وشفنا :

فإن أعاره لحظ العداوة قيل : نظر إليه شزراً .

فإن نظر إليه بعين المحبة قيل : نظر إليه نظرة ذى علق .

فإن نظر إليه واضعاً يده على حاجبه مستظلا بها من الشمس ليستبين المنظور إليه قيل ! استكفه واستوضحه واستشرفه .

فإن نشر الثوب ورفعه لينظر إلى عوار إن كان به قيل : استشفه .

فإن نظر إلى الشيء كاللمحة ثم أعرض عنه قيل : لاحه لوحة :

فإن نظر إلى جميع مافى المكان حتى يعرفه قيل : نفضه نفضاً .

فإن نظر فى كتاب أو حساب ليهذبه ، أو ليستكشف صحته وسقمه قيل : تصفحه .

فإن فتح جميع عينيه لشدة النظر قيل : حدق .

فإن لألأ هما قيل : برق عينيه .

فإن انقلب حملاق عينيه قيل : حملق .

فإن غاب سواد عينيه من الفزع قيل : برق بصره .

فإن فتح عين مفزع أو مهدد قيل : جمح .

فإن بالغ فى فتحها وأحد النظر عند الخوف قيل : حدج .

فإن نظر إلى أفق الهلال ليلته ليراه قيل : تبصره .

فإن اتبع الشىء بصره قيل : أعاره بصره .

وإذا أردت أن تعرف مدى دقة هذا القاموس البصرى ودقة إحصائه وشموله فحسبك أن تقارن بينه وبين مابقى فى قاموسنا الذى نستعمله من حالات النظر وهيئاته لتعرف الفرق بيننا وبين أسلافنا . . !

مثال لمرحلة الترجمة :

تكشف الترجمة عن مجموعة من العمليات العقلية النفسية المتداخلة والمتشابكة تتمثل فى دقة الملاحظة ، والاستقصاء ، والرصد ، والتسجيل، والوصف ، والتمييز ، والتحليل ، والتركيب ، والاستنتاج ، والترتيب ، والتبويب ، وهذه العمليات تقوم من ورائها قدرات أساسية مثل : الإدراك والتخيل والتذكر . .



ويقوم العقل بتلقى نوعين من المدركات : المدركات الحسية التى يتلقاها عن طريق الحواس ، والمدركات المعنوية التى يستخلصها من المدركات الحسية ، أو يتصورها بدلالة المدركات الحسية ، وإن كانت مما يغيب عن الإدراك الحسى .

فالعقل مثلا لايتلقى الألوان ويميزها فقط وإنما يستخلص منها مدركات معنوية مثل الجمال والقبح ؛ وهناك أمور يدركها العقل بدلالة المدركات الحسية وإن كانت مما لايدرك حسياً ، مثل النظام فى الأشياء ، ومثل الأمور المغيبة .

وتعكس اللغة العربية هذه المدركات على اختلافها فى أشد الصور وضوحاً ولنأخذ مثلا واحداً نشير إليه مجرد إشارة وهو مثال النفس الإنسانية . والنفس الإنسانية مثال فارق بين فكرين وحضارتين يصلح وحده للشهادة للغة العربية بأنها أصلح لغات الأرض للتعبير عن حقائق الوحى الإلهى . ومبحث النفس واحداً من أهم مباحث الفلسفة الإغريقية ، وهو فى نفس الوقت واحد من أكثر المباحث دلالة على فساد الفلسفة الإغريقية والنظر الإغريقى ، وبالتالى مدى انحراف هذا النظر عن الفطرة المستقيمة .

ولقد عقدت فى مبحث تحت عنوان « تكوين الفكر العربى » فصلا كاملا للبحث المقارن بين النظر العربى والنظر الإغريقى أكتفى هنا بإيراد خلاصة نتائجه نظراً لتعذر إيراد تفاصيل مباحثه . .

النفس عند العرب والإغريق :

١ ــ فى تصور الإغريق :

يعتبر تصور الإغريق للنفس الإنسانية فى أصله خليطاً من العقائدالهندية والبابلية واليونانية والمصرية ، مثل تناسخ الأرواح وتعدد الآلهة ، والقول بأن للعالم نفساً أو نفوساً ، وأسرار العدد . .

وإننا لانكاد نجد شيئاً من هذه التصورات يثبت للنقد والتمحيص العلمى وهو مجموعة من الأوهام المعروضة فى أسلوب جدلى ينقض بعضه بعضا ، فلقد بنى الطبيعيون قولهم فى النفس على أساس من نظريتهم فى المادة الحية والنفس المنبثة فيها ،وهو مجرد وهم أبطله علم النفس الحديث ، كما سبق أن أبطله القرآن الكريم .

وجاء الفيثاغورثيون فقالوا إن النفس هى الذرات المتطايرة فى الهواء ، وبعدهم جاء سقراط فأنكر الكيان المادى للإنسان وعلاقته بالنفس وقال بأن الإنسان روح وعقل ، وجاء أفلاطون قائلا بنفوس ثلاث لانفس واحدة ، وكل منها له مكان فى جسد الإنسان . وأخذ أرسطو بتقسيم أفلاطون رغم اعتراضه عليه ، وقال بأن للإنسان ثلاثة أنفس : نامية ، وحاسة وناطقة ، وزعم أن جزءاً واحداً من النفس الناطقة سماه العقل الفعال هو الجزء الخالد من النفس .

ثم جاء المتأخرون فرددوا آراء السابقين فى صور مختلفة .

وإذا أردنا أن نقدم تصور الإغريق للنفس الإنسانية على أساس ماتبقى منه للإنسانية فى مجال العلم الصحيح بالنفس ،أو فى مجال تصحيح السلوك ،

فلا نجد بين أيدينا شيئاً نمسكه بل نجد صورة تاريخية لجدل طويل مضطرب متناقض ، وغير نوايا طيبة عند بعض الفلاسفة حول إعلاء قيمة الإنسان، وإن كان مفهوم الإنسان نفسه عند الإغريق مفهوماً قاصراً لأن الإنسان فى مفهوم الإغريق هو اليونانى فقط ، أما ماعداه فهو البربرى أو الأداة المسخرة لخدمة السيد اليونانى !

٢ — فى تصور العرب :

أما تصور العرب للنفس الإنسانية كما استخلصناه من دراسة الشعر العربى فهو تصور يخلو تماماً من الأساطير والعقائد الخرافية التى عرفتها الشعوب الأخرى . وهو تصور لايقوم على أساس جدلى افتراضى ، وإنما هو تصور يقوم على الاستقراء الدقيق لأحوال النفس الإنسانية فى أحوالها ووظائفها وعلاقاتها ، وهو تصور متفق عليه بين العرب لايختلف عليه أحد منهم .

ولقد وضع العرب ملاحظاتهم عن النفس فى مصطلحات محددة تناولت النفس من مختلف جوانبها ، ودون سؤال عن الماهية للنفس أو العقل، فالنفس والعقل عند العرب تعبر عن كيان واحد يعرف بوظائفه ، ولا تعرف حقيقته .

ولقد اشتق العرب للنفس وأجهزتها المختلفة أسماء من المعانى المناسبة لها .
فالعقل مثلا جهاز للضبط والحفظ ، واشتقوا اسمه من عقل الدابة أى ضبطها .

والعقل هو اللب أيضاً لأنه أخص شيء فى الإنسان وأدل شيء عليه ، ولذا اشتقوا اسمه من لب الشيء بمعنى خلاصته .

والعقل أيضاً هو النهى ، وأخذ الإسم من نهاية الشيء بمعنى آخرته ، وذلك لأن العقل يقف بالإنسان على الغاية وينهاه عما وراءها مما لا يجب فى الأخلاق ، أو لا يصح فى الآراء والأفعال.

وهو أيضاً الحلم ، وهو مأخوذ من الأناة أى التريث والتثبت وعدم التسرع ، وتلك صفات العقل الرشيد الذى وضعه العرب فى أسمى مكان ، وضده الجهل أى الطيش والتسرع والسفه ، وتلك صفات العقل الأحمق الذى كرهه العرب واحتقروه وسفهوه كما سفهه الإسلام .

والنفس والعقل والقلب فى التصور العربى ليست وحدات مستقلة بذاتها ولامتنازعة فى إراداتها ولامختلفة فى مصادرها ومصائرها ، وإنما هى الإنسان كله أو الإنسان فى حالة من حالاته ، الإنسان ككل وجودى متكامل له حاجاته المتنوعة ، ووظائفه المتعددة .

وإذا أردنا أن نقدم تصور العرب للنفس الإنسانية ، فسوف نجد أن هذا التصور هو التصور الذى أقره الإسلام ،ونزل به القرآن ، وتحدثت به السنة ، وعلى أساس من هذا التصور وجه الله تعالى إلى العرب وإلى الناس كافة هذا الخطاب والتكليف بالأمر والنهى والجزاء والمسئولية ، وعلى أساس من هذا التصور حاكم العرب وحاجهم وجادلهم ؛ ففهم من ذلك أن هذا التصور مطابق لفطرة النفس الإنسانية ، موافق لحقيقتها التى أبدعها عليها العلام الخبير .

ولقد جاء العلم الحديث فذهب مذهباً قريباً من مذهب العرب فى اعتبار النفس الإنسانية فاعترف بوحدة الذات الإنسانية ورفض كافة التصورات الإغريقية التى تقوم على تقسيم النفس وتجزئتها ، وذهب مذهب العرب فى الاكتفاء بملاحظة الظواهر النفسية دون السؤال عن الماهية .

وهكذا نرى أن عملية الترجمة العربية فى مهمة النفس والعقل والحواس قامت على أدق الأصول وأضبطها وأوفاها بحاجة العلم الإنسانى .

البيان العــربى :

تبقى لنا مرحلة البيان التى تعتمد على جهازى النطق واليد .

والسمة التى يتسم بها جهاز النطق العربى هى الفصاحة أى كمال التعبير ودقته وسلامته وقدرته على الوفاء بحاجة التعبير عن العقل من غير فضول أو تقصير ، واللغة العربية أوفى اللغات قاطبة بمخارج الحروف المتاحة لجهاز الصوت الإنسانى ، وأوفاها أداء، وأشدها حساسية فى تمييز مخارج الحروف والأصوات ،وتمييز أنواع الشدة والرخاوة، والجهر والهمس ..

ويمكننا القول بأن اللغة العربية تحقق الأداء الكامل لجهاز النطق الإنسانى على الصورة التى أبدع الله عليها هذا الجهاز ، وأنها لاتضيق عن رنة أومد، ولاتأكل حرفاً ، ولا تخلط الأصوات المتقاربة بعضها ببعض ، ولا تضيع حرفاً أوصوتاً لحساب حرف أوصوت آخر كما حدث فى اللغات الأخرى .

من أجل ذلك كانت هذه اللغة أوفى اللغات بحاجات البيان القرآنى الذى جاء مطابقاً لجهاز الصوت الإنسانى الكامل .

الكتابة العـــربية :

ولقد كانت اليد العربية أول يد بشرية خطت حرفاً رامزاً ، وأول يد صنعت أبجدية كاملة كانت بداية مرحلة جديدة فى تاريخ العلوم والحركة الإنسانية . وعن طريق هذه الأبجدية وبفضلها تيسرت الكتابة ، وتيسر تدوين العلوم والمعارف ، وتيسر الاقتصاد فى الوقت والجهد .

وإلى هذه الأبجدية يرجع الفضل فى تقدم العلوم الإنسانية بعد أن أصبحت هذه الأبجدية هى لغة الكتابة الدولية بعد أن نقلها الإغريق واستعملوها ونقلها عنهم الرومان ، الذين تشعبت من لغتهم اللغات الأوروبية الحديثة، التى نقلت الأبجدية العربية وما تزال تستعملها إلى يومنا هذا .

من أجل هذا الكمال فى دورة التعلم للغة العربية، ومن أجل هذه المطابقة للنظرة الإنسانية المستقيمة ، كانت اللغة العربية بهذه الخصائص لغة الدين الحق منذ الإنسان الأول ، كما كانت لغة القرآن وشريعته وبيان حقائقه وأنواره ، وبها بقى القرآن الكريم منارة الإسلام فى الأرض ، وحجة الله على الشرك والبغى والإلحاد .

وأما عن الشق الثانى من السؤال وهو :

عوامل ارتقاء اللسان العربى فنقول :

لم يحدث أن اضطرب المؤرخون فى تقدير فترة من فترات التاريخ مثل اضطرابهم فى تقدير الفترة السابقة على الإسلام من تاريخ الجزيرة العربية ؛

وليس هدفنا هو مناقشة تلك القضية فى هذا المجال ، وإنما أردنا فقط التنبيه إلى حقيقة الأفكار المستقرة فى أذهان الكثيرين عن هذه الفترة ، وسوف يرى كثيرون فيما نعرضه هنا من حقائق تاريخ هذه الفترة مصادمة لأفكارهم التى كونوها نتيجة لهذا الاضطراب ، وأحب أن ألفت نظر هؤلاء إلى أن تاريخ هذه الفترة لم يكتب على وجهه الصحيح بعد ، ولا يعنى ذلك أن حقائق ذلك التاريخ قد ضاعت نهائياً ، وإنما ذلك يعنى أن الوثائق الحقيقية الباقية ، والتى حفظت حقائق ذلك التاريخ لم تلفت نظر الباحثين بعد ، لأن هذه الوثائق تتمثل فى الشعر الجاهلى ، ومدونات اللغة العربية ، والقرآن الكريم ، وكتب السنة ، ولأن استخدام هذه الوثائق استخداماً تاريخياً مازال بعيداً عن الأذهان ، كما أن استخدام هذه الوثائق يحتاج إلى علماء متخصصين فى الدراسات العربية والإسلامية إلى جانب تخصصهم فى دراسة التاريخ .

ولقد حاولنا من جانبنا أن نكشف غموض هذه الفترة باستخدام الوثائق المشار إليها .

ولما كان موضوعنا هو عوامل ارتقاء اللغة العربية ، فإننا نقدم هنا ما وقعنا عليه من هذه العوامل من خلال دراستنا للوثائق اللغوية الإسلامية ، وسنعرض فيما يلى موجزاً لهذه العوامل التى نشير فيها إلى عوامل رئيسية أساسية تتمثل فيما يلى :

١ ــ الاستمرار التاريخي المتصل لمسيرة الإنسانية المتصلة بالدين الحق :

يؤكد لنا القرآن الكريم وهو يمثل خبر الوحي الصادق عن الله تعالى ، وهو الخبر الذى لايأتيه الباطل من بين يديه ولامن خلفه على حقيقة تاريخية بالغة الأهمية ، وهي أن العرب يمثلون الاستمرار التاريخي المتصل لمسيرة الإنسانية المتصلة بالدين الحق من لدن آدم إلى محمد عليهما الصلاة والسلام ، فلقد أكد القرآن فى معرض حديثه عن نعم الله على بنى إسرائيل أن العرب الإسماعيليين هم من ذرية قوم نوح عليه السلام وذلك فى قوله :

« ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ » (الإسراء : ٣)

وإسرائيل هو يعقوب بن اسحق بن ابراهيم ، والعرب هم أبناء اسماعيل ابن ابراهيم عليهم جميعاً السلام .

ولقد كان الوهم الشائع فى الدراسات التاريخية لفترة غير بعيدة أن الحضارة المصرية هى أقدم الحضارات الإنسانية المعروفة ، ثم جاءت دراسات أحدث تنسخ هذا الوهم وتؤكد أن حضارة السومريين فى العراق أقدم من الحضارة المصرية ولعلها الأصل فى نشأتها ؛ وقد أشارت النصوص السومرية بدورها بجلاء إلى حضارة سابقة عليها حدثت مكانها فيما يسمى (البحرين) فى شرق الجزيرة العربية ، كما أشارت إلى رجل معمر تنطبق عليه صفات نبى الله نوح عاش فى هذه المنطقة ، كما أشارت إلى الطوفان الذى أهلك قوم نوح وترتب عليه خروج نوح فيما بقى من قومه من هذه الأرض ، الأمر الذى يرجح أن السومريين الذين استقروا فى العراق كانوا من بقية

قوم نوح عليه السلام ؛ والسومريون هم الأصل الذى تحدر منه ابراهيم عليه السلام أبو العرب الاسماعيليين .

وقد كشفت بعثة أمريكية تعمل فى البحرين مؤخراً عن وجود أقدم آثار حضارية على الأرض فى البحرين ، مما يقوى الاعتقاد بأن البحرين وما حولها — وهى المنطقة التى أشارت إليها النصوص السومرية — هى موطن الحضارة للأنسان الأول ، وتؤكد الأخبار العربية أن نزول آدم عليه السلام كان على عرفات ، وفيه تعرف على زوجه حواء ، وسمى الجبل باسمه ذاك نتيجة لهذا التعارف .

ولقد نزل آدم عليه السلام إلى الأرض بعد أن تاب الله عليه ليبدأرسالته الإنسانية ملتزماً بعهد الله وميثاقه ألا يعبد إلا الله :

« قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِّنِّي هُدًى فَمَنَ اتَّبَعَ هُدَاى فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى * وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى * قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِى أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا * قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى »

(طه : ١٢٣ — ١٢٦)

استمرار التراث الدينى فى العرب عن طريق النبوات :

ويؤكد لنا القرآن على أن تراث الإنسانية المتمثل فى عهد الله وميثاقه قد استمر فى العرب من خلال النبوات المتواترة والمتتابعة فيه ، ويؤكد

على أن قوم نوح كانوا فى جزيرة العرب ، ثم خلفهم قوم عاد ، قال تعالى على لسان نبيه هود إلى قومه عاد :

« وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِى الْخَلْقِ بَسْطَةً » (الأعراف : ٦٩)

ولايكون الخليفة إلا حيث كان السابق الذى استخلف مكانه . ثم يذكر القرآن أن ثموداً قد خلفوا عاداً فى نفس الأرض ، يقول الله تعالى على لسان صالح رسوله إلى قومه ثمود :

« وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِى الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَاذْكُرُوا آلاءَ اللهِ وَلَا تَعْثَوْا فِى الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ » .

(الأعراف : ٧٤)

ومن الأدلة الدامغة التى تؤكد خبر الوحى الصادق أن القرآن قد ذكر أن عاداً بادوا فلم يبق منهم باقية ، وأن ثمود قد خلفت من بعدهم وهلكت وبقيت آثارها ، قال تعالى :

« وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ• سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ• فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِّن بَاقِيَةٍ »

(الحاقة : ٦ ـ ٨)

أما ثمود فيقول فى شأنهم :

« فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ . فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِى ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ. وَأَنْجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ »

(النمل : ٥١ — ٥٣)

وما تزال آثار ثمود فى شمال جزيرة العرب شاخصة فيما يسمى اليوم مدائن صالح نسبة إلى نبيهم عليه السلام .

ولقد كان للعرب وعى شديد بهذا الاستمرار التاريخى انعكس أثره بقوة فى شعرهم ، واتخذوا منه موضوعاً للعظة والاعتبار ، يقول أبوزيد الطائى :

ثم أوحدتنى وأثلت عرشى ... عند فقــدان سيد ومسود

من رجال كانوا جمالا نجوماً ... فهم اليــوم صحب آل ثمود

جمهرة أشعار العرب ص ١٣٩

ويقول أفنون :

لو أننى كنت من عاد ومن إرم ... ربيت فيهم ولقمان ومن جدن

لما فدوا بأخيهم من مهولــة ... أخا السكون ولوجازوا على السنن

مفضليات جـ ٢ ص ٣٠

فلما أوشك فرع أبناء نوح وقومه فى داخل الجزيرة من العرب العاربة أن يبيدوا بالتباغى والأحداث ، أرسل الله تعالى نبيه إبراهيم من فرع

لها بالعراق ليسكن ابنه اسماعيل داخل الجزيرة ، وليحيي مابقى من العرب العاربة فى نسل جرهم الذين تزوج منهم إسماعيل ، وليستمر بهم تراث النسب والدين إلى محمد عليه الصلاة والسلام . .

٢ ــ خصائص المكان وظروفه :

وخصائص المكان وظروفه قضية متشعبة نلخصها فيما يلى :

يمثل المكان الذىهو جزيرة العرب مجتمعاً بدوياً تجاوراً غابت فيه بعض العوامل الأساسية التى شكلت الحضارات الإنسانية خارج الجزيرة وهى الدولة ، والكهانة ، والطبقية ، وتوفرتله عناصر أساسية أخرى هى : الاستقرار والاحتكاك والحرية .

وقد كان لغياب وحضور عناصر أساسية دوره الفارق فى تشكيل الظروف التى عاشها عرب الجزيرة . . .

فكلنا يعلم أن كافة الحضارات المعروفة قد نشأت ونمت فى ظل شكل أو آخر من أشكال الدولة .

وكلنا يعلم أن الكهانة قد لازمت بشكل أو بآخر هذه الدول .

وكلنا يعلم أن الطبقية كانت أساس التنظيم الاجتماعى فى هذه الدول . تلك أمور يعلمها كل من درس تاريخ الحضارات .

وعليه فقد نشأت الحضارات ونمت فى خدمة الدولة والكهانة ، وكانت طبقة ذات امتياز خاص هى التى تجنى ثمار هذه الحضارة وتستفيد منها ،

وتستعمل النحت والرسم والكتابة كأدوات للتعبير عنها ، بينما سواد الناس محرومون منها معزولون عنها .

ففي مصر القديمة نشأت فنون النحت والعمارة والطب والأدب في خدمة الدولة والكهانة وازدهرت في ظلها أيضاً .

وفي أثينا نشأ المسرح والنحت والأدب في حجر الكهانة ، وإن استقلت هذه الفنون نسبياً بعد حين .

وفي روما نشأت النظم والقوانين في ظل الدولة ولخدمتها .

أما العلوم والفلسفات اليونانية فقد جاءت ثمرة من ثمرات قدر أوسع من الحرية للسادة اليونان وحدهم ، وبذلك ارتبطت هذه الحرية بالنظام الطبقي .

لكن الوضع بالنسبة للمجتمع العربي في الجزيرة قد اختلف ، فلقد عرف هذا المجتمع المترحل بالرعي والتجارة قدراً مناسباً من الاستقرار يسمح بقيام المدن والقرى داخل الجزيرة وعلى أطرافها ، ولم يحل الصراع بين القبائل دون فاعلية هذا الاستقرار لأن سنة إبراهيم في تحريم الأشهر الحرم قد فرضت على القبائل المتنازعة هدنة جبرية سنوية مدتها أربعة أشهر حرم ، تتفرغ فيها لشئونها ، وتتبادل المنافع فيما بينها .

لقد كان القدر الذي أتيح للعرب من الاستقرار كافياً لبناء نموذج الترقي الخاص بهم . وكانت الكعبة والحج والأشهر الحرم هي حامية هذا النموذج ، وهي حوافزه في نفس الوقت . فطول أربعة أشهر كان القتال محرماً في كل الجزيرة ، وكان الخروج على هذا التقليد يقابل بردع إجماعي من جميع العرب ، وكان في استطاعة العرب طوال هذه الشهور أن

يتاجروا فى الأسواق التى تناثرت فى أرجاء الجزيرة ، وكان باستطاعتهم أن يتنقلوا من أقصى الجزيرة إلى أقصاها آمنين .

وفى موسم الحج كانوا يلتقون ، ويتعاملون ، ويتبادلون المنافع ، ويتناشدون الأشعار ، ويتبادلون الخطب .

وكانت مكة فى جميع شهور السنة حرماً آمناً ، يأمن فيه الخائف ، وإليه يلوذ العائذ ، وفيه ينصر المظلوم ، وينصف الضعيف ، ويعان المحتاج كما ينص على ذلك عهد قصى ، وكما أكد ذلك حلف الفضول الشهير .

وأضيف إلى هذه العوامل عامل أساسى آخر هو عامل الاحتكاك العالمى ، فعن طريق وضع الجزيرة العربية فى وسط العالم كان العرب على صلة مباشرة ودائمة بكل العالم القديم شرقاً وغرباً ، وشمالا وجنوباً ، وكانوا الأمة الوحيدة على الأرض التى تتصل بالعالم كله ، ولايتصل العالم ببعضه البعض إلا من خلالها وعن طريقها .

ومن هنا كان العرب على اتصال دائم بجميع الحضارات سواء منها ما أقاموه لأنفسهم داخل الجزيرة فى اليمن وحضرموت وغيرها ، أو ما أقاموه على أطراف الجزيرة وخارجها فى العراق والشام ومصر ، أو ما أقامه غيرهم فى الهند وفارس وروما . .

ولقد احتكر العرب التجارة العالمية طوال فترة التاريخ القديم لاينافسهم فى ذلك منافس فى البر أو البحر ، وكانت التجارة معظم الوقت فى يد الحضرميين واليمنيين ، وكانوا هم أداة الاتصال بالعالم ، فلما ضعفت حمير بانهيار آخر دولة يمنية قامت فيهم ، تسلمت قريش زمام التجارة العالمية ،

وأصبح القرشيون هم أداة الاتصال الأساسية بين الشرق والغرب ، ونضجت لهم عن ذلك الطريق خبرة واسعة بشئون المال ، والتجارة والتسويق ، وأساليب التعامل ، وتوثقت لهم علاقات على أوسع نطاق مع كافة شعوب العالم ، واتسعت بفضل ذلك معرفتهم بهذه الشعوب وعاداتها وآدابها ولغاتها وأخلاقها ، مما أعطاهم سعة فى معلوماتهم ، ودماثة فى أخلاقهم ، وصقلا لإرادتهم ، عرف لهم جميع العرب قدره ودانوا لفضله ، وجعلوا لهم الإمامة طائعين ، وقد جمع الله لهم مع ذلك جوار البيت ، وأفاض عليهم من حرمته مما مكن لهم فى قلوب العرب جميعاً .

لقد كان من الممكن أن يؤدى نفوذ قريش وثراؤها إلى إقامة حضارة شبيهة بحضارات فارس والروم وغيرها ؛ وكان من الممكن أن تكون قريش طبقة مشابهة للطبقات التى قامت خارج الجزيرة ، لكن استمرار تراث الدين فيهم ، مع تأصل الحرية فى نفوس العرب وشدة نخوتهم وبأسهم حالا دون ذلك .

لقد وحدت قريش الجزيرة تحت لوائها قبل الإسلام بغير سلطان الدولة الذى يقوم على القهر ، وبغير نفوذ الطبقة الذى يقوم على الاستعباد والاستغلال .

لقد قامت هذه الوحدة بسلطان مكارم الأخلاق الذى جمع العرب جميعاً على مابينهم من عداوات حول الكعبة ، التى بفضلها انصهر وجدان العرب فى وحدة عميقة مفتاحها اللغة ، وتعبيرها الشعر ، ووجهتها الله . .

ولأن هذا الوجدان الشعبي قد انصهر بسلطان الحرمة (للبيت) لابسلطة القسر (للدولة) .

ولأن هذا الوجدان الشعبي قد انصهر على مستوى الأمة كلها لاعلى مستوى طبقة خاصة ذات امتياز خاص ، فقد تفتح هذا الوجدان على نفسه ، ليتعرف على ملكاته وينميها ، وليوثق صلة هذه النفس بالوجود عن طريق الفهم والتأمل .

وكانت الحرية التى خالطت نفوس العرب هى المناخ الذى أتيح فيه لكل فرد أن يستخرج خيرمافى فطرته الإنسانية من قدرة على الإدراك والنظر والخير والبر والمعروف . . لم تكن حرية العرب حرية السائمة فى البيداء ، أو الوحش فى الصحراء ، كما ذهب إلى ذلك العقاد ، إذ لو كانت كذلك لظلوا بها متوحشين ، ولما صلحوا لتلقى الرسالة الخاتمة التى لاتقوم إلا على أكتاف الأحرار الواعين بحقيقة أنفسهم ، وحقيقة العالم من حولهم .

لقد كانت حرية العرب حرية تتعامل مع ظروف بيئية لا تفرض نفسها إلى الحد الذى يلغى حرية الاختيار ، ويسمح بقيام الطبقة المتسلطة كما هو شأن البيئات الزراعية . ولم تكن البيئة العربية بالبيئة التى تقسو إلى الحد الذى يستهلك الجهد والحياة ، ويلقى الحرية بالمعاناة التى لاترحم كما هو الشأن فى البيئات الرعوية التى لاتعرف مصدراً للمعيشة غير الرعى

لقد كانت البيئة العربية بيئة رعوية تجارية تتنوع فيها مصادر الرزق ، ويأتيها رزقها من أطراف الأرض . .



وكانت حرية العرب فى بيئتهم حرية تتيح لهم فرص الاحتكاك بغيرهم دون أن يذوبوا فيهم ، أو يخضعوا لهم ، فكان تبادل العرب مع العالم تبادل انتقاء واختيار يأخذ المناسب ويطرح غيره .

وكان تراث الدين والفطرة والأخلاق عند العرب مقياساً دقيقاً يزن العـــرب به قيمة كل مايعرض عليهم من بضاعة المعتقدات والأفكار والأخلاق عند غيرهم . ولقد كان الروم والفرس على مرمى سهام العرب بحضاراتهم وأعرافهم ، وكان العـــرب يرون أن ماعندهم هو خير مما عند هؤلاء .

وعندما فسد الدين الحق عند اليهود بفلسفات الإغريق وزندقات المجوس لم يقبل عليه العرب رغم إقامة اليهود بين ظهرانيهم قروناً كثيرة .

وعندما تسربت المسيحية إلى بلادهم بمذاهبها المتضاربة رفضوها ونأوا عنها ، وظلوا رغم انحرافهم إلى الشرك ينتظرون تحقيق دعوة أبيهم ابراهيم بأن يبعث الله فيهم من يجدد لهم أمر دينهم ويهديهم إلى الحق الذى تطاولت عليهم القرون فى انتظاره . وكان من إرهاصات هذا الحق أن كثر فيهم « الحنفاء » يجددون بينهم التذكير بدين ابراهيم ويدعون قومه إلى التوحيد وطرح الأوثان ، حتى بعث الله فيهم محمداً صلى الله عليه وسلم فردهم إلى الحنيفية السمحاء ، دين أبيهم إبراهيم .

ومرة أخرى جمعت الكعبة العرب حولها دون أن تفرض عليهم كهانة تعطل عقولهم ، ودون أن تقسرهم على ذلك دولة تذل نفوسهم وتفسد قلوبهم .

وحول الكعبة اشترك العرب فى بناء نموذجهم الإنسانى الفريد ، الذى يقوم على أساس اعتبار قيمة الإنسان وقيمة العالم .

وعن طريق التفتح الحر للوجدان الاجتماعى تضافرت حشود هائلة من الاجتهادات البناءة على تحقيق هذا النموذج الفرد ، هذا النموذج الذى اشتركت فيه أمة بأكملها رجالا ونساء ، على نحو لانظير له فى تاريخ البشر ، وكان التعبير عن هذا النموذج هو اللغة ، وكان الشعر هو الثمرة الناضجة لها .

فهذه اللغة العظيمة لم تنشأ فى فراغ ، ولم تكن صناعة طبقة تعيش فى أبراجها العالية ، بينما سواد الأمة يعيش فى الطين والوحل والذل .

كانت اللغة جهداً تضافرت فيه جهود الأمة كلها ، فلا تستطيع أن تنسب فضل ميزة بعينها إلى شخص بعينه ، وإنما كانت الأمة كلها عبر أجيالها كلها ، وعبر تاريخ طويل موصول بعد عمر الإنسانية كله هى صاحبة هذه اللغة ، وصاحبة الفضل فيها بجهود كل أبنائها ، رجالها ونسائها فى أمة لم تعرف التمييز إلا بالفضل والمعروف والسبق والعطاء الموصول .

ولم يكن شعر هذه الأمة إبداع أفراد عاشوا فى عزلة عن المجتمع ، وإنما إبداع أفراد عاشوا حياة المجتمع ، والتحموا به وعبروا عنه ، ومن هنا كانت للشعر هذه المكانة العظيمة فى المجتمع العربى القديم ، وكانت للشعراء هذه الحظوة الكبيرة فيه .

كان الشعر طعام العربى رجلا كان أو إمرأة ، وكان شرابه ، وكان غذاء عقله وقلبه ، وأساس ثقافته ، ومستودع مكارمه وتقاليده ، يسترشد

بأصدق مافيه فى حياته ، ويدور على لسانه فى ساعات أنسه وسمره ، ويحفز همته فى مجال عمله وكدحه ، ويثبت جنانه فى ساعات شدته وكربه .

ولم يكن الشعر القديم شعر كل قبيلة على حدة ، ولم يكن الشاعر العربى محصوراً فى إطار القبيلة التى ينتسب إليها ، وإنما كان الشعر ملكاً لكل الناس يدور على كل لسان ، ويتردد فى كل قبيلة ، وكان الشعراء هم شعراء الكافة من العرب ، ينشد شعرهم فى كل ناد ومحفل ، لاتحول العداوات والخصومات بين الإعجاب بالشعر الجيد ، أو بالشاعر الفحل وإن كان من قبيلة معادية . .

ولم تكن القبائل العربية على مابينها من عداوات وحدات منعزلة مغلقة ، وإنما كانت على الرغم من عداواتها أمة واحدة تجمع بينها وحدة النسب ووحدة الدين القويم ، ووحدة الحب والحج للبيت الحرام .

لقد كانوا أمة واحدة تعيش حياة مشتركة ، وأعرافاً سائدة . .

صحيح أنه قد كانت هناك مستويات ودرجات فى الوعى وفى الحس وفى الالتزام الأخلاقى ، وذلك شىء عادى فى مجتمع واسع مترامى الأطراف .

وصحيح أنه كانت هناك لهجات أولغات كما يقول اللغويون ، فكانت هناك لغة تميم ولغة طىء ، ولغة ربيعة ، ولغة قريش . الخ . . لكن هذه اللغات أو اللهجات كانت لغات ولهجات فى لغة واحدة هى العربية الفصحى ، ولم يكن الخلاف بين هذه اللغات واقعاً فى أصل التركيب اللغوى ، وإنما فى بعض مظاهره العارضة من اختلاف فى نطق بعض الحروف بين

الإمالة والإدغام فى المد ، أو قلب لبعض الحروف ، أو اختلاف فى معانى بعض الأسماء كأن تقول قبيلة : المدية وتقول أخرى السكين : ولكنه اختلاف لايقطع طريق التفاهم ، ولايقطع الصلة بين العامية والفصحى كما هو حالنا اليوم ، ذلك أن هذه اللهجات كانت تنوعاً داخل لغة واحدة هى « الفصحى » بدليل أن اللغويين كانوا يأخذون الفصحى من كل هذه القبائل مع إدراكهم لهذا التفاوت . . .

هذه لمحة سريعة عن العوامل التى ساعدت العرب — كما أرى — على ارتقاء هذا اللسان العربى حتى تم بيانه ، بحيث أصبح أهلا لينزل به وحى الله ، وشرعه ، ونوره ، فى القرآن الكريم ، وليبقى هذا القرآن بعد ذلك منارة الإسلام فى الأرض ، وحجة الله على الشرك والبغى والإلحاد .

* * *

السؤال الثانى :

إلى أى حد ترى أن الشعوب العربية المؤمنة قد ابتعدت كثيراً فى هذا العصر عن لسان القرآن العربى المبين ، وأن لغتها الفصحى المعاصرة قد أصبحت لهجات مهجنة ، مختلطة غير قرآنية ، لاتساعد على تدبر كتاب الله بمباشرة قراءته ، بقدر ما كانت سبباً فى خلافات المسلمين الكثيرة حول تفسير المبين من آيات القرآن ومحكماته ؟

— ماهى نقطة البداية — من وجهة نظرك لحد من تدهور اللسان العربى فى تيار هذه اللهجات المهجنة المختلطة ، فى الاتجاه إلى استعادة « اللغة القرآنية » المبينة ، بالقدر الذى يسمح بتزايد وحدة المسلمين حول فهم القرآن ، وتدبره ، والعمل به ؟ .

الإجـــابة :

لهذا السؤال شقان أحدهما يتعلق بمدى تدهور اللسان العربى ، والثانى يتعلق بنقطة البداية لوقف هذا التدهور .

ونبدأ بالإجابة عن الشق الأول والذى يتعلق بمدى تدهور اللسان العربى .

. . . يمكننا القول تجوزاً بأن اللغة العربية اليوم هى عدة لغات بعدت كثيراً عن اللغة الفصحى ، ومازال تتباعد نتيجة انقطاعها عن لغة القرآن الكريم ، ومصادر العربية الأولى .

وأنا لا أتكلم هنا عن عامية الشارع العربي التي تباعدت عن أصولها العربية إلى الحد الذي أصبح يتعذر معه على عامة الشعوب العربية أن تتفاهم فيما بينها ، وإنما أتكلم عن عامية المثقفين التي تكتب بها الكتب والصحف ، فهناك لغة لبنانية ، ولغة مصرية ، ولغة مغربية ، وهكذا ، ولقد تأثرت هذه اللغات باللغات الأجنبية تأثراً عميقاً ، وذلك حسب سيادة هذه اللغات فى المرحلة الاستعمارية الحديثة للعالم العربى .

مراحل سيطرة اللغات الأجنبية على اللغة العربية المعاصرة :

إن سيطرة اللغات الأجنبية على اللغة العربية المعاصرة قد مرت بمرحلتين :

الأولى : **المرحلة الأوروبية** : — وتبدأ هذه المرحلة ببداية السيطرة الاستعمارية العربية على العالم العربى منذ بداية الاحتلال الفرنسى للمغرب العربى ، وما تبعه من احتلال الإنجليز ثم الفرنسيين لمعظم أجزاء الوطن العربى حتى وقت قريب .

وقد تأثرت البلاد التى وقعت تحت السيطرة الفرنسية تأثراً شديداً باللغة الفرنسية ، وذلك بسبب إصرار الفرنسيين على محو اللغة العربية وإحلال اللغة الفرنسية محلها ، وأضيف إلى تأثير اللغة الفرنسية فى لبنان على وجه الخصوص تأثير الإرساليات المسيحية التبشيرية التى أضافت نكهة مسيحية بارزة إلى التأثير الفرنسى .

كذلك تأثرت اللغة العربية فى مصر وفلسطين والعراق والسودان باللغة الإنجليزية تأثراً قوياً ، يضاف إليه أيضاً تأثير الإرساليات التبشيرية الإنجليزية والأمريكية التى أضافت نكهة مسيحية إلى التأثير الإنجليزى فى هذه البلاد .

الثانية : المرحلة الأمريكية الروسية :

وهي المرحلة التي أعقبت الحرب العالمية الثانية ، وهذه الحرب التي ترتب عليها انهيار الإمبراطورية الإنجليزية والاستعمار الفرنسي والأوروبي بصفة عامة ، كما ترتب عليها بروز العملاقين الكبيرين أمريكا وروسيا ،واللذان أخذا يتصارعان لاقتسام ميراث الاستعمار الأوروبي ، وإن كانت أمريكا قد فازت في هذا السباق بنصيب الأسد .

على أني أحب أن أنبه إلى فارق بين التأثير الأمريكي والتأثير الروسي ، فالتأثير الأمريكي جاء عبر اللغة الإنجليزية المتأمركة ومؤسساتها التعليمية والثقافية الواسعة في الوطن العربي ، وكذلك عن طريق المبعوثين العرب إلى المعاهد الأمريكية . أما التأثير الروسي فقد جاء أساساً عبر المؤلفات الماركسية (العقائدية) بصورة خاصة ، مع وجود تأثير غير مباشر للغة الروسية عبر الأدب الروسي المترجم إلى الإنجليزية والفرنسية ثم العربية .

التطورية كعامل إضافي :

على أنه لايمكن إرجاع تأثير اللغات الأجنبية على اللغة العربية إلى مجرد فرض هذه اللغات بسلطة الاستعمار فقط ، ولا إلى السنة التاريخية التي تقضي بتأثر الأضعف بالأقوى في شتى مجالات الثقافة والحياة ، وإنما هناك عامل إضافي أضاف بعداً خاصاً للتأثير الأوروبي في اللغة العربية المعاصرة وثقافتها ، وهذا العامل هو (نظرية التطور) التي أحدثت انقلاباً في الغرب زعزع كافة المعتقدات والمفاهيم والمواريث والتقاليد ، وأخضع كل شيء هناك لمفهوم وثني إلحادي إرتدادي تحت ستار مفهوم هذا التطور .

ولقد هبت ريح هذا المفهوم على الوطن العربي فيما هب عليه من رياح غربية ، وحاول أنصاره من العرب المستغربين أن يزعزعوا كافة المعتقدات والمفاهيم والمواريث والتقاليد في هذا الوطن العربي من خلال هذا المفهوم .

لقد انجرف المثقفون العرب في هذا التيار على اختلاف مواقعهم ، وكان لاتجاه التبعية الغربية المنبهر بتفوق الغرب وتقدمه العلمي أثره في التمكين لهذا التيار ، حتى رأينا عميد الأدب العربي ينادي بضرورة الأخذ بالحضـــارة الغربية حلــوها ومرها ، خيرها وشرها ، وحتى رأينا علماً من أعلام الفكر العربي الحديث يضع كتاباً تحت عنوان « الشمس تشرق من الغرب » وحتى رأينا مفكراً لبنانياً ينادي « أنا الشرق من يأخذ عقائدي وآدابي وتقاليدي ويبيعني بها دبابات وطائرات » وحتى رأينا بعضهم يتجرأ على التهجم على الإسلام ، ويراه عقبة في طريق التطور والتقدم . . ! !

يقول شكري عياد في كتابه « الأدب في عالم متغير » : « وكان شباب هذا الجيل أصرح من كبارهم ، فالرعيل الأول من كتاب القصة القصيرة والرواية لم يعرفوا لهم أبوة غير أبوة موباسان وتشيكوف وبلزاك ، وكثير منهم هاجموا الأدب العربي القديم صراحة ، وطرحوه جملة ، وأصبحت فكرة التغيير عند هذا الجيل تعني الحداثة أو العصرية أو الصدق ، وكلها كلمات غدت كالشعارات في ذلك العصر ، حتى أطلق اسم المدرسة الحديثة علماً على جماعة من كتاب القصة القصيرة في مصر ، وكان حقيقاً به أن يشمل — كما استعمله بعض الكتاب فعلا في ذلك العهد — كل ذلك

الجيل من الأدباء الذين تتلمذوا تلمذة مخلصة وعميقة لثقافة الغرب . . »
ص ١١ - ١٢ .

التطور ووهم العالمية :

أرأيت إلى تهافت النمل إلى مصارعه حين يلوح له بطبق من العسل الممزوج بالسم . . ؟ ، لقد كان ذلك هو مصير المثقفين العرب الذين ربطوا مصائرهم بالثقافات الأوروبية على اختلافها ، لقد سيطر عليهم وهم اسمه « العـالمية » وأصبحت الرغبة فى العالمية والتهافت عليها ديدن الأدباء ، والمهرجين الاجتماعيين ، والثوريين ، ومن جرى مجراهم . ولقد روج الغرب نفسه لهذا الوهم القاتل الذى غلف به نواياه الاستعمارية ليكون بديلا عن القوة الغاشمة التى ضاقت بها الشعوب المستعمرة فى فرض النفوذ والتبعية .

ولقد سقط أكثر المثقفين العرب صرعى بتأثير هذا الوهم ، وجردوا شعوبهم من أسلحة المقاومة للدفاع عن النفس تحت هذا الوهم لترضى بقيد التبعية طائعة مختارة .

إننا حين نجرد العالمية الحديثة من ثيابها الخادعة لانرى فيها غير معنى التبعية المطلقة لنمط الحياة الغربية التى حاول الغرب بكل إمكانياته فرضه على كل شعوب العالم ومنها الشعوب العربية الإسلامية ، ولانجد فيه غير تقويض الذات والمقومات التاريخية الأصيلة لهذه الشعوب تحت معاول المطامع الغربية ، يقول شكرى عياد : « ولعل الكلمة التى يمكن أن تعبر

عن طموح هذا الجيل فى معنى « التغيير » – لامفهومه له – هى كلمة « العالمية » . ولكنه طموح العاجز ، فالعالم لايقرؤنا ، ونحن نعلم ذلك ، ونعلم أيضاً – فى قرارة أنفسنا السبب فى إعراضه : إنه – حتى الآن – لايجد فيما نكتبه مايستحق القراءة » . .

« وشواهد الحال تدل على أن الجيل الطالع ماض فى هذا الاتجاه الخاطىء بعينه ، الاتجاه نحو عالمية بائسة كاذبة . من من شعرائنا الشبان لايقلد إليوت الذى لم يقرأه ، أو قرأه بدون فهم ، ومن من كتاب القصة القصيرة الشبان لايقلد كافكا ، لأنه قرأ له قصة قصيرة مترجمة فى « الأهرام » ؟ . . .

« لاجرم أن الأصالة تكاد تنجرف فى تيار من التقليد الممسوخ .

« والجيل الطالع معذور . إنه لايكاد يبصر هذا الطريق ، وليس ذنبه أن الجيل السابق له ، جيل من كان ينبغى أن يكونوا أساتذته ، قد أضاع رسالة عمره أو كاد ، لأنه لم يتعلم من تجربة سلفه أن قضية الحداثة والعصرية ليست قضية تطبع يتبعه طبع ، ولكنها قضية صراع بين قيم موروثة وقيم مكتسبة ، بين أنماط من الحياة قديمة وأخرى جديدة ، بين قوى نزاعة إلى التغير ، وقوى نزاعة إلى الثبوت » الأدب فى عالم متغير ص ١٧–١٨ .

التغيير بالمفهوم الغربى عدوان على الشخصية العربية الإسلامية :

الشخصية العربية الإسلامية فى نموذجها النقى الذى تحددت معالمه من خلال النص القرآنى ، هى الفطرة الإنسـانية المستقيمة على أمر الله

وعهده ، وهى وحدها التى تمثل النموذج الصحيح للصلاح الإنسانى فى إطار سنن الله ، والتى يعتبر كل انحراف عنها انحرافاً عن أصول الفطرة المستقيمة لاتكون نتيجته غير البوار والفساد كما قال تعالى :

« وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ » (الأنعام : ١٥٣)

هذه الحقيقة الأساسية يجب أن تكون نصب أعيننا كلما تكلمنا عن التغيير والإصلاح والتطور والتقدم وما إلى ذلك من مصطلحات . .

وهذه الشخصية التى تصدت عبر التاريخ الإنسانى لقوى البغى والعدوان على الفطرة الإنسانية المستقيمة ، وهى التى تجمعت عليها عبر التاريخ كذلك كل قوى الوثنية والإلحاد للقضاء عليها ، وطمس معالمها ، لأنها تمثل التحدى الأبدى للقوى الشيطانية ، والتى تمثل قوى الشر فى العالم ، هذا التحدى القديم الجديد الذى سجله القرآن على لسان الشيطان فى قوله تعالى :

« فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ » (ص : ٨٢)

وفى قوله تعالى :

« وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الْأَنْعَامِ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ ..» (النساء : ١١٩)

هذه الحقيقة التاريخية الكبيرة ، والتى هى محور التاريخ الإنسانى كله تضيع اليوم تماماً من عقول الضائعين والتائهين من أذهان غالبية البشر ، وكثير من أبناء الأمة العربية الإسلامية ذاتها .

التغير اللغوى انعكاس للعدوان على الشخصية العربية الإسلامية :

ولم يكن التغير الذى أصاب اللغة العربية مجرد تغيير فى كلمات أو عبارات أو أساليب ، وإنما كان انعكاساً للعدوان الذي وقع على الشخصية العربية الإسلامية فى العصر الحديث .

ولقد بدأ التغيير اللغوى يأخذ طريقه حثيثاً منذ بداية الصراع بين القوى العربية الإسلامية والقوى الوثنية العالمية منذ خروج العرب بالإسلام من الجزيرة العربية لإعلاء كلمة الله فى الأرض .

وقد تمثل هذا التغيير فى تأثير الزندقات الفارسية والفلسفة الإغريقية فى آداب العرب والمسلمين وعلومهم ، كما تمثل فى هجمة الوثنية العالمية من خلال المذاهب الباطنية . .

ولكن قوة الأمة العربية الإسلامية ، والتزامها الوثيق بكتاب الله وسنة رسوله وأصول اللغة العربية عبر التاريخ الإسلامى كانت تقف سداً أمام عمليات المسخ والتشويه ، رغم الندوب والثغرات التى أصابت كيان الأمة العربية المسلمة ، ورغم التسلل الفكرى الوثنى الفلسفى الإلحادى إلى البيئة الثقافية والاجتماعية للشخصية العربية الإسلامية فى مجالات متعددة . . . لكن التغيير الحديث كان له أثر مختلف ، ووجه مختلف ، فلقد جاء هذا التغيير مع العدوان الغربى العسكرى والثقافى والاجتماعى والاقتصادى مركزاً ومدروساً ومخططاً ومسلحاً بإمكانيات جديدة ، وأساليب جديدة ، وقوى جديدة .

وقد وقع هذا التغير فى غيبة وعى المسلمين بحقائق شخصيتهم ، وحقائق دينهم ، بعد أن طمستها ظلمات الاستبداد والفساد والانحطاط فى القرون المتأخرة .

أبعاد التغيير اللغوى الحديث :

ولقد شمل التغيير اللغوى الحديث أبعاداً لم يصل إليها من قبل فى أى عصر من العصور ، وهو تغيير شمل الحرف والكلمة وتركيب الجملة ، وأسلوب التعبير ، ودلالة الكلمات ؛ حتى يمكن القول بأن اللغة العربية التى يتكلمها المثقفون العرب المعاصرون هى فى حقيقتها لغة أولغات أجنبية الأسلوب والتركيب والمضمون ولكن بحروف عربية ، يقول جاك بيرك فى توضيح هذه الحقيقة « ومن السهل علينا أن نرى والحالة هذه كيف حفظت هذه اللغة العظيمة فى إطارها ، رمزاً اجتماعياً ضخماً فى قوته . ولقد ظلت اللغة العربية فى عصور الانحطاط المعنوى ، والتشتت السياسى ، والانحلال الاقتصادى وحتى القرن التاسع عشر ، الرمز الوحيد الذى يوحد هذه الشعوب . ولم يبدأ بعث هذه الشعوب إلا فى صورة نهضة لغوية . ويرجع الفضل فى ذلك إلى ماتعرضت له من هجوم سابق . ويتبين من هذا وبصورة غريبة أن النصارى كانوا أنفسهم رواد النهضة اللغوية . وفقدت اللغة فى كتاباتهم وعلى شفاههم الشطر الإسلامى من ارتباطاتها ، وأصبحت تؤكد أولا وقبل كل شىء على النواحى الاجتماعية والقومية . وتحولت بصورة متعمدة إلى لغة قومية بدلا من أن تظل لغة إسلامية . ونقلت هذه الظاهرة نواة المزيد من التطورات اللاحقة . . . يضاف إلى هذا أن هناك

حقيقة مميزة ثالثة وهى أن الثورة الأدبية كانت مدينة منذ بدايتها للمؤثرات الغربية . ووقعت عمليات إخصاب للغة القويمة . عن طريق ماتحمله اللغة الفرنسية من نظريات فكرية وعادات لغوية . ولكننا مازلنا مفتقرين إلى دراسة تفصيلية عن هذه العمليات . وهل فى وسعنا أن نفصل فى ذكرياتنا بين بطرس البستانى وصديقه (كرنيليوس فان دايك) . أو نتناسى الدور المهم الذى مثله الأب (بيلو) من رجال مطبعة اليسوعيين فى بيروت ؟ حيث استطاع الكثيرون من رجال الأدب أن يوفقوا بطريقة تجمع بين الغرابة والروعة ، بين هذه النفسية المدنية المتعلقة بالعالم وبين حبهم العميق للتربة والوطن ، ومن هنا نشأ التضاد الذى يؤدى إلى تبدل فى الطقوس بل وفى صورة الدين . وحمل هذا التضاد صورة هجرة واسعة من لبنان . قام بها هؤلاء الأدباء بعد تعرضهم لاضطهاد السلطان العثمانى عبد الحميد ، إلى القاهرة حيث شكل مثقفوا لبنان مركزاً ثقافياً جديداً لهم . وإن ظلت ارتباطاتهم الفكرية فى أماكن نائية كباريس ولندن وسان بطرسبرج وكاجليارى ، وتونس وطنجة والاستانة وزنجبار ، التى هاجر إليها الكثيرون من اللبنانيين » العرب تاريخ ومستقبل ص ٢٤٦ - ٤٧ .

ولأننا لانستطيع تتبع أبعاد هذا التغير الهائل الذى لم ترصد خطواته بعد ، وإن كنا نعيشه ، ونعيش معه الغربة على أرضنا عن ديننا ولغتنا وذاتنا إلا أنى أقدم هنا نموذجاً معبراً من الشعر الحديث نستطيع أن نعرف منه إلى أى مدى وقع المسخ والتشويه على لغتنا وشخصيتنا ، وأنت ولاشك قد قرأت المراثى العربية أو اطلعت على نماذج منها على الأقل ، وعرفت

كيف كان العربى يقف فى مواجهة حقيقة الموت من خلال تراثه العربى الإسلامى الموصول بالفطرة المستقيمة ، فاقرأ هذه المرثية لشاعر عربى حديث هو عبد الوهاب البياتى ، لتعرف عمن يعبر ، وبلسان من ينطق ، وأى مشاعر يحس ، وأى معان يردد ، وإلى أى مستمع يتوجه ، وهو يقول :

رأيتـــه يلعب بالقـــلوب واليـــاقوت .

رأيتـــه يمـــوت .

قميصه ملطخ بالتـــوت .

وضجر فى قلبـــه .

وخيط عنكبـــوت .

يلتف حول نابه المحطم الصموت .

وقـــر أخضر فى عيـــونه .

يغيب عبر شرفات الليـــل والبيوت .

وهو على قارعة الطريق فى سكينة الموت . . !

هل أحسست شعوراً عربياً ؟ هل سمعت لغة عربية ؟ ثم أليس د . شكرى عياد محقاً فى التعليق على مثل هذا المسخ بأن هذا النوع من الرثاء قد يكون رثاء لإنسان مبهم ، لفكرة من الفكرات ، لإنسان بتنكير إسم إنسان ، أو للإنسان بأل الجنسية ، وأضيف فأقول إن هذا موقف أبله أمام حدث جليل مثل حدث الموت ، كان يستخرج من أعماق النفس العربية أنبل المشاعر والأحاسيس .

وإذا كنا لانستطيع أن نحصر أبعاد التغير فى هذه العجالة فلنضرب لها مثلا يصلح للتعميم على بقية المجالات ، وهو مثل المصطلحات .

التغير والمصطلحات الحديثة :

يمكن القول بأن جملة المصطلحات التى تستعمل الآن فى العربية المعاصرة ، وتدور بها ألسنة المثقفين هى مصطلحات تحمل مضامين غربية تماماً ، أو متأثرة إلى حد كبير بالمضامين الغربية .

وحين أقول مضامين غربية فإنى لا أصدر فى ذلك عن نزعة تعصب أعمى ضد كل ماهو غربى كماهو شأن البعض ، ممن أصبحت ردة الفعل للسيطرة الغربية عندهم ردةفعل غريزية لاتفرق بين حق وباطل ، وصواب وخطأ ، ومقبول ومرفوض .

وإنما أقول مضامين غربية بمفهوم معين يعنى رفض التبعية مع التمييز بين الحق والباطل ، والصواب والخطأ ، والمقبول والمرفوض .

كما أنى حين أقول « مضامين غربية » أريد أن أؤكد على صفة الخصوصية للمصطلحات الغربية ، والتى تعكس تراثاً خاصاً له وجهته الخاصة التى تناسبه وتناسب أهله ، وقد لاتناسب بل قد تناقض تراث أمة مثل الأمة العربية الإسلامية لها وجهتها الخاصة فى التاريخ .

وأريد أيضاً أن أنبه إلى بطلان الزعم بأن هذه المصطلحات ذات صفة عالمية ، لأن المصطلح العالمى هو الذى يتوافق مع الفطرة الإنسانية العامة دون النظر إلى الحدود الجغرافية ، ودون نظر إلى الأجناس والألوان .

والمصطلح الغربى هو مصطلح خاص يهدف إلى تحقيق أهداف جماعة معينة من البشر بصرف النظر عن مصالح المجموع البشرى ككل أو حتى على حساب هذا المجموع البشرى .

والمصطلحات العالمية هى المصطلحات القرآنية العربية الإسلامية التى تراعى فطرة الإنسان كإنسان فى كل زمان ومكان بصرف النظر عن الحدود الجغرافية والجنس واللون .

والمصطلحات التى تستعمل فى العربية الحديثة أنواع ثلاثة :

١ — مصطلحات منقولة بلفظها الأوروبى وتستعمل فى نفس معناها مثل : ديمقراطية ولبرالية وأيدولوجية .

٢ — مصطلحات استحدثت لها ألفاظ عربية ، وتستعمل بمفهوم غربى مثل : اشتراكية وشيوعية وتقدمية ورجعية وحضارة . .

٣ — مصطلحات عربية إسلامية قديمة ، فرغت من مضمونها العربى الإسلامى مثل : حرية وسواسية وإخاء وإنسانية وعالمية ، بل إن مصطلحات لايبدو أن معانيها قد تبدلت أو تحرفت قد جرى تبديلها وتحريفها مثل : خير وشر ، وحق وباطل ، وصواب وخطأ . .

واستعمال المصطلحات بمضامينها الغربية قد فرض علينا حياة ثقافية زائفة لاتتطابق مع واقعنا ، ولا مع أصول ثقافتنا ، وتكويننا النفسى والتاريخى ، فهى تفرض علينا أن نعيش حياة غربية لها ظروف تختلف عن ظروفنا ، وأصول تختلف عن أصولنا ، وتكوين يختلف عن تكويننا النفسى التاريخى ، وهى لذلك تجعل منا أمساخاً مشوهة ، فلا هى تعيش

حياتها التى تلائمها ، ولاهى بقادرة على أن تعيش حياة غريبة عنها، وهذا هو سر الفشل الذريع الذى منيت به تجارب التطبيق الغربى سواء منها النموذج (الليبرالى) التحررى المنبثق من واقع المجتمع الغربى الرأسمالى ، أو النموذج الاشتراكى المستند إلى واقع المجتمع الروسى أو الصينى . .

وقد انعكس هذا الفشل المر بنتائجه المحزنة على واقعنا طوال أكثر من نصف قرن ، فلم يترك جانباً من جوانب حياتنا الاعتقادية أو الأخلاقية أو الثقافية أو السياسية أو الاقتصادية أو الاجتماعية ، إلا وقد عمل فيه إفساداً وتخريباً وتشويهاً . حتى أصبحت حياتنا كلها مزيجاً من الفوضى والاضطراب والتخبط الذى لاحدود له .حتى لم نعد نعرف لأنفسنا شخصية أو اتجاهاً . . .

فشلنا فى التقليد الثقافى فى جميع المجالات فلم نحافظ على ثقافتنا ولم نبن ثقافة جديدة تحل محلها، حتى الأشكال الأدبية أفسدناها ومسخناها فلا نحن حافظنا على ماعندنا من تراث جليل فى الشعر والقصة وبنينا عليه ، ولانحن جارينا الغرب فى مضماره فى هذه الأشكال ، ونقلنا المسرح عن الغرب فنقلنا مسخاً يفزع الرجل الغربى من مشاهدته .

وفشلنا فى التقليد السياسى فلا حققنا حرية الفرد على النموذج (الليبرالى) ولاحققنا قوة الدولة على النموذج الاشتراكى الروسى .

وفشلنا فى التقليد الاقتصادى فلا حققنا الوفرة والازدهار على النموذج الليبرالى ، ولاحققنا عدالة التوزيع ولو على المستوى الروسى فى التطبيق الاشتراكى .

ولما لم يكن هنا مجال بسط ذلك كله ، فلا أقل من مثال نضربه ؛ ولما كان الأدب هو ترجمان النجاح والفشل لأنه التعبير عن حصيلة التجربة الإنسانية ، فلنأخذ نموذج الأدب للدلالة على ما وصلنا إليه من تخبط وفوضى يقول شكرى عياد فى كتاب « الأدب فى عالم متغير » فى تسجيل هذا التخبط وهذه الفوضى فى مجال الأدب مايلى : « لقد عاش أسلافنا فى ظل حضارات كانت تمدهم « بمواقف » واضحة من معظم ماتجرى به الحياة ، فكانت استجابة الشاعر لماجريات الحياة تتميز بمزيد من الحساسية . ولكنها تنطوى على مواقف لا فضل فيها للشاعر نفسه . بعبارة أخرى كان الشاعر يسخط أو يثور أو يحب أو يكره أو يخاف طبقاً لحضارة عصره ، وبالنسبة إليها . أما اليوم فإن كثيراً من مجريات الحياة لايثير فى نفوسنا استجابات واضحة. وكثيراً مانضبط أنفسنا فى مثل هذه المواقف ونحن نتساءل ماذا جرى لنا ؟ هل نحن مخلوقات شاذة لاتتأثر كما سمعنا أن الناس فى مثل مواقفنا هذه يتأثرون ؟ أو أن ماكنا نقرؤه من وصف مشاعر الآخرين ، فى مثل هذه الحالات ، هو مجرد كذب ونفاق ؟ ولايلزم أن يكون أحد الجوابين صحيحاً . بل الراجح أن الفرق بيننا وبين من سبقونا هو الفرق بين عالمنا وعالمهم ، فعالمهم كان يطبع نفوسهم على استجابات أكثر وضوحاً ونقاء، فى حين أن عالمنا ، لأسباب كثيرة ليس هنا محل الحديث عنها ، طبعنا على القلق والحيرة ، فنحن نستقبل كثيراً من ماجريات الحياة منقسمين على أنفسنا ، عاجزين عن اتخاذ موقف واضح » ص ٨٣ .

• • •

القرآن وقياس التغير اللغوى :

وإذا أردنا قياساً لمدى التغير الذى أصاب اللغة العربية فإن ذلك لن يعيننا ، لأن اللغة العربية لها مقياس خالد ثابت هو القرآن الكريم الذى حفظ الله به هذه اللغة ، وحفظ من خلالها فطرة الإنسان المستقيمة وشخصية الأمة العربية المسلمة التى تمثل هذه الفطرة ، وما علينا إلا أن نرجع إلى هذا المقياس لنعرف مدى التغيير .

إن السر فى تباعد المسلمين عن القرآن ، وعجزهم عن فهمه الفهم الصحيح ، وعدم التأثر به التأثر الذى يغير النفوس ويصلح فساد القلوب والعقول ، وتصلح معه الحياة هو فى هذا التغير الذى أصاب اللغة العربية ، والتى أصبحت تعطى الكلمات دلالات غير الدلالات العربية التى نزل على اصطلاحها القرآن الكريم .

وإن التخبط الذى نراه فى تفسير القرآن ، والاختلاف حول دلالاته ومعانيه، هو سبب تسلط الرأى الذى يستمد مفاهيمه من دلالة المصطلحات الحديثة .

إن التغير اللغوى قد أفسد على المسلمين دلالات القرآن العربية الصحيحة وصنع حجاباً كثيفاً بين عقول المسلمين وقلوبهم وبين القرآن ، كما فتح الباب للأهواء والشبهات أن تقتحم تفسير القرآن بلا حدود ولاضوابط .

وإذا أردنا مثالا قريباً على ذلك فلنأخذ مثال التفسير العصرى لصاحبه الدكتور مصطفى محمود ، لقد تحلل صاحب هذا التفسير من كل الدلالات العربية: لمعانى الألفاظ القرآنية ، وأحل محلها شطحات

مما أملها عليه دراساته الفلسفية والصوفية ومالا أدرى ! فنحن نجد مصطفى محمود يحاول أن يفرغ الآخرة من كل مضمون حقيقى حسى ، ويجعل مافيها من حساب وثواب وعقاب ، ونعيم وعذاب وجنة ونار مجرد مجازات رمزية لحقائق معنوية خالصة ، فإنه يقحم على القرآن وعلى اللغة العربية دلالات مستخلصة من التراث الفلسفى المتلبس بالنزعة الصوفية حيناً والنزعة المثالية التجريدية التى غلبت على جانب من الفكر الفلسفى الغربى الحديث حيناً آخر .

إن الفصل بين ماهو حسى وماهو معنوى ، هو فصل غريب عن العربية وتراثها ، كما هو غريب على حقائق العالم الذى توحدت فيهجوانب الأحاسيس والمعانى ، والماديات والروحيات ، كما هو غريب عن الإسلام

إن احتقار العالم المحس لحساب عالم المعانى احتقار غريب على فطرة الإنسان المتكامل بين الحسى والمعنوى ، واحتقار غريب على ميراث العربية الأولى التى حفظت على العالم وحدته ، ورفضت احتقار صنع الله وبديع خلقه ، والذى يتجلى من خلال هذا العالم الذى توحد فيه الحسى والمعنى ، وتجلى فيه الله بصفاته وآياته ، وصرف القرآن انتباه البشر إلى بديع صنع الله فيه بدءاً من الحشرة التى تصنع العسل ، إلى الإبل التى تحمل الناس ، إلى الجبال التى تثبت الأرض ، إلى النبات والماء والسماء والأرض ، إلى الإنسان الذى جمع الله فيه الطين والنفس فكان آية أسجد الله تعالى له ملائكته .

الشق الثــانى : نقطة البداية لوقف تدهور اللسان العربى :

لقد كان ما سبق بياناً لمدى تدهور اللسان العربى ، فما السبيل لوقف ذلك التدهور ؟ أو بعبارة أخرى ماهو المخرج من هذا التخبط والفشل والضياع والفوضى التى نعيشها بسبب هذا التدهور الذى يعكس تدهوراً فى البناء النفسى والاجتماعى ، أو تفككاً فى الشخصية العربية الإسلامية ؟

لقد طرحت الأحداث المريرة التى تعيشها الأمة العربية المسلمة هذا السؤال على كثيرين ، منهم أولئك الذين بهرهم سحر الحياة الغربية فساروا وراء سرابه ، ولندع شكرى عياد مرة أخرى يعبر لنا عن مدى بلبلتهم وخيبتهم ، فلنسمعه يقول واصفاً مأزقهم ومأساتهم « إن فكرة الحداثة ، برغم كل ما كلفت أصحابها من جهد ، ومادفعتهم إليه من خصومات ، وما حشدوا لتأييدها من منطق ، كانت فكرة تقوم على تفاؤل شديد ، بل لاتخلو من سذاجة .

أما التفاؤل فلأن الحضارة الغربية بدت لأصحاب المدرسة الحديثة فى صورة مثالية ، فلم يلتفتوا إلى مافيها من تناقضات ، وكان أخذهم منهاأخذاً لما . فكل شىء عندهم جديد ، وكله نافع ، وكله سواء فى أنه يمثل فكراً راقياً وحضارة انتهى إليها تقدم البشرية .

وأما السذاجة فلتصور أن الأخذ طريق سهل،فهو يبدأ تقليداً ومحاكاة ، ثم يستحيل التطبع طبعاً ، ولاتلبث أن تظهر شخصيتنا القومية من خلال القوالب التى استعرناها من الغرب .

ولكن الطغيان النازى ثم الحرب العالمية الثانية . نسخا التفاؤل ، وكشفا عن تناقضات الحضارة الغربية لمن لم يفكر قط فى هذه التناقضات ، وكانت الجريمة البشعة ، جريمة اغتصاب فلسطين شيئاً فاق كل جرائم الاستعمار القديم ، وأثبت أن المصالح العاجلة أو البعيدة لبعض فئات الحكام يمكن أن ترتكب من عمليات الغش والتضليل بين شعوب الحضارة « الراقية » مايعجز عن فضحه فلاسفتهم الإنسانيون .

وفى الوقت نفسه ظهرت سذاجة التصور القديم عن إمكان اقتباس نظم الحضارة الغربية دون أن يطرأ تبدل عميق على طرق الحياة وأساليب التفكير . بدأ يظهر أن نظم التعليم ، والقضاء ، والحكم ، التى اقتبست من أوروبا بعيدة عن الواقع الذى يعيشه الناس ، مجافية لميول النفس العربية حتى نفوس أولئك الذين عاشوا فى أوربا ، وتتلمذوا لعلمها ، وتشبعوا بثقافتها (اقرأ « يوميات نائب فى الأرياف » و « عصفور من الشرق » لتوفيق الحكيم ، و « قنديل أم هاشم » ليحيى حقى) .

لاجرم يتزلزل إيمان « المدرسة الحديثة » بالثقافة الغربية المعاصرة ، ويعود أقطاب هذه المدرسة ، أواخر أيامهم ، إلى التراث العربى القديم ، إلى عصور الإسلام الأولى ، يستمدون منها إلهامهم ، وكأنهم نفضوا أيديهم من « الحداثة » التى سلخوا فى الدعوة إليها الشطر الأكبر من أعمارهم ، ورجعوا إلى ما نهجه الجيل السابق لهم من خطة الإحياء والتجديد ، إلا أنك تلمح فى كتاباتهم الإسلامية نبرة من الحنين إلى فردوس مفقود لاتجدها عند أسلافهم ، نبرة تزداد ظهوراً مع الزمن ، قارن مثلا « الفتنة

الكبرى » و « الشيخان » لطه حسين ،أو« عبقرية محمد » و « عبقرية الإمام» للعقاد ، بحيث يسوغ القول أن « المدرسة الحديثة » مع كل ما اصطحبته فى دراستها للتراث الإسلامى من مناهج الغربيين فى التحليل والعرض ، كانوا أقل عقلانية من أسلافهم الذين نشأوا فى الثقافة الإسلامية وغلبت عليهم طول حياتهم ، وسر ذلك سيبدو — أنه فى حين أراد المتقدمون أن يلقوا صولة الحضارة الغربية بمثل سلاحها ، كان المتأخرون يفرون من الحضارة الغربية إلى تراث الإسلام ، فهم يبحثون فى التراث عما يناقض مبادىء الحضارة الغربية بنفس الحماسة التى كانوا يبحثون بها عما يوافق هذه المبادىء ، أو أشد حماسة » الأدب فى عالم متغير ص ١٣-١٥

• • •

مخرج حديث اسمه الأصالة :

ما إن وقعت الواقعة فى صورة الهزيمة الكاسحة فى ٥ يونيو عام ٦٧ ، حتى قامت قيامة المدرسة الحديثة ، وتزلزل كيان الجيل الجديد من أبنائها ، وتزلزلت ثقتهم فى الغرب وحضارته ، وفى الاشتراكية وشعاراتها ؛ وبدأوا يبحثون عن مخرج من هذه الأزمة أو الورطة ، واهتدوا إلى هذا المخرج فى الأصالة ، وأخذوا يهتفون لها ويهللون باسمها كما يفعل تاجر الأدوية المغشوشة فى الأسواق والذى يزعم أن دواءه قادر على شفاءجميع الأمراض . .

• • •

مفهوم الأصالة عند المحدثين :

ولكن ما الذي يعنيه مفهوم الأصالة عند أكثر المفكرين المحدثين ؟ إذا رجعنا إلى دعاة « الأصالة » والذين هم أنفسهم دعاة « الحداثة » فسوف نجد أنفسنا أمام مذاهب شتى ، وطرائق متباينة ، تماماً كما نجد أنفسنا أمام مفهوم « الحداثة » ، فعلى الرغم من الرفض المظهرى للتبعية للغرب عند أصحاب الحداثة والأصالة إلا أن التبعية قد تغلغلت فيهم حتى النخاع ، وكلما حاولوا التملص منها كلما أبعدوا إيغالا فيها ، كما يفعل الواقع فى الوحل ، أو المغروس فى الرمال المتحركة ؛ فكما كانت الحداثة تعنى التبعية للغرب ، فإن الأصالة تستمد مفهومها أيضاً من الاصطلاح الغربى ، وكما يضطرب مفهوم الأصالة عند الغربيين أنفسهم حسب منازع القائلين به ، يضطرب كذلك مفهوم الأصالة عند تلامذتهم من العرب ، لذا لانجد عند هؤلاء للأصالة معنى واحداً متفقاً عليه ، ولا مفهوماً محدداً يمكن الاطمئنان إليه .

وإذا أخذنا علماً من أعلام الحداثة وقف حياته على التبشير بها وهو الدكتور زكى نجيب محمود صاحب كتاب « الشمس تشرق من الغرب » ، وهو فى نفس الوقت أصبح اليوم علماً من أعلام الأصالة وأبرز الداعين إلى تجديد الفكر العربى ، فإننا سنجد مفهومه للأصالة مرتكزاً على أسس التفكير الغربى ، منطلقاً من نفس مفاهيمه ، فالأصالة عنده عملية انتقائية حرة من التراث لا ضابط لها سوى التقدير الذاتى المنبثق من الحس الغربى والإدراك الغربى لحقائق الأشياء ، فهو يريد أن يخضع الإسلام لعملية تغيير جذرى تجعله يتمشى مع المفهوم الإغريقى الغربى للقيم الفلسفية

التى تتمثل فى فهم خاص للخير والحق والجمال ، لذا نراه يثور ثورة عنيفة كما يفعل ذلك توفيق الحكيم — حين تعلو نغمة المطالبة بالعودة إلى تطبيق الشريعة الإسلامية ، ويهوله كما يهول توفيق الحكيم أن يطالب المسلمون بإحلال الشريعة الإسلامية محل القانون الوضعى الغربى الذى يمثل التبعية للغرب فى عقول المسلمين المدركين لحقائق الأمور .

إن تطبيق الحدود وقطع يد السارق ورجم الزانى والقصاص من القتلة هو فى عرف هؤلاء عودة إلى الهمجية الوحشية ، يؤرق وجدانهم ويؤذى مشاعرهم ، وإن اغتصاب طفلة فى الثالثة من عمرها لايؤرق هذه المشاعر ، وإهدار دماء الناس وأموالهم ، وترويع الآمنين دون عقاب رادع لايؤرق هذه المشاعر . . . ماهى الأصالة إذن . . . ! إن الأصالة تعنى فى عرف هؤلاء تطويع الإسلام للمفاهيم الغربية عن الحق والعدل والخير ، ولذا نجد هؤلاء يرفضون من تراث العرب المسلمين كل ما يتعارض مع هذه المفاهيم . . . !

• • •

السلفية الصحيحة والتجديد الإسلامى :

إن السلفية الصحيحة هى عربية إسلامية ، ومفتاح التجديد الإسلامى بها هو اللغة العربية ، وهو ما اتفق عليه السلف ، وهو ما عبر عنه الشاطبى فى كتابه « الموافقات » تحت عنوان « الشريعة عربية » فقال : « إن هذه الشريعة المباركة عربية لا مدخل فيها للألسن الأعجمية . وأن القرآن ليس فيه كلمة أعجمية عند جماعة من الأصوليين ، أو فيه ألفاظ

أعجمية تكلمت بها العرب ، وجاء القرآن على وفق ذلك فوقع فيه المعرب الذى ليس من أصل كلامها . . . والمقصود هنا هو أن القرآن نزل بلسان العرب على الجملة ، فطلب فهمه إنما يكون من هذا الطريق خاصة ، لأن الله تعالى يقول :

« إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا » (يوسف : ٢)

وقال :

« بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ » (الشعراء : ١٩٥)

وقال :

« لِسَانُ الَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ » . (النحل : ١٠٣)

وقال :

« وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ » (فصلت : ٤٤)

إلى غير ذلك مما يدل على أنه عربى ، وبلسان العرب ، لا أنه أعجمى ولابلسان العجم ، فمن أراد فهمه فمن جهة لسان العرب يفهم ، ولاسبيل إلى تطلب فهمه من غير هذه الجهة . هذا هو المقصود من المسألة » (موافقات جـ ٢ ص ٦٤) .

القرآن العربى لايقصد به مجرد اللغة :

ولم يفهم أحد من السلف النص على أن القرآن عربى على أنه مجرد ارتباط عارض بين القرآن ولغة ماهى العربية ، ولم يفهم أحد منه أن القرآن كان

يمكن أن ينزل بلغة أخرى ، أو أن المقصود فقط هو تحدى العرب أن يأتوا بمثله ، وقد نزل بلغتهم . . . إن هذا النوع من الفهم باب عظيم من أبواب الشر يجب أن يغلقه المسلمون ولا يسمحوا بفتحه أبداً .

وأما أن الإسلام هو دين الناس جميعاً فهو حق لايكابر فيه إلا جاحد ... وأما أن الإسلام يسوى بين المسلمين جميعاً على اختلاف أجناسهم وألوانهم فذلك حق لايكابر فيه إلا جاحد . . .

وأما أن يكون المسلمون جميعاً هم تبع للعرب فى لسان هذا الدين فذلك أيضاً حق لايخالف فيه إلا جاحد . يقول الشافعى رضى الله عنه فى تحرير هذا المعنى « فإذا كانت الألسنة مختلفة بما لايفهمه بعضهم عن بعض : فلا بد أن يكون بعضهم تبعاً لبعض ، وأن يكون الفضل فى اللسان المتبع على اللسان التابع .

وأولى الناس بالفضل فى اللسان من لسانه لسان النبى ، ولايجوز — والله أعلم — أن يكون أهل لسانه اتباعاً لأهل لسان غير لسانه فى حرف واحد، بل كل لسان تبع للسانه ، وكل أهل دين قبله فعليهم اتباعه » .

وقد بين الله ذلك فى غير آية من كتابه — وبعد أن يورد الإمام الشافعى الآيات القرآنية التى وردت فى هذا المعنى يقول : فأقام حجته بأن كتابه عربى ، فى كل آية ذكرناها ، ثم أكد ذلك بأن نفى عنه — جل ثناؤه — كل لسان غير لسان العرب فى آيتين من كتابه :

فقال تبارك وتعالى :

« وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ »

(النحل : ١٠٢)

وقال :

« وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ » (فصلت : ٤٤)

قال الشافعي « وعرفنا نعمه — يقصد العرب بما خصنا به من مكانة فقال :

« لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ »

(التوبة : ١٢٨)

وقال :

« هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ »

(الجمعة : ٢)

وكان مما عرف الله نبيه من إنعامه أن قال :

« وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ » (الزخرف : ٤٤)

فخص قومه بالذكر معه بكتابه ، وقال :

« وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ » .

وقال :

« وَلِتُنْذِرَ أُمَّ القُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا » (الأنعام : ٩٢)

وأم القرى مكة ، وهى بلده وبلد قومه ، فجعلهم فى كتابه خاصة ، وأدخلهم مع المنذرين عامة ، وقضى أن ينذروا بلسانهم العربى : لسان قومه منهم خاصة » .

ورتب الشافعى على ذلك قوله « فعلى كل مسلم أن يتعلم من لسان العرب مابلغه جهده ، حتى يشهد به ألا إله إلا الله ، وأن محمداً عبده ورسوله ، ويتلو به كتاب الله ، وينطق بالذكر فيما افترض عليه من التكبير ، وأمر به من التسبيح والتشهد وغير ذلك .

وما ازداد من العلم باللسان ، الذى جعله الله لسان من ختم به نبوته ، وأنزل به آخر كتبه — : كان خيراً له . كما عليه يتعلم الصلاة والذكر بها ، ويأتى البيت وما أمر بإتيانه ، ويتوجه لما وجه له . ويكون تبعاً فيما افترض عليه وندب إليه ، لا متبوعاً » .

ثم يقول : وإنما بدأت بما وضعت من أن القرآن نزل بلسان العرب دون غيره ، لأنه لايعلم من إيضاح جمل علم الكتاب أحد جهل سعة لسان العرب ، وكثرة وجوهه ، وجماع معانيه وتفرقها ، ومن علمه انتفت عنه الشبه التى دخلت على من جهل لسانها » (الرسالة ص ٤٦ - ٥٠)

اللغة المطلوب تعلمها :

واللغة المطلوب تعلمها ليست هى اللغة التى ذكرنا ماذكرنا من فساد مصطلحها ومن فساد إشاراتها وعباراتها وتراكيبها ، وإنما اللغة المطلوب

تعلمها هي اللغة التي نزل القرآن على حرفها وإشاراتها وعباراتها وتراكيبها ومصطلحها . . وهي لغة القرن الهجري الأول ، والتي تتمثل في شعر العرب وفي لغة أعرابهم التي جمعها علماء اللغة في القرون الأولى ودونوها ورتبوها ، وهي لغة حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ولغة أصحابه . . .

تلك هي اللغة التي يجب على كل مسلم أن يجتهد في تعلمها ، أما من نصب نفسه للتعليم والفتيا والاجتهاد فلا يحل له أن يقول في كتاب الله شيئاً إذا لم يكن عالماً بهذه اللغة ، فقيهاً في لسانها ، بصيراً بمعاني عباراتها ، مطلعاً على جملة ماروى للعرب منها .

لقد قال مالك بن أنس رضي الله عنه في القرون الأولى « لا أوتى برجل يقول في كتاب الله بغير علم بالعربية إلا جعلته نكالا » .

ترى ماذا كان يقول الإمام رضي الله عنه لو أنه عاش اليوم فرأى أناساً يتصدون للقول في كتاب الله وليس لهم في علم العربية عشر معشار ماكان يعلمه صبي من صبيان عصره ! ؟ .

أتراه كان يخرج على هؤلاء شاهراً سيفه يرى فيهم بغاة على كتاب الله ودينه . ؟ ! .

• • •

السؤال الثالث :

— ما هى المسئولية التى يحملها كل مؤمن ، والتى تحملها أنت فى بيتك ، وفى أسرتك ، لتنشـئة أهلك وأبنائك على اللغـة العربية القرآنية ، ذلك بالجهد الذاتى يدعوك الله اليه ، ابتداء من تحفيظ الصغار والكبار ما يقيم ألسـنتهم من كتاب الله على يد قارىء متخصص للقرآن الكريم ؟

— وكذلك مسئوليتك عن أن يقترن تقويم لسان الكبار والصغار من أسرتك بالمحفوظ من القرآن الكريم بشرط العمل بأحكامه، والتخلق ، بأخلاقه ، والاعتزاز بأن تكون الفصحى القـرآنية خطوة بعد أخرى — هى لغة التخاطب اليومى ، التى ننقيها من كل غريب لسلامة التعريب ٥

— ما رايك فى مثل هذا الجهد الذاتى لتعريب الألسنة وتقويمها بصحة قراءة القرآن وتدبره ٠٠ مهما كان الطريق طويلا ٠٠ اذا ما جعلناه بالصـدق ، والاخلاص ، والأسـوة الحسـنة مثمـرا ؟ ٠

الإجابة :

يقودنا هذا السؤال مباشرة إلى حقيقة هامة تغيب عن وعى كثير من المشتغلين بأمور التعليم ، وهى أن التعليم الصالح المثمر هو الذى يتوافق مع الفطرة الإنسانية من جوانبها المختلفة حسب دورة التعلم الربانية التى يتلقى الإنسان من خلالها علمه المقدور له ، مما تصلح به نفسه ، وتستقيم به حياته ، وكل تعليم خالف عن أصل هذه الفطرة فلا بد أن يكون مصيره المحتوم هو الفشل والبوار .

وهدف التعليم يجب أن يكون متفقاً مع صلاح الفطرة الإنسانية وغاياتها بما يصلح به النشء ، وما يتناسب مع إمكانياتهم وخصائصهم .

لقد أرسى العلام الخبير قواعد هذه التربية السليمة فى كتابه الحكيم ، على أتم الأسس وأوفاها بحاجات الفطرة الإنسانية ، وحاجات المجتمع الإنسانى ، ومن هدى إلى هذا الكتاب وهدى به ، فقد هدى إلى صراط مستقيم ؛ ومن طلب الهدى فى غيره أضله الله، وذلك هو معنى قوله صلى الله عليه وسلم : تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدى أبداً ، كتاب الله وسنتى » .

ومالم نرجع إلى هدى الله تعالى ، فى طلب الصلاح ، فلن يصلح أمرنا ، مهما بذلنا من جهد ، ومهما تكبدنا من نفقات ، فبداية الطريق الصحيح هى أن نعرف ماهو المطلوب على وجه الدقة ، وأن نعرف كيف نصل إلى هذا المطلوب من أقصر الطرق وأسلمها ، وأوفاها بالحاجة ، وأقلها كلفة ، وأجزلها عائداً ، وذلك الطريق هو طريق الكتاب المبين . .

انحراف مناهج التعليم :

ولقد انحرفت مناهج التعليم فى البلاد العربية والإسلامية عن هذا النهج القويم بتوجيه استعمارى خبيث حين جعلت همها الأول هو تخريج كتبة يعينون الإدارة الاستعمارية فى دواوين الحكومة على النهج الذى تريده هذه الإدارة ، فكان أن فصلت هذه المناهج بين التعليم والتربية من جانب ، وقصرت التعليم بعد فصله عن التربية على بعض المجالات النظرية المحدودة

من جانب ثان ، وربطت أجيال المتعلمين في هذه المجالات بالنموذج الغربي من جانب ثالث، وقطعت مابين المسلمين وأصول لغتهم ودينهم من جانب رابع .

وتخريج إنسان يعرف القراءة والكتابة والحساب وبعض المعلومات المشوهة عن قصد عن الحياة وعن العالم ، وعن تاريخه ومجتمعه الخاص ، معناه تخريج مسخ مشوه ، قاصر الإدراك ، معزول عن حقيقة ذاته وحقيقة أمته ، وموقعها من العالم والتاريخ . . وذلك ماحدث .

وحين تسلم الوطنيون في البلاد العربية مقاليد الأمور من يد المستعمر ، كانوا هم أنفسهم أخلص الناس في اقتفاء أثره ، والسير على منواله ، لأنهم لايعرفون لهم في الحياة طريقاً غير الطريق التي رباهم الاستعمار عليه .

وعلى الرغم من تقدم علوم التربية ومناهجها في الغرب ، وعلى الرغم من تعرف المتخصصين في التربية على هذه العلوم والمناهج المتقدمة ، إلا أن ذلك لم يجد كثيراً ، لأن طرائق التعليم الفاسدة قد ثبتت واستقرت من جانب ، ولأن السياسة التي تقوم على الاستبداد رأت في تثبيت تلك الأوضاع الفاسدة تثبيتاً لسلطانها من جانب آخر . وذلك لأن وضع مناهج تحرر الفرد ، وتقوم اعوجاجه ، وتنمي ذاته ، وتجعله يرفض الانسياق الأعمى وراء مايقال له ، ومايراد منه ، ومايراد به ، وإن تعارض مع كرامته ، وشرفه ومصالحه ، أمر يفسد على المستبدين سيطرتهم ، ويفسد عليهم الاستمتاع بسلطانهم المطلق على جموع فقدت رشدها ، وفقدت إرادتها نتيجة فساد التعليم .

. . لقد أصبح التعليم فى البلاد العربية المحررة من السلطة الاستعمارية مظهراً من مظاهر الدعاية والتمويه السياسى ، إذ يكفى أن يعلن عن فتح كذا مدرسة ، وتخريج كذا طالب فى مجال الدعاية الرخيصة ؛ ولكن ماذا يجدى أن تخرج المدارس والجامعات آلاف أوملايين من غير المؤهلين لإصلاح أمر أنفسهم ، وتدبير شئون أمتهم .

. . . إن المجتمعات الغربية التى نقلدها فى غير الصالح من أمورها قد سبقت سبقاً بعيداً فى أمور التربية والتعليم فيما يناسب أحوالها ومبرراتها ، ونجحت فى أن تضع التعليم لمصلحة المجتمع ، وأن تحرره من أهواء السياسة وأن تتجه به إلى الكيف لا إلى الكم ، وأن تنجح فى وضع التعليم فى عمارة المجتمع على أسس علمية دقيقة فى حدود الأهداف التى وضعوها لأنفسهم وهى الرفاهية والقدرة ، على الرغم من فساد معتقداتهم ، ومن أنانيتهم .

لانريد أن نخوض جوانب الفساد فى حياة المجتمع الغربى فمجال ذلك موضوع آخر ، وإنما الذى نريد أن ننبه إليه هو أنهم قد حددوا لأنفسهم أهدافاً قريبة قاربوها أو أنجزوها مصداقاً لسنة الله فى بقاء الأمم :

« مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نزِدْ لَهُ فِى حَرْثِهِ وَمَن كَانَ يُرِيدَ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَالَهُ فِى الْآخِرَةِ مِنْ نَّصِيبٍ »
(الشورى : ٢٠)

وهؤلاء أرادوا حرث الدنيا وطلبوه بأسبابه فآتاهم الله منه جرياً على سنته فى العدل :

« وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا » (الكهف : ٤٩)

أما نحن فقد تحولنا عن طلب الآخرة ، ثم طلبنا الدنيا بغير أسبابها فلم تؤتها ، وضيعنا على أنفسنا الدنيا والآخرة .

. . إن المجتمعات الغربية لاتتفوق علينا ذكاء أو قدرات ، وإنما تتفوق علينا قدرة على التخطيط والتنظيم ، والاستفادة من نتائج العلم ، والقدرة على تنميتها . . . لقد قضى عدل الله فى أن تكون القدرات الإنسانية مشاعاً بين الناس ، ففى الناس ميراث مشترك من علم الإنسان الأول ، ولكن آفة العلم هى النسيان والإهمال وسوء الاستعمال ، ولقد ورثنا ميراث علم الدنيا والآخرة وأكرمنا الله به ما أكرمناه ، وضيعنا الله حين ضيعناه .

لقد كنا فى مقدمة الأمم حين كانت لنا عقولنا المستقلة وإرادتنا الحرة ، وكان وراءنا تراث الدين يسدد خطانا ، فتعلمنا وعلمنا ، وتربينا وربينا الأمم ، فلما فقدنا ذلك تخلفنا فى ذيل الأمم ، وأدركنا ثم سبقنا من كنا لهم بالأمس معلمين وهداة ، وذلك حين حرروا عقولهم وإراداتهم رغم أنهم لايملكون من ميراث الدين الحق مانملك . .

• • •

الغرب ومناهج التعليم العربية الإسلامية :

ومما يثير الأسى أن الغرب قد بدأ قفزته الهائلة بعد ماتعرف على مناهج الإسلام فى التربية والتعليم ، وتحول عن الطريقة المدرسية التقليدية ،التى تقوم على حفظ المعلومات المقننة واجترارها ؛ إلى الطريق التى تقوم على

النظر والملاحظة والتجريب والتحرى والاسكتشاف ، وبمعنى آخر حين تحول من الطريقة المدرسية القرطاسية إلى الطريقة الأمية :

الطريقة الأميــة :

وقد يعجب القارىء من هذا الاصطلاح ، وقد يحسبه نكتة أومبالغة غير مستساغة ، ولكنى فى الحقيقة حين وضعت هذا العنوان لم أكن لاهياً ، ولاساخراً ولا مبالغاً ، وإنما وضعته وأنا أعنيه جاداً غير هازل .

المنهج الأمى فى التعليم :

يقوم المنهج الأمى فى التعليم على الأساس الذى تقوم عليه الطريقة الحديثة فى الإنجليزية والتى تسمى طريقة : انظر وقل .

وهى طريقة سمعية بصرية تعتمد على التلقى المباشر من مصادر المعرفة الحقيقية فالطفل يرى الشىء أو صورته أو يسمع الصوت ، ثم يسمى الشىء أو يردد الصوت بمساعدة المعلم وتوجيه ، وهذه الطريقة هى نفسها الطريقة التى علم الله بها أبونا آدم عليه السلام . وهى نفسها طريقة العرب الأميين .

معنى الأمية :

ولا أريد هنا أن أخوض فى معنى الأمية ، وإنما أنبه إلى التشويه الخطر الذى طرأ على معناها فى العربية الحديثة حتى أصبحت مرادفا للجهل ، وحتى أصبحت برامج تعليم القراءة والكتابة تسمى (برامج محو الأمية) .

إن الأمية فى اللغة العربية القديمة لا علاقة لها بالجهل من قريب أو بعيد ، ولقد سمى الله نبيه المصطفى « النبى الأمى » ، ثم عرض هـذه التسمية فى معرض التكريم فى قوله « آمنوا بالله ورسوله النبى الأمى الذى يؤمن بالله وكلماته واتبعوه لعلكم تهتدون » .

فهل يأمر الله تعالى — حاشا لله ونعيذ رسوله — باتباع النبى الجاهل ، وكيف يكون الجاهل معلماً واجب الاتباع بل سيد المعلمين ، وسيد الأولين والآخرين ، أما من عقول نتدبر بها القرآن ، أم على قلوب أقفالها ! ؟

الأمى هو الباقى على أصل الفطرة :

إن الأمى فى اصطلاح القرآن هو الباقى على أصل الفطرة لم تفسده العادات السيئة ، والمذاهب الباطلة ، وقد بسط هذا المعنى الإمام الشاطبى فى كتابه الموافقات تحت عنوان « الشريعة أمية » فقال « هذه الشريعة المباركة أمية ، لأن أهلها كذلك ، فهو أجرى على اعتبار الصالح ويدل على ذلك أمور : أحدها النصوص المتواترة اللفظ والمعنى كقوله تعالى « هو الذى بعث فى الأميين رسولا منهم . . » وقوله النبى الأمى . . » وفى الحديث : بعثت إلى أمة أمية لأنهم لم يكن لهم علم بعلوم الأقدمين ، والأمى منسوب إلى الأم ، وهو الباقى على أصل ولادة الأم لم يتعلم كتاباً ولا غيره ، فهو على أصل خلقته التى ولد عليها » جـ ٢ ص ٦٦ — ٧٠ فما هذا المعنى ؟

معنى هذا أن طريقة الكتابة ليست طريقة التعلم الوحيدة ، ولقد كانت للعرب علوم حصلوها عن غير الطريقة الكتابية ، يقول الشاطبى أيضاً « واعلم أن العرب كان لها اعتناء بعلوم ذكرها الناس ، وكان لعقلائهم اعتناء بمكارم الأخلاق ، واتصاف بمحاسن الشيم ، فصححت الشريعة منها ماهو صحيح ، وزادت عليه ، وأبطلت ماهو باطل ، وبينت منافع ماينفع من ذلك ، ومضار مايضر منه » موافقات جـ ٢ ص ٧١

فمن أين للعرب بهذه العلوم إذا لم تكن هناك وسيلة أخرى للتعلم غير الطريقة الكتابية ؟

والنبى الأمى كان أعلم الخلق بالله وشرائعه وبالحق فمن أين له ذلك إذا كانت الكتابة وحدها هى طريقة التعلم الوحيدة ؟ .

تفسير ذلك هو أن هناك طريقة أساسية للتعلم بالتلقى المباشر بالوسائط السمعية والبصرية عن العالم والأشياء ، وهى الطريقة التى تعلم بها العرب ، واستحقوا بها أن يكونوا جديرين بتلقى القرآن وبتعليم البشر .

الطريقة الأمية هى طريقة اليسر فى التعلم قبل اختراع الكتابة :

ولقد قطعت البشرية مراحل سريعة فى طريق التعلم بالطريقة الأمية قبل أن يخضع التعليم للقواعد المدرسية ، فى التعلم . .

لقد كان الطفل يتدرب مع والديه منذ طفولته على الحياة مباشرة ، وسرعان ماكان يتعلم المشى والكلام ، ويتعلم الصيد والقنص ، وصنع الأدوات ، وأداء الأعمال التى تتطلبها الحياة الاجتماعية ، كان يتعلم اللغة والآداب العامة والتقاليد عن طريق النقل والمباشر .

ولقد كان الأطفال ينشئون فى بادية العرب ، فى أن يشب الطفل منهم عن الطوق حتى يكون قد أجاد من أسرار اللغة وأسرار الفروسية وقواعد الأخلاق والأداب وتقاليد الحياة الاجتماعية ، مايعجز عنه الآن طالبا لجامعة الذى يقضى زهرة عمره فى التعلم عن طريق الكتاب، ولقد كان ذلك النوع من التعليم يتحول إلى مايسميه العرب السليقة ، بمعنى أن تصبح الأمور المكتسبة بالتعلم جزءاً من التكوين النفسى والعقلى ، الذى يستجيب بسرعة وكفاءة لحاجة العقلية والعملية دون جهد عقلى أو عضلى ؛ وحين سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم : من أدبك ؟ أجاب « أدبنى ربى فأحسن تأديبى ، بيد أنى من قريش ، واسترضعت فى بنى سعد » فنص صراحة على أن تربيته القرشية والبدوية كانت عوامل أساسية مع كمال تأديب الله فى تربيته وتأديبه .

. . . إن النهج الأمى الذى يقوم على النظر المباشر ، والتلقى المباشر هو النهج الذى حقق تقدم البشرية ، ولقد أصبح ذلك اليوم حقيقة معروفة كما أصبحت موضوع علم التربية الأساسى ، وهذه الحقيقة تؤكد أن فطرة الإنسان تامة وفى أحسن تقويم ، وأن الله قد زود الإنسان منذ ولادته بأجهزة تعليمية سمعية وبصرية وإدراكية ، قادرة على العمل منذ اللحظة الأولى ؛ وقد أثبتت الأبحاث العلمية أن الطفل يبدأ فى التعلم بعد أيام قليلة من ولادته ، وأن أول درس يتلقاه هو درس الرضاعة ، وبعد فترة وجيزة يبدأ فى التنبه للعالم الذى يحيط به ويبدأ فى تمييز الأصوات ، وأول صوت يتنبه إليه هو صوت أمه ، ثم تبدأ عينه فى تمييز الضوء

ثم يستمر فى التعلم بسرعة كلما تقدم فى النمو . . وهكذا يتعلم الطفل من أسرته ثم من بيئته إلى أن يشب رجلا سوياً يعتمد على نفسه ويسارع فى حياة مجتمعه .

فلما استقرت المجتمعات فى أودية الأنهار ، واستقرت معها الأنظمة السياسية والكهنوتية ، أصبح التعليم وظيفة فى خدمة الطبقة العليا ؛ ونشأت طبقة من المتعلمين بعد اختراع الكتابة الرمزية تعمل فى خدمة هذه الطبقة وقد أدى ذلك إلى ظهور التعلم المدرسى الذى يستخدم الكتابة كوسيلة أساسية للتعلم ،ومع الوقت طغت الطريقة المدرسية فى بعض المجتمعات على الطريقة الأمية ، وشيئاً فشيئاً أصبحت الطريقة المدرسية بما أصابها من جمود وانفصال عن العالم المباشر طريقة عقيمة فى التعلم تحصر اهتمامها فى بعض المحفوظات الجامدة التى تحجر على العقل وتحول دون تقدمه .

الاستغناء بالكتاب عن العـــالم :

وبدلا من أن تكون الكتابة وسيلة مساعدة للطريقة الأمية حلت محلها وعطلت وظيفتها ، ولما كانت القدرات الإنسانية إنما تنضج من التعلم المباشر حسب سنة الله فى تركيبها ، فقد كان قطع الصلة بين هذه القدرات وبين العالم ، عاملا من عوامل بطء تقدم المعرفة . .

ولقد ظل الانفصال بين العالم والإنسان يزداد كلما ترقى أسلوب الكتابة ، وزاد اعتماد المعلم على الحرف المكتوب ، وظل الأمر يتدرج على أيدى المدرسين الإغريق خاصة ، إلى أن حدث إهدار للعالم المادى الخارجى على يد الفلاسفة الإغريق ، الذين اكتسبت الكلمة المكتوبة

على أيديهم قيمة مبالغاً فيها ، إلى الحد الذى حلت فيه محل الواقع المعين ، واكتسبت عند هؤلاء الفلاسفة قداسة وإجلالا إلى الحد الذى جعلتهم يتبجحون بالمعرفة النظرية المجردة ، ويرون فى التفكير المجرد أعلى مراتب المعرفة ، وهكذا وضع الفيلسوف الإغريقى أرسطو منطقه الذى يقوم على أساس القضايا الشكلية ، والتى لايرتبط صدقها بالواقع المتعين ، وإنما يقوم على نسق من الاستدلال العقلى الذى يجعل صحة القضية المنطقية مرتبطاً بما يسميه بالبدهيات العقلية . ولقد كان المنطق الإغريقى عامة والأرسطاطاليسى خاصة ضربة حقيقية حصرت المعرفة الإنسانية وجمدتها فى نطاق مقولات عقلية فارغة المضمون ، حتى ضرب المثل بالسفسطة البيزنطية التى شغلت الفلاسفة فى عصر الإمبراطورية الإغريقية ، والتى يتندر عليها بالأحجية أو اللغز الذى يدور حول البيضة والفرخة أيهما أسبق فى الوجود ، وهو نموذج للجدل الفارغ العقيم الذى لاينتج علماً ولامعرفة ، وليست الفلسفة الإغريقية فى جملتها إلاهذا الجدل الفارغ العقيم حول قضايا الوجود ، وحقائق الأشياء .

ولقد ظل الأمر على هذا الحال حتى جاء الإسلام فأعاد الاعتبار للطريقة الأمية ، وفتح الطريق مرة أخرى أمام نمو المعرفة الإنسانية على أصولها الصحيحة .

الطريقة الأمية والكتابية متكاملتان لامتعارضتان :

هذا الكلام لايقصد منه الانتقاص من قدر الكتابة والكتاب وأثرهما فى الحياة وفى عملية التعلم ، وإنما المقصود هو التنبيه إلى الاستخدام السىء

للطريقة الكتابية ، ذلك أن الوضع الصحيح للطريقة الكتابية ، أنها وسيلة مكلة للطريقة الأمية لابديلا عنها ، فالكتابة هى عملية تسجيل وتحصيل لنتائج الطريقة الأمية ، فالطريقة الأمية تحصل المعرفة بالملاحظة والتجربة ، والكتابة تعين على تسجيل النتائج ، وتعميم الانتفاع بها ، وتسهيل نقلها من مكان إلى آخر ، وتسهيل حفظها إلى وقت الحاجة إليها .

أما أن تأتى الطريقة الكتابية لتحل محل الطريقة الأمية وتنسخها فتلك هى المشكلة التى تعوق عملية التعلم .

إن الإنسان يتعلم العوم بالطريقة الأمية أى بممارسة العوم باستخدام أجهزته الحركية والعصبية داخل الماء ، ولما نجح الإنسان بالتوصل بالتدريب إلى أفضل طرق للعوم أصبح من الممكن تدوين هذه الطرق للارشاد لالتكون بديلا عن التدريب ، فالذى يحفظ أفضل طرق العوم عن ظهر قلب ثم ينزل إلى الماء ليعوم مباشرة فمصيره المحتوم هو الغرق ، وقس على ذلك فى جميع أنشطة الحياة المختلفة . .

القرآن والطريقة الأمية الكتابية :

وحين جاء الإسلام كان العرب هم الأمة الأمية التى تعتمد فى تعلمها على الملاحظة والتجريب ، ولانريد أن ندخل فى جدل حول معرفة العرب الكتابة قبل الإسلام فتلك حقيقة ثابتة لاتحتاج إلى إثبات ، ولكن العرب مع معرفتهم للكتابة لم يعتمدوا عليها فى التعلم كما اعتمد عليها الإغريق والرومان والفرس ، بل إنهم استمروا بعد الإسلام ، ورغم كتابة القرآن ، ورغم حض الرسول صلى الله عليه وسلم على تعلم

الكتابة ، أقول رغم ذلك كله ظلوا طول عدة أجيال لايعتمدون على الكتابة فى التعلم رغم كمال درايتهم بها ، وتمام تمكنهم منها ، واعتمدوا فى نقل علوم العربية والإسلام وروايتها على الطريقة الأميـــة (الرواية الشفهية) أى التلقى المباشر بالسند المتصل ، وبلغ بهم الأمر إلى حد أن جرحوا رواية العالم أو المحدث الذى يروى عن الصحيفة المكتوبة . فانظر بربك مدى ثقة هذه الأمة – التى ترمى (جهلا) بالجهل ، وترمى (تخلفاً) بالتخلف – فى حفظها وعقلها وقلبها .

. . . لكنهم مع الوقت واتساع نطاق المعرفة وتراكمها وتشعبها ظهرت حاجتهم إلى استخدام الكتابة كوسيلة مكملة للطريقة الأمية .

ولقد كان القرآن هو صاحب الفضل فى إيجاد التناسق والتكامل بين الطريقتين ، فلقد وضع القرآن الأساس حين نبه إلى أهمية النظر (الطريق الأمية) وإلى أهمية القلم (الطريقة الكتابية) فى الوقت الذى حض فيه على النظر :

« انظُرُوا مَاذَا فِى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ » (يونس : ١٠١)

أعلى من شأن القلم حين جعله آية من آيات قدرة الله :

« الَّذِى عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ، عَلَّمَ الإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ »

(العلق : ٤ ، ٥)

ولقد جمع القرآن فى أسلوبه التعليمى بين الطريقين ، فقد أمر الله نبيه بحفظه ، كما أمره بتدوينه ، وكان القرآن ينزل على الرسول صلى الله عليه وسلم فيحفظه ثم يمليه على كتاب الوحى .

طريقة القرآن التعليمية :

ولقد وضع القرآن أسس الطريقة التعليمية على نظام مخالف للأسس التى كانت تقوم عليها المدرسية التقليدية ، وذلك من طرق متعددة نجملها فيما يلى : —

١ — ربط العقل الإنسانى بالعالم مباشرة :

وذلك عن طريق التنبيه إلى قيمة هذا العالم ، ودلالته على بديع صنع الله وذلك حين دفع العقول إلى تدبر آيات الله فى هذا العالم ، ولم يكن الهدف من ذلك التوجيه ، هو مجرد النظر ، وإنما كان الهدف هو إحكام الصلة بين العقل والعالم ، باعتبار هذا العالم هو المصدر الأساسى للمعرفة البشرية الصحيحة بهذا العالم ، وباعتباره مصدرا أساسياً للمعرفة بالله عن طريق خلقه ؛ فنحن مطالبون بالنظر فى خلق الله لنعرف قدر الله تعالى ، قال تعالى

« هَٰذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ »

(لقمان : ١١)

ونحن مطالبون بالنظر فى خلق الله لنعرف قدرته تعالى ، قال تعالى :

« أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ۝ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ۝ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ۝ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ »

(الغاشية : ١٧ ، ٢٠)

أى إنه تعالى أمرنا بالنظر فى كل مايقع تحت الملاحظة فى السموات والأرض ، وقد أبطل الله تعالى أسلوب التفكير الفلسفى الذى أجهد العقل ،

وبدد الكثير من طاقاته دون طائل ، بحثاً وراء حقائق الأشياء ومبادئها .
وندد بهذا الأسلوب الذى يريد عبثاً أن يبحث ماوراء الأشياء، مما لا تتاح له معرفته بدلا من أن يبحث فى الأشياء الميسرة للمعرفة ، وذلك فى قوله:

« وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا » (الإسراء : ٣٦)

٢ – التذكير المستمر :

راعى القرآن الكريم الحاجة النفسية إلى مداومة التذكير وذلك بحكم الآفة المتسلطة على النفوس والتى تتمثل فى النسيان ، ويأتى التذكير المستمر فى القرآن الكريم عن طريق إعادة عرض الحقائق الكونية والإنسانية والتاريخية والدينية فى أشكال وصور مختلفة ، لتعميق ذكرها ، وتكثيف تأثيرها ، وجعلها أبداً ماثلة شاخصة أمام نظر القلب الإنسانى حتى لايضل ولا ينسى .

ومن المآخذ التى تدل على الجهل والغفلة عند المستشرقين ، والتى أخذوها على القرآن الكريم وهى من دلائل عظمته ، أنه لايسير على النهج المنطقى المألوف للعقل الفلسفى الغربى ، والذى يعتمد أساساً على الطريقة المدرسية ، وهو أسلوب التفكير العقيم الذى ينطبق عليه قوله تعالى :

« إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ ، وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ » .

(النجم : ٢٣)

والقرآن الكريم لايتناول من القضايا إلا ما كان له وجود واقعى ، سواء أكان هذا الوجود قابلا للتصور والإدراك مثل الوجود المحس ، أم لم يكن مثل وجود الله وملائكته والنفس الإنسانية وما إلى ذلك من حقائق الوجود المغيب ، التى لايتعارض وجودها مع العقل وإن عجز عن إدراك كنهها .

والقرآن حين يتناول هذه الحقائق لايتناولها بأسلوب التسلسل المنطقى الذى يبدأ من المسلمات والفروض ، والذى يتسلسل من الكليات إلى الجزئيات فى نسق جدلى كما يفعل أصحاب المنطق الإغريقى الذى لايخاطب سوى جانب واحد من جوانب العقل الإنسانى ويهدر بقية الجوانب بل ويحتقرها ، وإنما يخاطب القرآن النفس الإنسانية كلها جملة وفى وقت واحد وبصورة متوازنة ، تشبعها وتستغرقها ، وتملأ جوانبها بالاقتناع والرضى والغبطة والعظة والخوف والندم والحب . .

إن الذى خلق النفس الإنسانية وهو بها أعلم ، يعلم أن النفس الإنسانية وحدة متوازنة يجب التعامل معها كعمل موحد متوازن ، ولذلك يبلغ بخطابه القرآنى لها أقصى مدى التأثير والإقناع . وإن الأسلوب الإغريقى الذى يعزل جانباً واحداً من جوانب النفس يتوجه إليه بالخطاب قد جنى جناية شديدة على التوازن النفسى وعوق عملية التعلم قروناً طويلة .

ولقد تنبه علم النفس التربوى أخيراً إلى هذه الحقيقة القرآنية ، ورفض الأسلوب الإغريقى المدرسى فى التعلم ؛ وتبنى نهجاً تعليمياً قريباً من النهج القرآنى يراعى وحدة النفس الإنسانية ، وتداخل عمليات الإدراك

والإحساس والتخيل ، ولذا يشدد أسلوب التربية الحديثة على ضرورة التوجه المتوازن إلى النفس الإنسانية ، وعلى ضرورة التعامل مع كل جوانبها فى وقت واحد وذلك بإثارة حوافزها بالترغيب والتشويق ووسائل الإيضاح السمعية والبصرية ، أى بذلك الأسلوب الذى تعامل به القرآن مع النفس السوية ، وكان له أعظم الأثر فى تربيتها وتكوينها وتوجيهها . .

فالحقيقة القرآنية التى تقول بأن الله واحد مثلا لاتقدم كحقيقة عقلية مجردة وإنما تعرض من خلال الاستدلال العقلى ومن خلال الصور السمعية والبصرية التى تقع فى متناول كل إنسان ، أى من خلال البراهين والأقيسة والصور والأمثال والتاريخ ، مرة بعد مرة ، وفى كل مرة يتغير العرض حتى لاتمل النفس وتسأم ، وحتى تستقر الحقيقة فى النفس على اتساع مساحتها إدراكاً وتخيلا وإحساساً ، ثم تثبت فيها بصورة تستعصى على النسيان ، بل الأكثر من ذلك أن أسلوب القرآن حين يدير مفاتيح النفس الإنسانية على هذه الصورة المحكمة ، يسخر العالم المشاهد ليقوم مقام الآية القرآنية بالتذكير الموصول ، فالمسلم الذى يقرأ القرآن ويحفظه عن وعى وتدبر لاينفك طول يومه تالياً ذاكراً وإن لم يحرك لساناً ولم يتل  حرفاً ،لأن مشاهد الوجود التى يراها فى يومه وأمسه تستدعى بصورة متوالية مايناسبها من آيات الذكر الحكيم حسب مناسبتها لهذه المشاهد ، فكلما رأى المسلم شجراً أو طيراً أو سحاباً أو جبلا تداعت إلى ذاكرته آيات الكتاب التى تذكره بدلالات هذا الوجود ، فنظل فى ذكر وتسبيح وتحميد ، وهذا هو معنى قوله تعالى :

« الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ » (آل عمران : ١٩١)

٣ ـ الربط بين العقل واللسان :

من القضايا اللغوية الهامة التى يجب التنبيه إليها هى أن العلاقة بين العقل واللسان ، تتجاوز مجرد الإشارة أو الترجمة عن المعانى الموجودة فى الذهن ، ذلك أنه لابد لكى يكون التعبير وافياً وسليما ، أن تكون الصلة بين اللسان والعقل كاملة وسليمة ، فليس كل تعبير يؤدى المعنى ، وليس كل كلام يفيد السامع . ولقد كانت العرب من أكثر الأمم تنبهاً إلى أهمية اللسان فى التعبير عما تكنه النفس ويترجم عنه العقل ، لذلك اهتموا اهتماما شديداً بالفصاحة والبيان ، كما اهتموا بعيوب المنطق وشددوا النكير عليها ، واعتبروها عيباً يزرى بصاحبه وينقص من قدره ومكانته . والعرب تعد اللسان دليلا على صاحبه ، يرفعه ويخفضه ، ويستره ويفضحه ، ويقدمه ويؤخره ، يقول طرفة ابن العبد :

وإن لسان المرء ما لم تكن له ... حصاة على عوراته لدليـــل

(مختار الشعر الجاهلى ج ١ ص ٢٥٢)

من أجل ذلك مدحوا اللسان وتفاخروا به ، يقول سويد بن أبى كاهل اليشكرى :

ولســـانا صيرفيـــا صارما كحسام السيف مامس قطع
(مفضليـــات ج ١ ص ٩١)

كما مدحوا الفصاحة فى القول ، يقول قيس بن عاصم المنقرى :

خطباء حين يقـــوم قائلهم بيض الوجوه مصاقع لسن

ولأن اللسان ترجمان العقل فيجب أن يكون قوله صادقا ، يقول حاتم الطـــائى :

فأصدق حديثك إن المرء يتبعـــــه ما كان يبنى إذا مانعشه حملا
(الديوان ص ٣٨)

كما يطلب منه أن يترفع عن الفحشاء والمماراة ، يقول العرندس :

لا ينطقون عن الفحشاء إن نطقوا ولا يمـارون إن ماروا بإكثـار
(حماسة ج ٢ ص ٢٨١)

• • •

ولقد نزل القرآن بأفصح اللغات وهى العربية ، وأدقها بياناً ليحكم الصلة بين العقل واللسان على أدق الأصول وأصحها وأضبطها ، وليكون تعبير اللسان عن العقل الذى يترجم عن النفس الإنسانية ، تعبيراً دقيقاً محكما ، تقوم به الحجة على الناس ، ولذا سمى كتابه عربياً ومبيناً وحكيما ومحكما ومفصلا حتى لا يحتج عربى يحسن العربية بأنه لم يفهم ولم يع ولم تبلغه الحجة بالقول المبين .

ولقد كان من آيات الله فى حفظ العربية ، وحفظ جهاز النطق الإنسانى بحفظها أن استوفى فى محكم كتابه المبين كل خصائص العربية

المتمثلة فى سلامة النطق ، ثم تعبد الناس بهذا النطق حتى يحفظ أصول الفطرة السليمة للسان المبين .

علم التجويد وأثره :

ولقد كان من أجل الأعمال التى قام بها المسلمون الأولون هو الحفاظ على الصورة الدقيقة الكاملة للقراءة القرآنية التى قرأ بها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فيما يسمى بالقراءات التى بنى عليها علم جليل هو علم التجويد .

وعلم التجويد لا يحفظ القراءة القرآنية على أصولها فقط ، وإنما يحفظ مخارج الحروف ، ويحفظ كافة أبعاد النطق الإنسانى ، وما يستطيع أن يؤديه من إشارات ودلالات . فالمخارج الصعبة مثل الضاد والظاء والثاء والقاف ، والمد والغن ،والإدغام والقلقلة ، هى من خصائص النطق الإنسانى الذى حافظت عليها العربية ، وتآكلت فى اللغات الأخرى ، ولقد أدى إهمال علم التجويد فى قراءة القرآن ، وإهمال التعليم على أصوله إلى تآكل هذه الخصائص فى العربية الحديثة مما يهدد بانقلاب جهاز النطق عن أصوله السوية ، ويهدد بقطع الصلة بين اللسان العربى المبين وبين اللغة العربية الحديثة .

٤ ــ اللغة العلمية :

وحتى نفهم ما نعنيه باللغة العلمية للقرآن الكريم ، نعرض أولا ما ذكرناه من الخاصية العلمية للغة العربية « وترجع مقدرة العرب على

تحرير عقيدتهم فى الله على النحو الذى ذكرناه إلى الخاصية العلمية التى تتميز بها اللغة العربية والتى هى سر بيانها ، وهى الميزة التى أنضجوها باجتهادهم عبر القرون ، والتى تتجلى فى مقدرتها الفائقة على «إدراك المناسبة الدقيقة بين الاسم والمسمى ، وعلى إنزال الأوصاف منازلها مع اختلاف الموصوف ، وعلى الإدراك الدقيق للعلاقات والفوارق بين عالمى المحسات والمجردات ، وعلى القدرة على إقامة العالمين معاً دون خلط أو اضطراب .

فالمعرفة العلمية الدقيقة للعالم ، والتى تجمع بين دقة المطابقة للواقع ؛ ودقة النفاذ فيه ، ودقة استنباط المعانى والأفكار منه ، هى التى مكنت العرب من حل أعقد المشكلات الاعتقادية التى أنهكت المفكرين والفلاسفة عبر العصور شرقاً وغرباً دون الوصول فيها إلى رأى مريح .

ويقول الأستاذ عبد الكريم الخطيب :

« وأهم هذه المشكلات هى تنزيه الله الكامل مع إفراده بالأمر والتصرف والتدبير دون أن يقع لبس بين ما يجب له من تنزيه وبين عنايته بالعالم ، وكذلك التسليم لله بالقدرة المطلقة التى تفعل ما تشاء وتخلق ما تشاء ، وكيف تشاء ، مع اعتبار العالم كله محدثا فى الزمان مادة وصورة دون أن يقع فى عقولهم أدنى شك يسـأل عنه السـائل بالكيف ، أو افتراض إحداث الأشياء من مادة سابقة كما فعل فلاسفة الإغريق ومن تابعهم ، لأن الله فى اعتقاد العرب يشيء بمشيئته من الأشياء ما يشاء ، فالخلق منه (مشيئة) أو أمر ؛ وكذلك مع التسليم بقدر الله

الغالب مع الاقرار بمسئولية الإنسان دون شبهه تعارض بين قدر الله وإرادة البشر ، والتى هى نفسها من خلق الله فى اعتقاد العرب على عكس ما تذهب إليه معظم الفلسفات والقدرية من متكلمى المسلمين ، وكذلك التوكل على الله مع ضرورة العمل دون شك فى أن قضاء الله نافذ ، وكذلك الجمع بين عدل الله ورحمته دون تناقض بين ما يوجبه العدل ، وبين ما تدعو إليه الرحمة ؛ وكذلك التسليم بالنظام والسنن والأسباب فى العالم مع التسليم بقدرة الله المطلقة لأن النظام والسنن والأسباب عندهم من قدرة الله وتقديره ، مع الوعى بأن للإنسان حرية تعمل من خلال النظام فى نفس الوقت » (مع القرآن الكريم عدد ٣ ص ٢٣٣ ، ٢٣٤) .

* * *

هذه الخاصية العلمية للغة العربية جاءت أكمل ما تكون فى كتاب الله لذا لا يجت أن نقول إن القرآن يحض على العلم ويدعو إليه ثم نسكت فذلك وصف ناقص مبتور ، فالقرآن هو كتاب العلم الصحيح بالمنهج العلمى الصحيح ، وليس كتاباً يقف عند حدود الدعوة والحض .

فالقرآن قد نبه العقول إلى المسالك العقلية الصحيحة للاستدلال الذى تطمئن به القلوب ، وتستريح إليه العقول استراحة المقتنع بحقيقة ما يطلب الإيمان به حتى وإن لم تصل العقول إلى إدراك كنهه .

يقول ابن تيمية ما ملخصه : « إن الرسول قد بين أصول الدين ومنها أمور الغيب بياناً شافياً عن طريق الخبر الصادق من ناحية ، وعن طريق

الأمثال المضروبة ، وهى الأقيسة العقلية من ناحية أخرى ، سواء أكانت قياس شمول ، أو قياس تمثيل ، ويدخل فى ذلك ما يسمونه براهين وهو القياس الشمولى المؤلف من المقدمات اليقينية » (موافقة صريح المعقول لصحيح المنقول ص ١٢) .

وتتميز آيات الله وأمثاله المضروبة للناس بأنها قاطعة الدلالة ، بينة الحجة ، ولذلك سمى الله آية القرآن (بالبينة) وسمى آياته (بالبينات) أى الواضحة الحجة ، القاطعة الدلالة . قال تعالى :

« انظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ...» (المائدة : ٧٥)

أى كيف نقيمها لهم بطريق الاستدلال الصحيح الذى لا يتطرق إليه الشك .

ولقد بين الله تعالى أن الهدف من هذه الآيات البينات هو تربية العقل الإنسانى على التفكير العلمى الدقيق الذى يقود إلى اليقين ، ويجنب الخطأ والزلل ، ويعين على صحة الحكم وسلامته ، ويؤدى إلى التقوى والهدى والرشاد :

« كَذَلِكَ يُبَيِّنُ لَكُم الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ »

(البقرة : ٢١٩)

« وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ » (البقرة : ٢٢١)

« كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمُ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ »

(البقرة : ٢٤٢)

« كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُون »

(آل عمران : ١٠٣)

« يُرِيدُ اللهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ »

(النساء : ٢٦)

« يُبَيِّنُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا .. » (النساء : ١٧٦)

فلزم من ذلك أن نعرف أن نهج القرآن هو النهج الذى يؤدى إلى المعرفة الصحيحة وإلى الهدى ، وإلى اليقين .

وحين يتعرف المسلمون على مناهج الاستدلال المبين من خلال مداومة تلاوة القرآن وتدبره تتكون فيهم ملكة الاستدلال العلمى ، الذى تحصل به المعرفة الصحيحة ، المثمرة للهداية والتقوى .

• • •

هذه الخصائص التى ذكرناها للطريقة التعليمية للقرآن الكريم يمكن أن تعمل — إذا قرأ المسلمون كتاب ربهم قراءة تدبر وفهم — على إعادة ربط صلتهم بالعـــالم على أساس علمى سليم ، كما تذكرهم تذكيرا موصولا بالله وحقائق الغيب وأصول الأخلاق المقومة للنفوس ، كما تعيد ربط عقولهم بألسنتهم على أصول الفطرة الربانية القرآنية التى حرفها المسخ وجنى عليها التشويه ، كما تعودهم على طريقة النظر العلمى السليم التى تفتح لهم آفاق الدنيا والآخرة .

• • •

تحفيظ القرآن ومسئولية الأسرة :

إن مناهج التعليم العربية المعاصرة بعيدة بعداً كبيراً عن ذلك كله بسبب خضوعها للنموذج الغربى فى الحياة والتعلم ، ومع ذلك فلابد من الأمل والعمل على إعادة ربط هذه المناهج بكتاب الله على الأسلوب الذى ذكرناه ، ولما كان ربط المسلم بالنهج القرآنى يجب أن يبدأ فى مرحلة مبكرة ، فإن أول ما يجب علينا كمسلمين هو أن نحقق ذلك بأنفسنا وبمجهودنا ، وأن نخوض معركة المصحف بإصرار حتى يتحقق النصر لكتاب الله فى أنفسنا ، وفى حياتنا ، وحتى نهدم الأسس التى تقوم عليها أركان الباطل .

إننا يجب أن نعيد فتح « الكتاتيب » من جديد ، وأن نعممها فى كل مكان ، وأن نجعلها بابا من أبواب الجهاد . يجب أن نعمل على عودة «الشيخ» المجود لكتاب الله ليتولى تعليم أولادنا القرآن على أصوله الصحيحة . ويجب أن يتطوع كل قادر على تعليم القرآن بتعليم غيره ، ويرى ذلك فرضاً واجباً عليه .

ويجب أن نرتب لأنفسنا قدراً ثابتاً من كتاب الله نجمع عليه أولادنا ، ونصحح به عقولنا وألسنتنا ، ويجب أن نتلو ذلك تلاوة متدبر ، مستعينين ببعض التفاسير السلفية الصحيحة مثل تفسير ابن كثير .

كما يجب أن نقرن تعلم القرآن وتدبره بالعمل بأوامره ونواهيه ، والتخلق بأخلاقه ، والاعتبار بمواعظه .

ويجب أن نستعين على ذلك بتحرى اللغة الفصحى فى الحديث والكتابة ، والتعرف عليها من مصادرها ، ويجب أن نتواصى بذلك ونتعاون عليه ، حتى تحل الفصحى بالتدريج محل العامية ، وحتى نقترب من لغة القرآن الكريم ، وحتى نحقق التعريب الصحيح الذى تتواصل به الأمة العربية وتتعارف وتتوحد على نفس الأسس التى توحد بها أسلافهم .

وكما يجب أن نجعل الصدق والإخلاص والأسوة الحسنة رائدنا فى ذلك الطريق، الذى لا بديل عنه لتحقيق وحدتنا ، وعزتنا بالله وكرامتنا .

وعلى الله قصد السبيل . .

* * *

بحوث القسم الخامس

القرآن الكريم وشهر رمضان

يجيب عنه
الكاتب الإسلامي
أحمد موسى سالم

السؤال الأول :

لقد كان أول نزول القرآن الكريم على النبى صلى الله عليه وسلم فى شهر رمضان عندما كان يتحنث على عادته كل عام فى غار حراء قبيل البعثة ٠

فهل كان فرض الصوم فى رمضان — عندما فرضـــه الله فى الاسلام — تكريما لرمضان بسبب أن النبى كان يصومه تقربا الى الله عندما كان يتحنث فى الغار ؟

أم كان لأن النبى عليه الصلاة والسلام كان يصوم رمضان فى تحنثه بالغار لأن الصوم كان معروفا فيه من بقية دين ابراهيم الذى كان عليه العرب قبل الاسلام ؟

الاجـــــابة :

من الثابت فى تاريخ ظهور الإسلام ، وبعثة النبى عليه الصلاة والسلام، أن أول الأعلام بالوحى والنبوة كان بنزول الآيات الأولى من القرآن الكريم فى شهر رمضان ، وذلك حيث يقول الله تعالى فى حكمة فرضه الصوم فى هذا الشهر المبارك :

« شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِى أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ ، فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ..»

(البقرة : ١٨٥)

والمعنى الظاهر والمحكم فى هذه الآية الكريمة أن الله سبحانه قد اصطفى من بين الأشهر القمرية العربية شهر رمضان لينزل فيه هذا القرآن المبين ، الباقى والمهيمن والمحفوظ ، ليكون هدى الناس بآياته ، وبينات من الهدى بشرع الله وسننه ، وفرقاناً بين الكفر والإيمان ببرهان الله وحجته . ومن أجل هذا الفضل من الله على عباده فى هذا الشهر المصطفى بنزول أول آيات القرآن فيه ، فقد اختاره الله عندما فرض على عباده الصوم ليكون هو الشهر المبارك بهذه العبادة ، ومن أجل هذا أيضاً فقد أمر المؤمنين بمتابعة صومه كلما أقبل عليهم وذلك فى قوله تعالى فى هذه الآية :

« فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ » ..

أى فمن شهد منكم هلال رمضان ، الذى يؤذن ببدء أيامه ، فليقم بصومه كما أمر الله . .

نستدل من هذا على أن فرض الصوم فى شهر رمضان كان تكريماً لهذا الشهر لنزول القرآن الكريم فيه ، كما كان لدوام تذكير المؤمنين مع دوام هذا الصوم بهذه الآية الكبرى لله فى تاريخ العرب ، وتاريخ البشر ، عند أول شروقها من جبال مكة ، الآية التى تعلن عن بعثة النبى المصطفى خاتم النبيين والمرسلين ، وعن مطلع التنزيل لكتاب الله المبين ، الباقى بنوره وفرقانه وقرآنه إلى يوم الدين ، فى يوم مبارك فريد فى حياة أرض الرسالات وشعوبها ، حيث أتم الله نعمته باستجابة دعاء إبراهيم وإسماعيل وهما يرفعان القواعد من البيت،ويسألان الله ظهور هذه الأمة المسلمة من ذريتهما ، لتكون خير أمة يخرجها الله إلى الناس . .

التحنث فى رمضان :

إذن فلم يكن الأمر بصوم رمضان عندما فرضه الله راجعاً إلى أن صوم هذا الشهر كان معروفاً من بقية دين إبراهيم بين أهل مكة ، بل كان بالنص القرآنى المحكم تخليداً لبركة نزول أول آيات القرآن فيه ، وحفاظاً أيضاً فى وعى المسلمين الراشدين لحكمة اصطفاء الله هذا الشهر المبارك لتشرق من أفق أيامه ولياليه آية الله الباقية بنزول القرآن المبين ، وبعثة خاتم النبيين والمرسلين . . .

فماذا بعد من فضائل هذا الشهر المبارك ، ومن نعمة الله به ، والنبى يصومه باجتهاده ، وكما كان الصوم بطرقه المختلفة معروفاً فى جميع رسالات الرسل السابقة ، وفى حياتهم الخاصة ، وكما كان معروفاً على عهد ابراهيم وإسماعيل عليهما السلام ، عندما نادى إبراهيم العرب بالحج ، وأعلمهم به وبمناسكه ، فقدموا عليهما فى مواسمه ، وكان منهم « العاكفون » فى البيت ، وهم الذين يجمعون بين الصلاة والصوم ، والبعد عن ملامسة الأزواج أياماً يتطهرون فيها لله ، ويعكفون خلالها فى بيته . وعن هؤلاء مع غيرهم من حجاج البيت أو المعتمرين به يقول الله تعالى من عهده عنهم إلى إبراهيم وإسماعيل :

« وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ » (البقرة : ١٢٥)

على هذا الطريق من حنيفية إبراهيم وأسوته كان رسول الله خلال سنوات طويلة بعد زواجه من السيدة خديجة ، وحتى بعثته يتحنث كل عام

شهراً فى غار حراء . والتحنث معناه فى اللغة ترك الحنث ، وهو الإثم والباطل ، وهو أول نهج الحنيفية فى الميل عن الباطل باعتزال الأصنام ، والتباعد عن مجتمع الزلفى إليها ، وعن أهل الشرك بالله بعبادتها ، وطاعة كهانها ، وذلك فى خلوات بالنفس مع الله ، وبين آيات الله ، فى هذا «التحنث» أى فى عبادة الله بالصلاة والصوم ، والإمساك عن ملامسة النساء ، كما كان هذا التحنث نفسه على البقية من دين إبراهيم ، وانتظاراً لوعد الله بخاتم الرسل من ذريته وذرية إسماعيل ، هو منذ جاورت قريش بيت الله حوالى سنة ٤٠٠ م على عهد جدها قصى — شأن عدد غير قليل من صالحيها إلى عهد النبى قبيل بعثته عليه الصلاة والسلام .

وفى هذا المعنى يقول ابن هشام فى كتابه عن « السيرة النبوية » وفيما يرويه عن عبيد بن عمير بن قتادة الليثى من قوله فى مجلس عبد الله بن الزبير « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يجاور — أى يعتكف — فى حراء من كل سنة شهراً ، وكان ذلك مما تحنث به قريش فى الجاهلية، والتحنث : التبرر . . » .

ثم يقول ابن هشام مرة أخرى فى تفسيره كلمة التحنث : « تقول العرب التحنث والتحنف يريدون الحنفية ، فيبدلون الفاء بالثاء » .

إذن فالنبى عليه الصلاة والسلام كان يعتكف شهراً من كل عام — فيما بين زواجه وبعثته — فى غار حراء أحد جبال مكة ، على ملة أبيه إبراهيم وحنيفيته ، وكما عرفت قريش مثل هذا الاعتكاف فى بعض

رجالها المتأثمين من الإثم ، والمتعبدين لله فى خلواتهم تطهراً من الباطل ، وطلباً للهدى ، ودعاء به . .

ولكن يبقى هذا السؤال : هل كان الرسول قبيل بعثته يعتكف فى شهر بذاته هو رمضان ، الذى نزلت فيه أول آيات القرآن خلال هذا الاعتكاف ، أم كان ذلك فى شهر ما بغير تحديد ، إلى أن جاءت المصادفة بشهر رمضان فى اعتكاف عام البعثة . . أى فى عام ٦١٠ ميلادية ؟

والجواب الذى يتسق فى حكمة الله مع اصطفاء شهر رمضان ليكون به إعداد الرسول الكريم بتحنثه وتحنفه فيه لتلقى القرآن الحكيم فى أول بعثته ، ومستهل دعوته ، هو أنه كان عليه الصلاة والسلام يخرج كل عام – فيما بين زواجه ونزول الوحى عليه – للمجاورة أو التحنف فى جبل حراء ، فى هذا الشهر المبارك بذاته ، وبمدلول اسمه عليه ، وهو شهر رمضان . .

حول هذه الحقيقة يقول الدكتور محمد حسين هيكل فى كتابه « حياة محمد » وهو يجمع الإشارة إليها من عديد من الكتب والمراجع التى اعتمد عليها :

« وكان بأعلى جبل حراء – على فرسخين شمال مكة – غار هو خير مايصلح للانقطاع والتحنث ، فكان النبى يذهب إليه طول شهر رمضان من كل سنة ، يقيم به مكتفياً بالقليل من الزاد يحمل إليه ، ممعناً فى التأمل والعبادة » .

يبقى أن نسأل ونجيب : فهل كان شهر رمضان عندما نزل أول الوحى

بالقرآن الكريم على النبى شديد الحرارة على ماهو عليه من أصل تسميته عند العرب عندما سموه « رمضان » من الرمضاء ، التى هى شدة وقع الشمس الحارة فى الصيف على الرمل ، أم إن الزمان كان قد استدار به على طبيعة الأشهر العربية القمرية فدخل بالتقويم الشمسى فى فصل الربيع أو الشتاء ؟

يقول العالم الفلكى المصرى المرحوم محمود أحمد الفلكى من علماء القرن التاسع عشر ، وذلك فى بحث عن « التقويم العربى قبل الإسلام » أصدره له مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر سنة ١٣٨٩ هجرية — ١٩٦٩ ميلادية . يقول إن تحقيقاته حول تاريخ أشهر الأيام فى حياة الرسول وهى مولده وبعثته وهجرته ووفاته اعتمدت على طريقته فى البحث عن ظاهرة فلكية مشهورة فى سيرة النبى الكريم مثل كسوف الشمس الذى تأكد وقوعه بالتواتر يوم وفاة ولده إبراهيم ، من حيث أن هذه الظاهرة قابلة للتحقيق العلمى بوسائل العصر ، ومن ثم يمضى البحث بالتقريب الأقرب إلى تواريخ الأيام الكبرى فى حياته عليه الصلاة والسلام .

وقد توصل العالم المصرى بطريقته هذه إلى أن تاريخ أول بعثة النبى ونزول الوحى بأول آيات القرآن الكريم كان فى يوم ما من رمضان الموافق بداية شهر فبراير من سنة ٦١٠ ميلادية . وبتأكيد صحة استدلاله على هذا التاريخ لنزول أول آيات القرآن الكريم يشير العالم الفلكى إلى قوله تعالى فى سورة المدثر :

« يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرْ ﴿ قُمْ فَأَنْذِرْ » (المدثر : ١ ، ٢)



والتى يراها عدد قليل من العلماء أنها فى « ترتيب نزول السور المكية والمدنية » أول مانزل من القرآن الكريم ، فيقول إنها تشير إلى أن أول نزول القرآن الكريم حدث والنبى متدثر بثوبه من شدة برد الشتاء ، مما يؤكد صحة أبحاثه حول تاريخ أول البعثة وهو شهر فبراير سنة ٦١٠ ميلادية . .

وإذا كنت فى الإجـــابة عن السؤال الأول من الجزء الأول لهـــــذه المسابقات القرآنية ، والذى كان عنوانه « حول القرآن الكريم قد اكتفيت بتقديم تحقيقات هذا العالم الفلكى الكبير الذى اعتمد مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر أقواله ، وذلك فى تحديد تواريخ أشهر الأيام فى حياة الرسول عليه الصلاة والسلام ، وهى مولده ، وبعثته ، وهجرته ، وتاريخ وفاته ، فى تلك الإجابة الموجزة عن ذلك السؤال — فإننى أجد المجال اليوم — والحمد لله — أكثر رحابة واتساعاً فى سياق ما أعرضه على القارىء اللبيب من حقائق هذا البحث الأول من نوعه عن خصائص وفضائل وكمالات شهر رمضان المبارك ، الذى اصطفاه الله بين الأشهر بفاعلياته فى تقريب عباده إليه ، ليكون الشهر الذى يشرف بطول الزمان بنزول أول الوحى والقرآن — أقول إننى أجد المجال اليوم مفتوحاً لتصحيح ماورد بكتاب العالم المصرى المجتهد المرحوم محمود الفلكى حول ثلاثة أمور هامة لم ينتبه إليها ، كما لم يفطن لتصحيحها فريق العلماء الفضلاء الذين أجازوا كتابه واعتمدوه ، فخلط بين الدين والفلك ، وحاول أن أن يخضع حقائق التاريخ لاستنتاجاته عن التواريخ والأيام . .

أولا : الذى عليه أكثر العلماء المحققين لترتيب نزول السور المكية والمدنية أن أول مانزل من الوحى على الرسول الكريم هو سورة القلم التى بدايتها :

« اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ • خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ • اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ • الَّذِى عَلَّمَ بِالْقَلَمِ • عَلَّمَ الإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ » (العلق : ١ ـ ٥)

وهى الآيات التى تتفق فى مشرق التنزيل ، وأول الوحى ، مع حكمة الله بتنزيل هذا الكتاب الباقى ، الذى لايزال دعوة لاتتوقف فى الأرض إلى « قراءته » بمعنى ترتيله ، وتدبر اتساق نظمه ، والتعبد لله به ، بينما تجرى الأقلام بغير انقطاع لتسجل من علومه ، وآيات الله به ، وتجدد حياة المؤمنين فى نوره ، بما لم يكن ليعلمه الإنسان الذى أعده لرسالاته لولا أن علمه الله بما لاينفد من علمه بنزول هذا الكتاب الكريم .

ثانيـاً : أما عن سورة المدثر فأكثر أقوال العلماء المحققين أنها السورة الرابعة فى ترتيب نزول السور المكية . وقد وردت أقوال كثيرة فى كتب السيرة حول تدثر الرسول بثوبه ، لايتصل أكثرها بمعنى التدثر من زمهرير البرد كما يقول العالم المجتهد محمود الفلكى ، وكما يعلم ذلك الكثيرون من علماء الدين . على أننا ننقل من حديث رواه البخارى عن نزول سورة المدثر عن أبى سلمة عن جابر بن عبد الله الذى قال له : لا أحدثك إلا ماحدثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم : جاورت بحراء فلما قضيت جوارى ،

ومضى فى الرواية حتى وصل إلى قوله صلى الله عليه وسلم : فأتيت خديجة فقلت : دثرونى وصبوا على ماءاً بارداً . قال لى : فدثرونى وصبوا على ماءاً بارداً . قال : فنزلت

« يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ۝ قُمْ فَأَنْذِرْ ۝ ورَبَّكَ فَكَبِّرْ » (المدثر : ١ ، ٣)

وتعقيبنا الموجز على هذا الحديث أن الرسول صلى الله عليه وسلم لايطلب إلى زوجه رضى الله عنها أن تدثره وأن تصب عليه ماءاً بارداً علامة على أن الوقت كما يقول العالم الفلكى — كان زمهرير الشتاء فى أول نزول القرآن الكريم فى رمضان ، ذلك لأن « الماء البارد » لايصب على الرسول فى مقدمه من رحلة الاعتكاف فى رمضان إذا كان الوقت فيه هو زمهرير الشتاء ، وإنما يصب هذا الماء البارد للتخفيف من شدة الحر ، أى فى وقت من رمضان يشتد فيه الحر . والتفسير الصحيح إذن لهذا الحديث أن « الدثار » كان من أجل أن يذهب عن النبى روعه بما وقع له من نزول الوحى عليه لأول مرة ، ومن شدة مفاجأة ذلك لنفسه . وأما الماء البارد فلاشك أنه للتخفيف من حر ذلك اليوم ، وإلا فقد كان الماء الدافىء أولى لذهاب البرد .

ثالثـاً : التفسير الصحيح لهذا النداء من الله لرسوله فى قوله تعالى :

« يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرْ ۝ قُمْ فَأَنْذِرْ » (المدثر : ١ ، ٢)

هو ماورد مثله فى المصحف الميسر للعالم المحقق الشيخ عبد الجليل عيسى وذلك حيث يقول : « المدثر أصلها المتدثر ، أى لابس الدثار ، والدثار

بكسر الدال هو مايغطى الجسم . « أنذر » أى حذر من عقاب الله من لايؤمن به ورسله » .

بهذا المعنى المتطابق مع هاتين الآيتين فى أول سورة « المدثر » التى كانت السورة الرابعة بترتيب نزول السور يتجلى أن هذه السورة ليست أول مانزل من سور القرآن ، من حيث أن الأمر بها إلى النبى ليقوم فينذر المكذبين ، ويحذر من عقاب الله غير المؤمنين ، لايقع إلا بعد أن يكون قد اكتمل للنبى بعدد من السور والآيات استيعابه لهذا الأمر العظيم الذى وقع بتكليفه بالرسالة ، واطمئنانه إلى أمر الله بنزول الوحى إليه ، بل واستيعاب المقربين له ولزوجه لهذا « القدر العظيم » كما شاء الله بنبوته ، وبعد أن قامت السيدة خديجة رضى الله عنها بتثبيته ، وإذهاب الروع عنه ، كما نقلت هذا النبأ « العظيم » إلى بعض المتحنفين من أقربائها مثل ورقة بن نوفل . .

ونخلص من ذلك إلى أن نزول سورة المدثر بعد نزول أول الآيات من القرآن الكريم فى سورة القلم وغيرها يعنى نزول هذه السورة بعد فترة من شهر رمضان :

« الَّذِى أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ » (البقرة : ١٨٥)

فترة قد تقترب بعد حر رمضان الشديد من فصل الشتاء كما يرى ذلك العالم المجتهد محمود الفلكى . .

رابعـاً : إذا كنا قد أزحنا الكثير من اللبس والغبار عن هذه الحقيقة الناصعة من حقائق سيرة النبى الكريم فى مرحلة تحنثه وتحنفه ، فأثبتنا أنه

كان صلى الله عليه وسلم يتحنث شهراً فى كل عام من أعوام اعتكافه بجبل حراء ، فيما بين عام زواجه من السيدة خديجة وعام بعثته ونزول أول القرآن عليه فى الغار ، وأنه اختار فى هذه الفترة شهراً واحداً بذاته لتحنفه واعتكافه هو شهر رمضان ، وأنه إلى حد الترجيح الذى يقارب القطع أقول إن رمضان فى سنوات اعتكاف النبى الأخيرة كان فى كامل طبيعته الحارة التى اشتهر بها ، وحمل باسمه « رمضان » كل ماتعنيه هذه الطبيعة من دلالة عليه ، ومن حكمة لله فيه .

وترتيباً على هذه الحقائق أحدد وأظهر بإيجاز هذه الحقيقة الأكبر فى سيرة وفضائل شهر رمضان ، وهى ارتباط اصطفاء الله له بنزول القرآن الكريم ، وتكريمه بعد ذلك بأن يكون شهر الصوم للمسلمين ، بهذه الحكمة التى ربط الله بها شدة الحر ، وما يتبع ذلك فى بلاد مثل بلادنا من أهوال شدة الظمأ ، بأعظم هذه السمات والفعاليات الكامنة والظاهرة فى « رمضان » ، والتى يفيض بها — كلما كان فى كامل طبيعته — على المتحنثين والمتحنفين والصائمين فيه ، ليقتربوا وهم يرتفعون بالإرادة ، والصبر ، والصدق ، فى ابتغاء وجه الله إلى أعظم الدرجات فى الإيمان به ، والطاعة له ، والدعوة إليه : عملا وأسوة ، حتى ليقتربوا من درجة التلقى عن الملائكة والروح لأمره ووحيه وآياته ، ليحملوا رسالته بهذا الأمر والوحى كما حملها الرسول الأمين ، خاتم النبيين ، رحمة للعالمين ، ونوراً للمهتدين فى القرآن المبين . .

وربما بأدامة النظر لهذا الابتلاء المبين الذى خص الله به شهر رمضان المكرم فى قربى صومه على شدة الحر ، وقربى الاعتكاف فيه على إرادة

الإمساك به عن كل متاع ، والتطهر فيه من كل هوى ، يتسع العلم أمام المؤمنين المتدبرين بفضائل ومكرمات وحسنات هذا الشهر « المصطفى » من الله برمضائه ، وشدة بأس الحر والظمأ فيه . . الظمأ إلى هذا الماء العذب الذى منه كل شىء حى ، والذى تتمثل الحياة كلها فيه عند فقده.. فمثل هذا الظمأ إلى مافيه الحياة ، وإلى مالا تقوم بغيره الحياة ، يتحول بتقوى الله بصوم رمضان ، واجتياز رمضاء رمضان ، إلى رى وبرد وسلام ، يجدها المؤمنون كلها تحت لظى شفاهم ، فى حياة أقرب رياً بالإيمان ، وأغزر ماء ، وأعذب سلسبيلا ، فى القرب الأقرب إلى الله ، واهب الحياة لطاعته ، ومرطب الشفاه بذكره ، والمتنزل بالأمن والسكينة على أصدق المؤمنين به .

الصوم فى العـــالم :

يقـــول الله تعـــالى :

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ » (البقرة : ١٨٣)

لقد عرف البشر فى كل أنحاء العالم ، وفى كل العصور هذا الصوم بعموم معناه فى الإمساك عن الطعام والشراب وقتا ما ، أو فى الإمساك عن نوع من الأطعمة بعض الوقت ، أو فى الصوم بمعنى الزهد فى الحياة وذلك بترك ما يزيد عن الإمساك بالرمق . .

ويختلف الصوم الذى نزلت به الرسالات على أرض الدين ، وكما كتبه

الله فى شرائعه السابقة ، وكما تمت هيئته وشروطه عندما فرضه الله فى رسالته الخاتمة بالقرآن الكريم — عن جميع أنواع الصوم الأخرى فى أرض الديانات الوثنية الوضعية ، وفى الكثير من مبتدعات الخارجين اليوم عن الدين الحق بمذاهبهم الشذوذية والعبثية المعاصرة . والفارق الأساسى أن غاية الصوم كما فرضه الله على المؤمنين هو تنمية قدراتهم النفسية والأخلاقية على تملك الإرادة الصحيحة ، التى يميزون بها الحق من الباطل ، والخبيث من الطيب ، وهم يختارون بعزيمة المؤمن وطهارته ووعيه طريقهم المستقيم إلى الله .

أما غايات الديانات الوضعية من الصوم بمعنى الزهد فى الحياة ، وكسب السيادة بالكهانة والتماوت ، وادعاء الخوارق ، على المستضعفين من مريديهم ، كما هو الحال بين فقراء البراهمة والبوذيين مثلا ، فإنها على عكس الصوم فى شرائع الله تمضى إلى التسابق على استنزاف القوى ، والنزول بقدرات البشر النفسية والعقلية والبدنية إلى أدنى الحضيض من العجز والتفانى أو « الفناء » . بمعناه الحلولى الوثنى ، لتتحقق آية الله على هؤلاء البعيدين عنه بالمسخ ، والعجز ، والخبال ، فى حياة أشباه الأشباح من أشباه البشر ، حتى يفيئوا — إذا استطاعوا — إلى دعوة الله . . والله على كل شىء قدير .

وأما عن غرائب المبتدعات الصومية ، فى حياة من انهاروا عن الدين الحق من المعاصرين المنتمين إلى علمانية أو إلحاد العصر ، والمنصرفين عما بأيديهم من كتب الله ، فهى طقوس جديدة فى ديانة العاثرين والمنهارين الدنيويين ، الذين لايرون ما هو أبعد من أنوفهم ، ومن مدى أهوائهم .

وشهواتهم ، مثل من يصومون أشهراً وتحت إرشاد الطبيب — من أجل « النحافة » أو « الرشاقة » ، ومثل من يصومون عن أكل اللحوم ، ويرفعون شعار « النباتيين» لأن ذلك أعون على طول أعمارهم ، وعلى امتداد فرصة المتاع بصحتهم وحياتهم ، ومع ذلك فهم لا يمتنعون ولايصومون عن الخمر . . أليست الخمر نباتية من العنب ! ؟ . . ولذلك فهم يعبون منها عبا ، ويتتبعون موائدها لهواً ولعباً ، وهم يضحكون غافلين ، حتى يعاجلهم عاجل المنون .

وفى عبادة الصوم القديمة يقول شيخ الأزهر السابق الشيخ محمود شلتوت فى كتابه « من توجيهات الإسلام » : « إن الصوم عبادة قديمة جاءت بها الرسالات السابقة ، فكانت ركناهاماً من أركان كل دين . فأناجيل النصارى تذكر الصوم وتمدحه ، وتعتبره عبادة كبرى . وقد صام عيسى عليه السلام . والحواريون رضى الله عنهم . والتوراة تفرض الصوم بعض الأيام . ومنها فيما يروى يوم عاشوراء . وقد صام موسى عليه السلام أربعين يوماً . بل إن الوثنيين يعرفون الصوم ، فقد كان المصريون فى أيام وثنيتهم يصومون،وانتقل منهم الصوم إلى اليونان والرومان ولا يزال الوثنيون فى الهند يصومون إلى اليوم » .

صـــوم رمضـــان والتقويم القمرى :

يبقى أمر أخير فى إجابة هذا السؤال فى مجال التعريف بشهر رمضان ، وبما خصه الله به من الخصائص التى رفعت منزلته بين الشهور ، فكان شهر التحنث والتحنف لرسول الله حتى نزل به أول مانزل من آيات

القرآن الكريم ، ثم كان بعد ذلك هو الشهر الذى كرمه الله على بقيةالشهور ففرض فيه الصوم ، ودعا القادرين فيه إلى الاعتكاف فى المساجد ، ليكمل التقرب والتطهر بصومه إلى الله — هذا الأمر هوموقف هذا الشهر العربى القمرى من حكمة الله فيا يعرض له بين بقية أشقائه من الشهور العربية من التغير بمناخه بين الفصول الأربعة صيفاً وشتاء ، وربيعاً وخريفاً ، فى دورات تتلاحق كل نحو اثنين وثلاثين سنة هجرية ، من حيث أن السنة القمرية تنقص عن السنة الشمسية نحو أحد عشر يوماً كل عام . .

وبإيجاز نقول أن فرائض العبادة قد ارتبطت فى الإسلام منذ الرسالة الأولى وحتى الرسالة الخاتمة بالتقويم القمرى ؛ وهوالتقويم الذىاستمسكت به الأمة العربية منذ فجر تاريخها ، وذلك بطبيعة حركتها ، وحياتها ، فوق وطنها مهد الدين ، داخل هذا القطاع المضىء ، والمتكامل ، بين السماوات والأرض ، وحيث عاشت أجيالها تشهد إلى اليوم هذا الاتساق الباهر بين آيات خلق الله ، بغير خلل أو تفاوت أو فطور ، برهاناً حياً وناطقاً فى السماوات والأرض على الله الواحد ، الخالق المدبر ، المنزه عن التجسيد وعن الشبيه والشريك .

يقول الله سبحانه وتعالىعن هذاالتقويم القمرى وبداية عمل العرب به منذ أول الخلق ، ومنذ ارتبطت به صحة العبادات الجامعة فى الإسلام .

« إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَابِ اللهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ۚ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ ». (التوبة : ٣٦)

هذا الارتباط الظاهر بين العبادات الجامعة فى الإسلام بالتقويم القمرى، مثل الحج والصوم ، لايكون فى تقدير الله إلا عن حكمة جليلة ترتبط بها مواقيت الحج ، كما يثبت بها عند رؤية الهلال وجوب الصوم . وهذه الحكمة فى فضل هذا التقويم – الذى لم نتخل عنه إلا منذ دهمنا على تخلفنا ذلك الاستعمار – نوجز الدلالة عليها بعاملين تنشط بهما المؤثرات الإيجابية العملية للعبادات الإسلامية فى حياة المسلمين ، كما تتأكد بهما سلامة اتجاه هذه العبادات فيما قصده الله من حياتهم بها ، ومن اجتماعهم وإجماعهم على أدائها وهما . . أى هذا العاملان :

الأول : عامل الدعوة الدائبة – بطبيعة ارتباط هذا التقويم بظهور الأهلة – إلى التفكر فى خلق السماوات والأرض ، تتبعاً لمطالع أول هذه الشهور القمرية ، وتتبعاً أيضاً لمسارات هذه الشهور طوال أيامها فيما بين الهلال الذى يتتابع إشراقه ونماؤه فى السماء حتى يصبح بدراً ، والذى من ثم ينحسر بنوره رويداً رويداً حتى يختفى تماماً ، ثم لايلبث أن يبزغ من المحاق هلالا جديداً ، يظل ينمو على آفاقه إلى بدر جديد . . فى شهر قمرى جديد . .

بهذا التتبع الدائب لحركة الأهلة والأقمار ، ومن حيث ارتبطت مساراتها فى السماء بمصالح المؤمنين الحيوية فى كل مكان ، وفوق كل أرض من أنحاء هذا الوطن المشرق الآفاق ، يتحقق دوام الامتثال لأمر الله بالسير والنظر ، والتدبر والتفكر فى خلق الله ، كما جاء مثل ذلك فى قوله تعالى لتعزيز إيمان المؤمنين بهذا السير والتدبر والتفكر دائماً فى السماوات

والأرض فى تتبع مسار النور والظلام ، والحركة والسكون ، والحياة والموت :

« قُلْ سِيرُوا فِى الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ »

(العنكبوت : ٢٠)

وفى مثل قوله تعالى عن دأب المؤمنين الصادقين على هذا التفكر فى خلق السماوات والأرض :

« وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ » (آل عمران : ١٩١)

ففى هذا السير منذ قامت الدعوة إلى الله فى رسالات الرسل يتجدد إشراق البرهان الحى ، والعلمى ، والمحس ، على الله الواحد الحق ، تعزيزاً لليقين به ، كما كانت الأسوة فى إبراهيم ومحمد عليهما الصلاة والسلام ، وتنشيطاً للإقبال الخالص على طاعته ، والجهاد فى سبيله .

ثانيـاً : من حيث أن الأشهر العربية بهذا التقويم القمرى تقل فى مجموع أيامها فى كل عام منها بنحو أحد عشر يوماً عن مجموع أيام السنة الشمسية فإن معنى هذا أن أشهر السنة القمرية تدور فى مدارها الخاص من متغيرات مرورها بفصول السنة الحرارية الشمسية مرة كل نحو إثنين وثلاثين سنة . وهذا هو العامل الثانى من العوامل التى تتجلى بها حكمة ارتباط العبادة فى الإسلام بالتقويم القمرى ، أى عامل ظهور حكمة الله فى امتحان عبادته بقانون « التغير » فى سننه ، وإيقاظ حواس المؤمنين وعقولهم من خدر

الرتابة ، ومن بلادة الاستمرار تحت وطأة الثبات على حال لايتغير ، بينما كل شيء حول الإنسان ، وفى داخل الإنسان ، يتغير . . .

إن هذا التذكير المستمر بقانون الله فى « التغير » مع استمرار عدم التغير عن أحكامه وسننه ، ودوام الاتساق فى حركة آياته وخلقه ، هوفى مسيرة الشهور القمرية امتحان متجدد لثبات المؤمنين عندما يعرض لهم الحج والصوم فى أشهر من الحر لايطيقونها ، فهل يصبرون ويتقون ، أم هل يضعفون وينكصون ؟ كما أن هذا التغير الرفيق وغير المقلق نعمة ينالها المؤمن البار ، المتدبر ، عندما يرى أن الله قد حقق له به هذا التوازن مع آياته المحيطة به ، بإدراكه من خلال هذه المسيرة المطمئنة للشهور القمرية، مافى هذا التجدد بمشاهدة هذا التغير الدائب فى السماوات والأرض وهو يؤدى نفس العبادات صيفاً وخريفاً ، وشتاءاً وربيعاً ، بكل الصدق والإقبال ، فلا تؤوده مشقاتها بالصيف ، ولا تستخفه ميسرتها بالربيع ، فى كل منها يجد له متسعاً وحافزاً لصدق الإقبال على الله ، والإسلام بصالح العمل إليه . .

بهذين العاملين معاً من حكمة الله بالتقويم القمرى ، وهما عامل الحث على التفكر فى خلق السماوات والأرض ، وعامل التوازن فى الحكم على حقائق التكاليف والعبادات الدينية فى ضوء اليقظة بهذه الشهور القمرية إلى حكمة « التغير » ، فى عالم يتغير فى ظواهره . ولايتغير فى حقائقه ، يتبين لنا كم ابتعد المسلمون المعاصرون كثيراً عن وعى هذه الحكمة البالغة فى مدار الشهور الهجرية القمرية ، ونحن نسمع كل عام — مع الأسى

والعجب — إلى هؤلاء المقلدين بغير علم ولاهدى ، وهم ينفخون فى أبواقهم كلما أقبـل شهر رمضان ليطالبوا المسلمين بأن يكفوا عن « سذاجة » شهود الهلال فى مطالع الشهر الكريم — كما يرون ذلك فى نظرهم — وليعملوا على إلزامهم — لو أمكن ذلك — باستعمال الأجهزة الفلكية — التى كثيراً ما تخطىء ، من أجل هذا التحديد الموحد والقسرى لأوائل الشهور العربية !

إن هؤلاء النافخين فى أبواقهم ، تحت تأثير سيادة عصر الآلات على مشاعرهم وتصوراتهم ، يطلبون بسذاجة ولأول مرة منذ فجر التاريخ « ميكنة » العبادات الإسلامية ، ويتصدون بذلك لإيقاف هذا النظام الإلهى لتحديد مطالع الشهور بالتطلع إلى السماء ، غير المحجوبة عن أعيننا ، فى مثل هذا الملكوت المشرق للسماوات والأرض فى بلادنا . . هذا التطلع الذى يقودنا دائماً إلى استمرار مالا غنى للمؤمن الصادق عنه ، وهو التفكر فى خلق السماوات والأرض ، تجديداً للإيمان ، وتعزيزاً لليقين ، وبخاصة فى هذا العصر . . فى عصر العلم وفنونه التطبيقية « التكنولوجية » حيث لازلنا بأغماض الأعين الطويل عن سماواتنا ، وعما فيها من منابع الإيمان ، وعما لايحد فيها من حدود النعم والموارد والطاقات والقدرات . . نعم حيث لازلنا متخلفين فى سباق العصر نحو هذه العلوم ، وأدواتها ، ومايمكن أن يكون لهذه الأدوات العصرية فى أيدينا المؤمنة ، وغاياتنا الشريفة ، من رحمة لنا وللعالمين ، ومن وحدة وألفة وقوة لجميع المسلمين ، فوق هذه الأرض الطيبة إلى يوم الدين . . إن شاء الله رب العالمين .

السؤال الثانى :

« ما هى حكمة الصـــوم فى رمضـــان كما فرضـــه الله على المسلمين ؟ » ٠

هل ترى أنها — كما يقول البعض — من أجــل أن يشــعر الأغنياء بآلام الجوع فيشفقوا على الفقراء ويتصدقوا عليهم ؟ ٠

فان كان هذا صحيحا ٠ فلماذا يصوم الفقراء اذن ؟

ولماذا يدعو الله غير القادرين على الصوم الا بمشــقة الى تفضيل الصوم مع مشــقته عليهم ، مع أنهم اذا لم يصـــوموا فسيقدموا فدية طعام مسكين ، كما قال تعالى :

« وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ ، فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ ، وَأَن تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ » (البقرة : ١٨٤)

الإجـــابة :

تمهيداً للاجابة عن حكمة الصوم فى رمضان يحسن أن نبدأ بإزالة هذه الشبهة التى يلقى بها على مريديهم بعض العلماء الذين يختلط عليهم بحسن نية أحياناً — ماهو من حق الله على العباد فى طاعته فى كل مافرضه عليهم من العبادات ، وماهو من واجب العباد تجاه ربهم ، وصحة عبادتهم له ، فى أن « يعقلوا » حكمة الله فيما فرضه عليهم منها ، وهم يتدبرون ، ويتفهمون ماجاء بشأن هذه العبادات من كتاب الله ، وما بلغهم عنها من أسوة رسول

الله . فقد اعتاد هؤلاء العلماء الفضلاء ، فى صيحات تقليدية ، وفى أحكام عاجلة وسطحية ، تحذير أتباعهم من أى بحث ينهض إليه « العقل » لتدبر حكمة الله فى أوامره ونواهيه ، وفيا فرضه على عباده من عبادات ، أو أوصى به من وصايا . لأن الله – كما يستدلون بظاهر من العلم – لم يأمر إلا ليطاع ، ولما كان مصدر العلم بالحلال والحرام، والخير والشر هو الله، فماذا بقى فى نظرهم من حاجة المؤمن بعد ذلك إلى « عقله » ليعقل حكمة الله فيا أمره به ، وما نهى عنه . متغافلين بذلك – وقد أغمضوا العين عن آية الله ونعمته على الإنسان بالعقل – أن القرآن الكريم ، كتاب الله الجامع لأوامر الله ونواهيه ، ولوصايا الله وشرائعه ، لم يتنزل به سبحانه إلا على من اجتباهم للإيمان به من أهل « العقل » والبيان وهوسبحانه فى هذا يقول :

« إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ » (يوسف : ٢)

ويقول تعـــالى :

« كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ »

(النور : ٦١)

ويقـــول تعـــالى :

« وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُوا الْأَلْبَابِ » (البقرة : ٢٦٩)

العبـــادات والعقـــل :

على أنه مما يتغافل عنه أيضاً بعض هؤلاء الفارهين ، الذين يعتقدون فى طيالسهم الفضفاضة، وفوق الأرائك المرتفعة عن مقاعد مريديهم وأتباعهم

أنهم وهم يوقفون تحرك « عقل » أتباعهم عن التفكر فى حكمة الله فى العبادات والطاعات ، يرفعون فى وجه مريديهم بعد ذلك حجة « العقل » ويعملون على إقناعهم بما يشاؤون ، وفى حدود مايفهمون ، وبذلك . . وبغير حرج من هؤلاء الأتباع المستسلمين بعد أن تجمدت عقولهم المتواضعة يقع هذا التناقض فى قول هؤلاء الذين يوقفون حق أتباعهم فى « تعقل » حكمة الله فى وصاياه وعباداته ، وفى أوامره ونواهيه ، بينما هم بسلطان هذا « العقل » — أو بما هو صورته — يخضعون لإرادتهم ، وحدود معقولاتهم ، إرادة هذه الجموع المسترقة لهم بضعف العقل ، وضعف اللغة ، التى هى أساس تدبر القرآن والسنة ، وبذلك يختلط الأمر على هؤلاء المريدين — بغير عمل العقل وسلامة اللغة — وهم يعيشون عتام علمانية «ولادينية» هذا العصر ، وداخل صراع وغزوات مذاهبه الإلحادية المستوردة إلى أن ينقشع هذا العتام بشروق شمس الدين وحقائقه وسننه من جديد ، وإلى غير مغيب إن شاء الله . .

وفى بقية الإنصاف لحال البعض من هؤلاء العلماء القاعدين ، والشيوخ المتأممين ، نعرض لحجتهم فى ظاهر اقتناعهم بها عندما يمنعون عامة أتباعهم من حرية استخدام « العقل » ، وهى حجتهم بأن أكثر هؤلاء الأتباع بمستوى معلوماتهم لايكادون يسمعون شيئاً ولايعقلون . فإذا ماترك لهم شيوخهم حرية البحث بالعقل فى حكمة العبادات ، وفى غيرها من الطاعات ، فماذا يمكن أن ينجم عندئذ من خطر الخلط والشطح ، والشرور والضلال ، فما تنتهى إليه « معقولات » هؤلاء ، وأكثرهم كما نعرف

فى بلادنا لايزالون من محدودى المعرفة ، وممن يسهل استهواؤهم لولا تعقيمهم ضد « التعقل » بمعنى « التفلسف » وبذلك يأمنون الوقوع فى قبضة الدعايات الخطرة للمذاهب الإلحادية المتنوعة . . أليست هذه الحجة كافية لتبرير عمل هؤلاء الشيوخ « العقلاء » فى إيقاف عمل العقل بين أتباعهم ، حباً لهم ، ورحمة بهم ، وصوناً لهم من مغبات الشطح المؤدى إلى التهلكة ، إذا ما أبيح إطلاق الأعنة لعقولهم . . ؟ !

هذه حقاً هى حجة أكثر هؤلاء الشيوخ لتبرير صيحتهم بين أتباعهم بإيقاف عمل العقل فى تفهم حكمة الله فى شرائعه وعباداته ، وأكثر هؤلاء صالحون بنيتهم ، وراغبون فى الخير بجهدهم ، وبمدى رؤية عقولهم ، واستبصار فطرتهم . ولكن الحق الذى نحمل أمانته فى كتاب الله، وأسوة رسوله ، وأسوة السلف الصالحين من أصحابه ، لايبرر لهؤلاء الشيوخ غير المتدبرين لجسامة مسئولياتهم ، مايقعون فيه من الغض من آية الله ونعمته على الإنسان بالعقل ، ومايباشرونه من تجميد عقول أتباعهم حتى لايتدبروا حكمة الله فى كل شىء ، ومن ذلك حكمته فيما أمرهم به ، وما نهاهم عنه ، بينما هم لايسوسونهم هذه السياسة إلا باسم « العقل » ، ووراء حجة العقل ، وبينما العالم من حولهم يضج فى كل معاركه عن الدين ، أو تناقضاً مع الدين ، أو حياداً مع الدين — كما يزعم من يخفون حربهم للدين — بصليل صراع « العقول » بألوانها ، وأقدارها ، وحججها وجدلها . . !

وأقول لهؤلاء الشيوخ ، ولغيرهم ، إن الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله وباليوم الآخر ، لايتحقق ولا يستوى المؤمن إلا ببرهان عقله ،

وبحجة الله فى تفكره وتدبره ، ومثل هذا الإيمان الصادق الذى لايبلغ إليه المؤمن إلا بما يلهمه الله من صحة العقل ، وبما يؤتيه من البصيرة والرشد ، هو مناط المسئولية والحساب والجزاء عند الله ، وهو منبع العلم ، ومشرق الاهتداء إلى حكمة الله، وإلى فضله ورحمته، فى كل ما أمر عباده المؤمنين به ، وما نهاهم عنه ، ومن ذلك أركان العبادات البدنية والمالية والمكانية فى الصلاة والزكاة ، والصوم والحج . فلاريب أن علم المؤمن عن طريق العقل والتفكر بحكمة الله فى هذه العبـــادات هو هذا « النور » الذى يهديه على طرقها إلى المزيد فى أدائها من صدق النية ، ومن صحة العمل ، ليزداد اقتراب المؤمن بها إلى الله،وارتفاعه بها عن شواغل دنياه،إلى صحيح وعد الله له فى حساب أخراه . .

ومعنى هذا أن الذى لا « يعقل » برهانه على الله لايملك أن يؤمن به ، وإن تخيل فى غمرة التقليد ، ويسر العادة ، أنه من المؤمنين . والخطر الفادح فى هذه الظاهرة ، أى ظاهرة إيمان العادة ، أو الإيمان « العقيم » الذى لايثمر اتباعاً للمعروف ، ولا انتهاء عن المنكر ، ولا صلاحاً فى الأعمال ، ولا تعميراً للأرض ، ولاتسابقاً على الأسوة الحسنة ، هو أن يعيش على الأرض — فى هذا العصر البالغ الخطر بتحدياته ، والمفتح الأبواب على آماله — مائة مليون عربى،وبضع مئات من ملايين المسلمين ، أمواتاً غير أحياء، وأحياءاً غير أموات،أى لاهم موتى فيبكى عليهم، ولاهم أحياء فيرجى خيرهم ، ويتجدد على أرض الحياة والمجد والتاريخ ذكرهم . .

هذا فى الوقت الذى يملك فيه هؤلاء وأولئك من مصادر الحياة

والقوة فى الدين الحق، ومن خيرات الأرض والسماء ، ومن كثرة العدد، وقسوة التخلف، ومذلة الضعف ، ما كان جميعه — لو عقلوا — أقرب الحوافز والطرق إلى ألفتهم ، ووحدتهم ، وقوتهم . ولكنهم مع الأسف شاع بينهم مايفتنهم عن أكثر نعم الله الوافرة عليهم، وأولها نعمة الله باللغة الفصحى المبينة، ومعها نعمة العقل التى لاتتم إلا بهذه اللغة العربية الفصحى غير المهجنة . لهذا ضربتهم الفرقة، وأوشك أن يعمهم القنوط ، لولاخيط من نور رحمة الله لايزال يضىء حياتهم بالأمل، مشرقاً عليهم من كتاب الله الذى هجروه ، والذى يسمع أكثرهم إليه بالآذان الصم ، والقلوب الغلف ، ولذلك لم يدركوا ماقامت عليه دعوة الله به إليهم من التذكير بآية الله ونعمته عليهم ، بهذا اللسان العربى المبين ، وبالعقل الفطرى السليم ، الذى يعقل آيات الله بهذا اللسان المبين ، فيؤمن العاقل ويسلم ، ويعمل المستبين ويتقدم . .

لقد تجمدوا ، وقد استغشوا ثيابهم، وأصموا آذانهم ، عن هذا التذكير المدوى فى آفاق الكتاب الكريم بطلب البرهان على الله الواحد الحق فى السماوات والأرض ، وبتعقل هذا البرهان عليه كما يقدمه الله لهم فى كتابه ، تأكيداً لما قدمه لهم من هذا البرهان على وحدانيته وقيوميته فى آيات ملكوته ، وآفاق سمائه وأرضه . .

لقد أصموا آذانهم — وهم يسمعون — عما دعاهم الله إليه فى كتابه من التفكر ، وطلب البرهان على الحق ، ومن حسن الاستماع إلى القرآن ، والتدبر لما نزل به من البرهان على هذا الحق . وما كان ذلك ليكون

فى وسعهم مالم تتم فيهم نعمة الله بالبيان والعقل ، هذه النعمة التى جعلها الله فى تكاملها آية ابتلائه للانسان الذى كرمه بالنطق ، وكرمه بالعقل ، وجعلها — وهو الذى يهدى من يشاء ويضل من يشاء — طريق الهداية إليه ، ومجال الابتلاء والتسابق فى طاعته ، وابتغاء مرضاته . .

لقد غفلوا فى عجمة الألسنة ، وسكتة العقول ، عن صريح قول الله تعالى لهم بالتفكر والتعقل لبرهانه على دعوة الإيمان به ، والإسلام إليه ، بهذا القرآن المنير ، وذلك فى مثل قوله سبحانه :

« يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُم بُرْهَانٌ مِنْ رَّبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴿﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ واعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِى رحْمَةٍ مِّنْهُ وفَضْلٍ ويهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِراطًا مُّسْتَقِيمًا »

(النساء : ١٧٤ ، ١٧٥)

ولكن من الناس من يستغشى ثيابه على آذانه فلا يسمع ، وعلى عقله فلا يعقل ، وعلى لغته ولسانه فلا يحسن النطق ولايبين ، فهؤلاء يقول الله عنهم ، وعن أمثالهم ، لرسوله :

« ومِنْهُمْ مَّن يسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ ، أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ ولَوْ كَانُوا لَا يعْقِلُونَ ﴿﴾ ومِنْهُم مَّن ينظُرُ إِلَيْكَ ، أَفَأَنتَ تَهْدِى الْعُمْىَ وَلَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ ﴿﴾ إِنَّ اللهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ »

(يونس : ٤٢ — ٤٤)

وإذن فللعبادات — فى أوامر الله ونواهيه ، وفى سننه وشرائعه — حكمة يعقلها المؤمنون حتى يحسنوا أداءها ، كما عقلوا برهانهم على الله الواحد الحق ، فوق الشريك والشبيه ، بتفكرهم فى السماوات والأرض ، وبتدبرهم لماجاء به الوحى والكتاب ، حتى يصدق إيمانهم به ، وتسلم قلوبهم له فى إخلاص إسلامهم إليه . .

فمن ذلك على سبيل المثال مع بالغ الإيجاز لضرب المثل أن الصلاة — كما يعقل المؤمن حكمتها من أصل معناها فى اللغة ، هى من « الصلة » والاقتراب ، ومن الدعاء والذكر ، من أجل ذلك لم تكن الصلاة — وهى الصلة الدائمة بالخالق المعبود — لتنقطع فى نهار المؤمن وليله ، سواء أكانت هذه الصلة بإقامته صلوات المواقيت فى مواقيتها ، أو كانت ماهـو بين ذلك فى صحـواته من دوام ذكره ، والدعـاء له ، والتسبيح بحمده . .

وكذلك نقول إن الزكاة فيما يعقله المؤمن من دلالة حكمتها فى أصل مادتها فى اللغة ومعناها — هى من الزيادة والنماء فى مال المؤمن،الذى هو مال الله فى يده ، وفضله عليه من الرزق الذى يبتليه بأمانته فيه . فهذا المال كما شاء الله يزيد ، وينمو ، ويربو ، فى يد المؤمن ، بقدر مايعطى منه حق الله فيه كما فرضه عليه ، وبما يزيد عن ذلك من زكاة الصدقة . فالحسنة فى مثل هذا التسابق على الوفاء بحقوق ذوى القربى واليتامى والمساكين والسائلين ، هى بعشر أمثالها ، وبأكثر من ذلك ، بعد أن تطهر الزكاة والصدقات هذه الأموال من آفات نقصانها ، وعلل الطغيان

بها ، والله سبحانه يقول فى مثل هذا المعنى لرسوله عليه الصلاة والسلام :

« خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ »
(التوبة : ١٠٣)

ويقول تعالى فى تزكية المال وتنميته بالصدقة :

« يَمْحَقُ اللهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ ... » (البقرة : ٢٧٦)

وأما الصوم فيما يهتدى إليه العقل باستقراء أصوله فى اللغة فهو فيما أجمله هنا — وأشرحه إن شاء الله فيما بعد — يعنى من الدلالة على حكمته البالغة بين العبادات المحددة بزمن معين ، وحال معين : « إعلاء سيادة الإيمان فى إرادة ووجهة وغايات الحياة ، وذلك بالصوم ، أى بإمساك المؤمن — ولو حتى الموت — عن كل مابه الحياة من ضرورات ومقومات الحياة » .

والآن . . وهذه هى نعمة العقل ، ونعمة البيان عنه باللسان العربى ، لاغنى عنهما للصحوة من هذا السبات . . وليتجاوز المسلمون فى أرجاء الوطن العربى ، والعالم الإسلامى ، وهدة القنوط ، ورقدة الخذلان . . نتساءل بكل الشوق ، والتفاؤل ، عن الموعد الوشيك لهذه الصحوة إلى ما بأيدينا ، وما هو فى أماناتنا — عن أنفسنا وعن أهل الأرض — من مصادر نعمة البيان ، ونعمة العقل ، ونعمة الإيمان ، ونعمة العلم ، ونعمة العمل — فى كتاب الله إلينا ، وفى أسوة الرسول أمام أعيننا ، وفى أفضل الموارد ملك أيدينا ، وفى أوسع الآمال وأعظم الغايات ملء آفاقنا . .

إننا نتساءل عن هذا الموعد الوشيك إن شاء الله لصحوتنا فوق كل الأرض العربية ، قدوة لإخواننا فوق كل الأوطان الإسلامية . . فى الوقت

الذى نرى فيه أننا بفضل الله ورحمته قد بدأنا أول هذا الطريق الرحب والصعب فى مصر . . الطريق الذى أخذت مصر تشقه رائدة له ، بعد أن فطنت فى أقوال وأبحاث قادتها وعلمائها إلى مقومات بقائها ، وبقاء الأمة العربية من حولها ، وهى تكريم العقل ، وإحياء اللغة العربية الفصحى ، فى دولة تقوم على الإيمان والعلم ، وفى جهاد تتنوع وتتزايد مجالاته فى ظل السلام ، وذلك من أجل حماية السلام بالقوة ، ومضاعفة القوة بالرخاء ، وتحقيق الرخاء بالعمل ، وإنجاح العمل وربط برامجه فى كل الميادين ببناء الإنسان المصرى العربى الجديد بالإيمان . . الإيمان الذى يقوم على العلم والأخلاق ، ويرتكز على العقل والتعبير ، ويتسابق إلى العمل والإنتاج . . العمل الهادف ، والإنتاج الذى يتجه به العامل المؤمن بكل عقله وقلبه ، وعرقه وجهده إلى الله ، وهو يعيد تجديد الماضى الزاهر بلغة الحاضر المعاصر ، بينما يدفعه الإيثار إلى تقديم الصفوة من جهده وعمله فى بناء هذا الحاضر من أجل أجيال لم يرها فى المستقبل . . وبين عينيه ، وملء أذنيه ، وبامتداد أضواء حياته ، ورؤية عقله ، يقوده على هذا الطريق الرحب الصعب ، أسوة للأقربين والأبعدين ، قول الله تعالى :

« وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ »
(التوبة : ١٠٥)

وقول الله تعالى :

« وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا ،وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ »
(الأنعام : ١٣٢)

وقوله تعـالى :

« ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِى الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ » (يونس : ١٤)

حكمة الصـوم :

وبعد . . . وكما أسلفنا ، فإن حكمة الصوم تجتمع لنا من تدبر ماجاء بشأنه فى مصادر الدين الصحيحة ، فى ضوء ماتقدمه لنا جملة معانيه فى مادته اللغوية . فالصوم فى اللغة هو الإمساك عن الطعام ، والشراب ، والكلام ، والنكاح ، والسير . أى عن جميع ضرورات الحياة . ويغلب على مادة الصوم معنى القوة والشدة . فمن ذلك أن الرجل الصيم بالياء المشددة المفتوحة هو الرجل الصلب الشديد ، المجتمع الخلق . بل إن من الأزمنة والكائنات غير البشرية من يصوم بهذا المعنى من القوة والشدة . فالنهار يصوم ، بمعنى أن يقوم فيه قائم الظهيرة ، وذلك حيث تبلغ الشمس ذروة حرارتها وانتشارها وشدتها على الأحياء عندما تبلغ كبد السماء ، فى لحظات يبدو من تسمرها أنها قد تكون أبدية . والجمل كذلك وهو زميل سعى الإنسان وصبره فى بداوته ، يعرف فى بعض سنوات عمره الصوم ، فهو يمتنع تماماً عن أى شىء يقتات به ، فى أيام يبلغ فيها أقصى مايجتمع له من القوة والشدة والبأس .

والصميم — وهى من أقرب مواد اللغة إلى كلمة الصوم — تعنى من الرجال الخـالص والمحض ، الذى لا يداخله سوء أو وهن . والصمة

بالصاد المشددة بالكسر تعنى الرجل الشجاع . والصمصام السيف الذى لاينثنى ، والصماء الأرض الغليظة .

الصوم إذن ، وكما فرضه الله على المسلمين بصورته فى شهر رمضان ، وكما فرضه بصور أخرى وأيام أخرى على المؤمنين من أهل الكتاب ، هو العبادة التى يتحقق بها للمؤمن هذا المزيد من قوة سيادته على حياته بالإيمان ، من طريق اجتيازه هذه الشدة فى حرمانه من أكثر ضرورات الحياة — وبهذه السيادة للايمان على حياة المؤمن يبلغ من القوة النامية فيه ، والمجتمعة له ، مايجعله الأقدر فى حياته على تخطى المواقف الصعبة ، واجتياز العقبات الشاقة ، على طريق صدق إيمانه بالله ، وصحة إسلامه إليه . وهذا هو الفارق الحاسم بين الصوم كما فرضه الله على رسله ، وفى شرائعه ، وعلى المسلمين فى شريعة القرآن الكريم ، وبين أشكال الصوم الأخرى كما عرفتها الديانات الوثنية الوضعية ، فى الهند والصين وغيرهما . .

هذا الفارق الحاسم هو أن الصوم كما فرضه الله على المؤمنين هو حرمان يتحول بصدق الإيمان إلى زيادة ، وانتصار على الضعف باتجاه يتحول به إعلاء سيادة الإيمان على وجهة الحياة ، وغايات الحياة ، إلى أقوى القوة ، ومن ثم لتوجيه هذه القوة النفسية ، والتطهرية ، والعقلية ، والإرادية ، بالصوم إلى مواقف انتصار متجدد فى طاعة الله ، وفى الأسوة الحسنة للمؤمنين — وعلى العكس من ذلك فإن الصوم فى المعتقدات الوضعية الوثنية هو انتقال بالزهد ، ورفض العمل ، والتماوت ، من حال القوة الطبيعية كما هى فى فضل الله على عباده بكثرة الأنهار ، ووفرة الموارد ،

إلى حال من الضعف ، والبله ، والتعفن ، يزعم أصحابه وكهانه أن عنده يتم تحقق هذا التناقض — الذى لم يتحقق قط — وهو « الفناء » . . و « الحلول » ! !

وربما كان فيما أوحى الله به إلى بعض أنبيائه من أنواع الصوم ، فى مرحلة الإعداد لبعثهم ، أو لترقب آية خاصة غير منتظرة فى أقوامهم ، مايزيد معه فضل الصوم وحكمته على « إعلاء السيادة بالإيمان » وعلى تجميع القوى لاجتياز أصعب المواقف على طريق النقاء والصدق والأسوة بهذا الإيمان . ونذكر من ذلك — بعد الذى أشرنا إليه من تحنث النبى صلى الله عليه وسلم وصومه — قبل فرض الصوم — فى غار حراء ، ماجاء من قصص القرآن الكريم عن نوع آخر من الصوم هو « الصوم عن الكلام » كالذى أوحى الله به إلى زكريا وذلك فى قوله تعالى من قصة هذا الأمر بالصمت ، أى بالصوم عن الكلام ، إلى فترة محدودة :

« وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِى فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ ۝ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ ، إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِى الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ، وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ » . (الأنبياء : ٨٩ ، ٩٠)

ويقول سبحانه فى تفصيل هذا الدعاء بالذرية وما كان من إشفاق زكريا ودهشته كيف تكون له ذرية ، بينما هو قد تجاوزته السن ، وامرأته عاقر :

« فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّى فِى الْمِحْرَابِ أَنَّ اللهَ

يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ • قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ ، قَالَ كَذَلِكَ اللهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ • قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا ، وَاذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ » (آل عمران : ٣٩ ، ٤٠ ، ٤١)

ففي هذا الموقف من الرجاء والدعاء ، ومن استجابة الله لزكريا هذا الدعاء ، يطلب زكريا إلى ربه وقد بشره بنبي من ذريته الطيبة اسمه « يحيى » أن يجعل له آية وعلامة على تحقق هذه البشرى ، وعلى اجتياز الموقف المصحوب بالعجب والدهشة من نفسه ، ومن زوجته ، ومن عشيرته ، فجعل آيته هذا الصوم عن الكلام « ثلاثة أيام » يتهيأ فيها ، ويتهيأ معه ذووه وعشيرته لتلقي هذه البشرى غير المتوقعة . وفي هذا المعنى الذي يجليه القرآن الكريم في أكثر من سورة يقول تعالى :

« كهيعص • ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا • إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا • قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا • وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِن وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا • يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ ، وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا • يَا زَكَرِيَّا إِنَّا

نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَل لَّهُ مِن قَبْلُ سَمِيًّا * قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَت امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا * قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا * قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّي آيَةً ، قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا * فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا » (مريم : ١ -- ١١)

وكذلك نذكر من صوم الكلام كما أوحى الله به للطيبة الطاهرة البتول السيدة مريم أم المسيح عليه السلام لتجتاز بقوة هذا الصوم موقف مجابهتها — وهى تحمل بين ذراعيها وليدها الآية من روح الله — هؤلاء السفهاء من قومها ، وحتى ينزهها الله بهذا الصمت ، أو صوم الكلام ، عن مجاوبة أهل الشبهات فى أمرها . . وفى هذا الموقف الذى واجهته مريم بنوع من الصوم علا به إيمانها منتصراً لطهرها ، ولآية الله بين يديها ، على سفه قومها والتعجل باتهامهم لها — يقول الله تعالى بعد آيات مولد المسيح ، ودهشة مريم لمولده وهى الطاهرة التى لم يمسسها بشر :

« .. فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا * فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ ، قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا * يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا * فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ ، قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ

مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا ● قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا » (مريم : ٢٦ - ٣٠)

هذا مع الإيجاز صفوة ما يتاح لى أن أقوله هنا فى هذا المجال من الرأى الذى أجتهده بهدى الله وفضله وتوفيقه عن حكمة الصوم ، الذى يتجاوز فى الإقبال على مشاقه ، ووعى الغاية منه ، واستكمال حقائق العبادة فيه حتى درجة الاعتكاف — مألوف الناس عن « الصبر » حين يتحدثون عن الصبر فى رمضان ، وعن تقوية الإرادة حين يتحدثون عن تقوية الإرادة بالصوم .

إن حكمة الصوم كما أشرت تتجلى فى كمال اجتياز مشقاته ، واتساع مجال ذكر الله به ، والإمساك عن كل ما يشغل النفس عنه من النساء والأبناء والأموال والمتاع ولهو الحديث ، وذلك تسابقاً بين يدى الله لبلوغ هذه الدرجة من « إعلاء سيادة الإيمان فى إرادة ووجهة وغايات الحياة » وحيث تتحقق للمؤمن بهذه الدرجة قدرته على تخطى و « اتقاء » كل الصعاب والمخاطر والتحديات التى قد تحدق بإرادته ، والتى قد تلتوى بطريقه الرحب المفتوح والمضىء مع الله ، قليلا أو كثيراً ، ليبقى هذا الطريق مستقيما بين يديه ، ومفتوحاً ورحباً ومضيئاً على الدوام . ومن أجل ذلك فقد اقترن فضل الله على عباده بحكمة الصوم كما أودعها فى رمضان بكلمة « التقوى » التى يجتمع فيها كل مافى حكمة الصوم من هذه القدرة — من أعلى — على اتقاء المخاطر السائدة ، أو المنتظرة ، التى قد تحدق بإيمان

المؤمن ، وبوضوح صراطه المستقيم ، وذلك حيث يقول الله تعالى فى آية فرض الصوم :

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ من قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ » (البقرة : ١٨٣)

إنسان الجنـــة :

وأمضى — مرة أخرى — من أجل مزيد من الوضوح والبيان لهذه العبادة الجامعة لأكثر العبادات فى صوم رمضان ، فأكتب هذه الكلمات التى لم يسبق تدوينها عن هذا الشهر الكريم ، المصطفى بين الشهور ، سواء فى كتب التراث القديمة ، أو فيما بين أيدينا من هذه الكتب الدينية المعاصرة وذلك لأزيد من صحة تصور المؤمن لأفضل ماتكون عليه هيئة الصائم عندما يصح له تدبر حكمة الصوم .

وأبدأ من قصة البشر ببداية آدم فى الجنة . لقد كان آدم فيها لايأكل ولايشرب بمفهومنا للأكل والشرب . لقد كان من الممكن أن يظل بالجنة خالداً من غير طعام كالذى نطعمه ونهضمه ، ومن غير شراب كالذى نشربه ونعرقه . خالداً من غير صراع وخوف ، ومن غير خلفة وأبناء ، فلما أن عصى الله ظهرت « عورته » ، وهبط إلى الأرض هو وزوجه . . هبط لابتلائه بطاعة الله عبر الصراع والخوف ، ومع ضرورة الطعام والشراب ، والزواج والأبناء ، ومع مخاطر الوثنية والكفر ، والمتاع واللهو ، والعدوان والقسر . ومن أجل ذلك كان الرسل ، ونزلت

الرسالات ، وشرع الله للصالحين من عباده شرائعه لعبادته ، واتقاء معصيته ، وبناء مجتمع المؤمنين به ، والمؤتلفين على طاعته وحبه وابتغاء وجهه . .

إنه فى كل ما فرض الله على المؤمنين من أركان عبادته تكون أصدق هيئاتها مقترنة بشوق المؤمن فى اقترابه من الله إلىحد تصور العبور إليه . إن المصلى الصادق الخاشع وهو فى أقرب قربه فى السجود لله يكاد — لوأتيح له أن يعبر إليه — أن يعود مرة أخرى فيكون إنسان الجنة الأعلى بطاعة الله ، وبخلوده عند الله عن محنة الصراع والخوف ، وفتنة اللهو والمتاع فى هذا الابتلاء الذى صار إليه الإنسان إلى « الدنيا » والأرض ، بعد أن عصى الله وبطر نعمته فى الرضوان والجنة . .

وهكذا يكاد المؤمن الصادق ، وهو يتقرب إلى الله بزكاته وصدقاته أن ينفق ما بيده ، حباً لله ، وكأن فى دوام النفقة مايقربه من العبور إلى الله حتى وإن هلك . .

وهكذا فى الصوم تتجلى لنا أفضل هيآته فى هذا الشوق الذى تكاد تخفق به أجنحة المؤمن ليعبر إلى الله بصومه . . ومن البداية فأن هذا المؤمن الصادق يصوم ، ممسكاً عن الطعام والشراب ، وعن النساء والكلام ، ومقبلا على الله بالصلاة والدعاء ، وبالتسبيح والذكر ، وكأنه قد اعتزم أن يموت ليحيا ، وأن يضعف ليقوى ، وأن يكون « إنسان الجنة » الذى يخلد فى رضوان الله وأمنه ، حتى لايكون إنسان هذه الأرض ، المبتلى بشهواتها ومتاعها ، وصراعاتها وتكاثرها . .

عندئذ . . وكما تحقق على مر العصور والأحقاب . . يقترب هؤلاء الصائمون المؤمنون الصادقون من منابع الأمن والرضوان . . وكأنما وهم يبلغون بكمال الصوم ، وكمال الامتناع ، مع كمال الصحبة لله والإقبال عليه — مشارف الجنة أمام أعينهم ، وقرب أسماعهم ، فلا يكاد يفصلهم عنها إلا مس هذه الأرض الخشنة ، وإشراقات هذه السماء الصافية ، بينما هم يرون ، أوكأنهم يرون — ما لم تره عين ، ويسمعون — أوكأنهم يسمعون — مالم تسمعه أذن . . ! . . وهم على ذلك — فى قمة حسنات رمضان — إخوة مؤتلفون ، وأسرة بكل أفرادها متماسكون . .

ولئن جاز لى بحق الأمانة فى العلم ، بل لئن كان هذا الحق واجباً يفرضه صدق الحديث ، ويحكمه طلب البرهان . . لئن جاز لى أن أتحدث إلماماً عن بعض تجربتى فى الصوم الكامل ، أى صوم الاعتكاف ، الذى أشار إليه القرآن الكريم ، والذى لم يفرضه إلا استحساناً لمن قدر عليه ، وتيسيراً عمن تثاقل عنه — فإنى استغفر الله أولا من مظنة تزكية النفس ، أومن التحدث فى غير موضع عن بعض نعمة الله . ثم اذكر أنى عرفت هذا النوع من الصوم مرتين . . الأولى فى صحراء السويس . . والأخرى فى بادية وادى الطور ، وهى على الطريق المؤدى فى طور سيناء إلى إحدى هذه القمم — فى جبل الطور . .

إلى هذه المنطقة باتساع مابين خليجى السويس والعقبة خرجت أبتغى وجه الله بالهجرة إليه ، فى بعض أرضه الطيبة الواسعة . خرجت بأسرتى ، وأبنائى الصغار ، فيما بين سنتى ١٩٤٥ و ١٩٥٥ ، وحيث كان فساد



الملك وفساد الحكم ، وسلطان المستعمر ، قد حال بينى — وعدد ممن كنت أستعين بهم من الزملاء وبين الاستمرار فى إصدار مجلة الأنصار ، التى كنت أقوم بتحريرها ، متوجهاً بجملة هذه المفاهيم الصحيحة حول مقومات صحوة المؤمنين المسلمين إلى شعب مصر وجميع الشعوب العربية . فلما أصبحنا إلى العجز عن أن نقول مانعتقد ، ولم يبق إلا أن نجتر ما كنانقول ، أو أن نطوى أوراقنا وننتظر مايكون ، رأيت أن أفضل — وأصدق مايمضى إليه الداعية إلى الله ، أن يبدأ بنفسه وبمن معه ، وأن يجعل الأسوة فيما دعا إليه فى عمله هو ، وفى تغيره وتحرره فوق إرادة خصوم رأيه ، ملتزماً فى الأرض الواسعة ، وتحت رحمة الله ومع الله ، بكل مايملك أن يلتزم به ، وهكذا كانت الهجرة أو الخروج إلى سيناء — بعد السويس — فيما بين أول سنة ١٩٥٢ ميلادية وحتى نهاية سنة ١٩٥٥ ؛ أى فيما بين سنتى ١٣٧٢ هجرية وحتى سنة ١٣٧٥ . .

هناك فى هذه السنوات الأربع شاء الله أن أقضى رمضان الأول فى ضيافة بعض ذوى القربى من العرب البداة هناك ، وفى رحلة حول جبل الطور الذى استقر عليه منذ سنة ٥٢٥ ميلادية دير سانت كاترين ، وتناقل رهبانه وبعض المستشرقين الأوربيين ماليس صحيحاً بأن على هذا الجبل نزلت التوراة . . .

وأما ماكان بعد ذلك من رمضانات ثلاثة فقدأعاننى الله فأكملت صومها اعتكافاً بوادى الطور ، وعلى مقربة قريبة من بيتى فيه ، وكأنى تحت السماء وفوق البيداء فى مسجد طهور . لقد عرفت فى هذا الصوم ، واستهداء بالله ،

أول هيئة الاعتكاف به ، بعيداً عن الأهل والأبناء ، وقريباً من الله بطول الدعاء ، ومع قلة الماء والزاد ، ومع كون الأرض هى الفراش ، والذراع هى الوساد . .

وألخص شهادتى لمن تجمعنى بهم فى هذه الكلمات أواصر الألفة بالدين ، والمودة فى الحق ، فى أنى شهدت من آيات فضل الله على عبد أخبت له بنيته فى صحة الصوم ، وإدامة الذكر ، وتدبر القرآن ، مالم تكن عينى — من عجائب هذا الفضل — لتراه ، وسمعت ما لم تكن عينى لتسمعه ، حتى لقد خشيت على نفسى لولا أن ثبتنى أهلى — وما كنت إلا عبداً مؤمناً بالله ، ومتبعاً بكل ما هداه الله إليه — لرسول الله . . ومازال شكرى لله على مالا أملك الحديث عنه مما رأيت وسمعت ، وقد اقترب بى العبور بصحة هيئة الصوم ، وصحة الإقبال عليه ، إلى هذا الإنسان المحبب إلينا فى وعد الله المكنون . . إنسان الجنة . . الذى لايأكل ولا يشرب . . لأنه طعم الخلد ، وشرب الرضوان . . إنسان الجنة . . الذى نجتاز كل مشقات ابتلاء الله لنا من أجله — دون تصوف أو تفلسف . . . والذى نموت حين نموت من أجل أن نعود فنحيا فى صورته .. وحقيقته .. ونعمة الله السابغة أبداً عليه . . إن شاء الله الرحمن الرحيم ، الذى نسأله سبحانه أن يكون لنا إلى هذه النعمة حظ دعاء الصالحين من آبائنا ، وأن يكون لأبنائنا وأزواجنا — إن صلحنا — حظ دعائنا لهم ، بعد أمانتنا فى تربيتهم وتوجيههم ، كما جاء من فضل الله بذلك فى قوله تعالى :

« الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ

وَيُؤْمِنُونَ بِهِ ، وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا ، رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ، رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ، وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَن تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ » (غافر : ٧ ـ ٩)

ليلة القدر :

ونصل إلى خاتمة البينة والبرهان على أن حكمة الصوم فى كمال أدائه هو كما ذكرنا فى « إعلاء سيادة الإيمان فى إرادة ووجهة وغايات حياة المؤمن ، سواء أكان فرداً أو جماعة » وذلك عندما نشير إلى هذه الليلة المباركة من الشهر المبارك بالصوم وهى « ليلة القدر » ، فى هذه الليلة التى وصفت بالقدر العظيم ، وبالشرف الذى زادت به عن شرف ألف شهر من الأيام والليالى المباركة ، كان أول نزول القرآن الكريم على النبى عليه الصلاة والسلام ، بينما كان يتحنث ويتحنف بين يدى ربه فى رمضان عام البعثة فى غار حراء . ومعنى هذا أن بعثة رسول الله وهو خاتم النبيين والمرسلين ، وأن نزول كتاب من الله هو خاتم الكتب ، والمهيمن على مافيها ، والباقى بيدها ، كانا فى قدرهما العظيم بالنسبة لرسول الله ، وبالنسبة للمسلمين فى جميع العصور ، وبالنسبة لجميع البشر ، هما ذروة هذا « الإعلاء لسيادة الإيمان فى حياة الرسول وحياة متبعيه إلى يوم الدين » ، وما ذلك

إلا ثمرة لصدق تحنفه ، وصدق صومه ، وإخلاص إسلامه إلى ربه ، بوجهه وقلبه ، ولسانه ودعائه ، وتطهره وعمله . .

فى قدر هذه الليلة بما كان من تقدير الله لها ليتجلى بها ، وليشرق على أفقها ، هذا القدر العظيم للنبى وقومه ، بنزول أول البيان عن القرآن المبين — يقول الله تعالى :

« إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِى لَيْلَةِ الْقَدْرِ • وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ • لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ • تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِّن كُلِّ أَمْرٍ • سَلَامٌ هِىَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ »
(سورة القدر)

لقد تجلى فضل الله على نبيه بهذه الليلة المباركة بتنزل الملائكة على قلبه بالسكينة ، سكينة المؤمنين ، حتى يأمن دائماً إلى ربه ، وحتى لايخاف ولايحزن أبداً مما قد يعرض من الأذى والتكذيب له . وذلك بمثل ماجاء بعد من قوله تعالى :

« هُوَ الَّذِى أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا » (الفتح : ٤)

وهذه السكينة والأمن يتنزل بها الله عن طريق ملائكته على قلوب من أخلصوا التوجه إليه والأسلام له ، وذلك فى مثل قوله تعالى :

« إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا » (فصلت : ٣٠)

وأما تنزل الروح عليه صلى الله عليه وسلم فى تلك الليلة المباركة ، ليلة القدر العظيم ، فكان هو أول الوحى ، وأول نزول القرآن الكريم . .

ولقد بقى للمسلمين المخلصين الصادقين ، فيما بقى بين أيديهم من نعمة وخير ، ذكر هذه الليلة المباركة التى شرفها الله بنزول قرآنه ، وبعثة رسوله ، ومولد الأمة ذات القدر العظيم بإيمانها ؛ وكتاب الله لها ، ورسوله إليها . ولئن كانوا لايزالون يذكرونها فى الأواخر من شهر رمضان أملا فى أن ينالهم بإدراكهم لمثلها ماضيعوه من القدر ، فلقد فاتهم بما فات أكثرهم من هيئة الصوم الكامل ، وحكمة الصوم الصحيح ، مالا ينالهم معه فى المجموع إلا بقية هذا الرجاء فى فضل الله أن يرجعوا إلى ربهم ، وأن يتذكروا مافاتهم من الحق والعلم ، ومن صحوة القلب والعقل ، على طريق حسن المتاب له ، وصدق الإنابة إليه . .

وستبقى ليلة القدر فى كتاب الله ، وفى تاريخ الدين الحق ، سراجاً وهاجاً يذكر المسلمين بهذا القرآن المنير ، والكتاب الكريم ، ليشقوا كل الطرق إلى تدبره ، وإلى صحة العمـــل بما جاء به . . وحسبنا هذا اليوم فى نعمة الله ، وفى العصمة به ، وفى النجاة بأسبابه من أيدينا إلى مايرضيه . . ثم حسب كل مؤمن صادق أن يؤمن بأن له عند الله — بقدر جهده وجهاده ، وبقدر صدقه وتطهره : « ليلة قدر » خاصة به . .

قد توافيه بنعمة الله عليه فى ليلة مباركة من ليالى رمضان . . أو فى ليلة مباركة أخرى يشاؤها الله له ، ولقدره عنده ، فى غير شهر رمضان . . ولكم نال هذا القدر فى ليلة مباركة وافت بحقها – أهلها العاملون الصامتون . . بينما تناءت وغابت عن أولئك الساهرين الصارخين بطلبها وهم بحقها جاحدون ! .

الأغنيــاء والفقــراء :

وننتهى أخيراً إلى مواجهة هذا الوهم الخاطىء الذى تواتر فى بعض الكتب عن تفسير حكمة الصوم ، والذى ربما كان من غايات هذا السؤال الذى نجيب عنه ، أن نبرأ بأجابتنا منه ، بعد تعقل وروية نضع بهما الحق فى نصابه ، ونعنى هذا القول السائد بغير سند بأن الله قد فرض الصوم فى رمضان على المسلمين « من أجل أن يشعر الأغنياء بآلام الجوع فيشفقوا على الفقراء . . ويتصدقوا عليهم ! »

ولقد انعطف السؤال بالمتسابق من أول الأمر إلى هذا الاتجاه الصحيح من الفهم ، وذلك بالقول فى نفس السؤال : « إن كان هذا صحيحاً . . فلماذا يصوم الفقراء إذن ؟ » . . ثم بقوله بعد ذلك أيضاً : « ولماذا يدعو الله غير القادرين على الصوم إلا بمشقة إلى تفضيل الصوم مع مشقته عليهم ، فى حين أنهم إذا لم يصوموا فسيقدموا فدية طعام مسكين ، كما فى قوله تعـالى :

« وَعلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ ، فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْراً فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ ، وَأَن تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ » (البقرة : ١٨٤)

والجواب لدفع هذه الشبهة التى توارثناها مع المفاهيم الكثيرة غير الصحيحة حول حكمة العبادات أقول أولا إن توجيه فريضة الصوم إلى جميع المسلمين بغير تفرقة بين الأغنياء والفقراء تؤكد أن هذه العبادة فى حد ذاتها ليست من أجل تحريك عطف الأغنياء على الفقراء حتى يتصدقوا عليهم ، وإلا لكان لها نظام آخر ومنحى مختلف . كذلك فإن استحسان القرآن الكريم لصوم من يشق عليهم الصوم لكبر السن وغيره ، مع أنه يشق عليهم ، ومع أنهم يفدون عن فطرهم بإطعام الفقراء والمساكين ، وذلك فى قوله تعالى : « وأن تصوموا خير لكم » إنما يعنى بغير خفاء أن فى الصوم خيراً كثيراً يتساوى فى التسابق إليه الأغنياء والفقراء ، وقد يسبق إليه الفقراء الذين لايشغلهم عن الله ماقد يشغل الأغنياء . وهذا يقطع بخطأ الربط بين حكمة الصوم وتحريك عطف الأغنياء على الفقراء ، نزولا بهذه الحكمة الجليلة إلى هذه الدرجة الدنيا من التضييق . .

ثم أقول ثانياً إن الأغنياء ، إذا تصورنا أنهم فى بعض عصور تخلف المسلمين يصبحون طبقة ذات حدود وامتيازات — هم أشد المسلمين حاجة إلى أن ينفقوا مما تحت أيديهم من مال الله ، ومن حقوق أصحاب الحق من ذوى القربى واليتامى ، والمساكين ، والسائلين ، وما قد تنفتح له أبواب النفقة على حماية الوطن ومصلحة المواطنين . هذا إذا أرادوا — ومن غير حاجة إلى عصا رمضان وزواجره — أن لايتحولوا بالمال إلى طغاة غواة ، يذلهم المال ويستعبدهم ، ويطغيهم ثم يطغى عليهم ، وذلك مصداقاً لقوله تعالى فى محكم القول :

« كَلاَّ إِنَّ الإِنْسانَ لَيَطْغَى * أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى * إِنَّ إِلَى رَبِّكَ الرُّجْعَى » (العلق : ٦ ـ ٨)

ثم أقول ثالثاً ـ إن الإيمان الحق بالله هو دعوة دائبة للانفاق فى سبيله : إنفاق الجهد ، وإنفاق المال ، وإنفاق النفس . وإن جميع العبادات مثل الصلاة والزكاة والصوم والحج ، وهى بطبيعتها أركان راسخة لصرح الإيمان ، وقنوات دافقة يتطهر بها ويتنور هذا الصرح على طريق الإيمان ، إنما تحمل بكل دلالتها ، وحكمتها ، وسلامة أدائها ، مثل هذه الدعوة الدائبة إلى المؤمنين الصادقين المسلمين ، لينفقوا فى سبيل الله ، لافرق بين الأغنياء والفقراء ، إلا فى صحة الإيمان ، والتبرؤ من الرياء بصدق هذا الإيمان . .

ولقد يسأل من يحصر النفقة والبر والمواساة فى المال بمعنى الدراهم والدنانير ، فنذكر هؤلاء بأن المال دولة بين الناس ، وبأن المال بمعناه الأوسع أكثر وأعم من الذهب والفضة ، وبأن بعض الفقراء ـ فى حال فقرهم إلى الذهب والفضة ـ قد يتقربون إلى الله بما هو أغلى من الذهب والفضة . ولقد كانت للمسلمين فى كل العصور هذه الأسوة الحسنة ـ لو فقهوها وأحيوا ذاكرتهم بأمجادها ـ عندما تآخى فى سبيل الله فقراء أنصار المدينة بأغنياء مهاجرى مكة ، فقدم فقراء الأنصار لأخوانهم فى الدين ماهو فى قيمة المال أغلى من الذهب والفضة ، وماهو فى مجد التاريخ ، وشرف الحق ، وفضل الأيثار ، أبقى من الأقمار والنجوم . لقد قدم الأنصار الفقراء لإخوانهم المهاجرين الأغنياء وغير الأغنياء ، دوراً آمنة للأقامة ،

ونخيلا للثمرة الطعام ، وزوجات للسكن والعصمة ، وآثروا على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة . .

وعن مثل هؤلاء الفقراء الأغنياء من التعفف يقول الله تعالى فى رفع الحرج عنهم عندما دعا الرسول بعضهم ليخرجوا معه إلى غزوة فى سبيل الله ، فلم يكن عندهم ولاعند الرسول مايحملهم عليه من الإبل والنفقة :

« لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ ، مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ، وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ • وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ ما أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنفِقُونَ »

(التوبة : ٩١ ، ٩٢)

وهكذا يوجه القرآن الكريم دعوته إلى « الأغنيـــاء » الذين ينفقون أموالهم رئاء الناس ، ويعيشون بأهوائهم قرناء الشيطان ، ليجمعوا بين أن يؤمنوا بالله واليوم الآخر ، وأن ينفقوا مما رزقهم الله ، وذلك فى قوله تعالى :

« وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ ، وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا » (النساء : ٣٩)

كما نجد أنه سبحانه وتعالى يتحدث بالتكريم عن هؤلاء الفقراء المجاهدين فى سبيل الله ، الذين يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف ، وعن هؤلاء

الأغنياء الكرماء الذين استجابوا لله والإيمان فأنفقوا أموالهم سراً وعلانية ، وذلك حيث يقول سبحانه فى حض المؤمنين من الأغنياء والفقراء على إنفاق ما بأيديهم لمن حولهم ابتغاء وجه الله :

« وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنْفُسِكُمْ • وَمَا تُنفِقُونَ إِلاَّ ابْتِغَاء وَجْهِ اللهِ • وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ • لِلْفُقَرَاء الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِى سَبِيلِ اللهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِى الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاء مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللهَ بِهِ عَلِيمٌ • الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ »

(البقرة : ٢٧٢ – ٢٧٤)

التغير برمضـــان :

ولكن حتى بهذا الميزان غير الكفء لبيان حكمة الله الجليلة فى صوم رمضان ، والتى يحصرها البعض تقليداً فى مهمة تحبيب الإنفاق فى سبيل الله إلى الأغنياء لإصلاح شأن الفقراء ، نسأل هل يسر المسلمون فى العصر الحديث فى هذا الاتجاه ، فنجد أن الأغنياء قاموا بواجبهم – على قدر ما بأيديهم – فواسوا الفقراء فى رمضان ، وفيما بعد رمضان ؟

المشاهد ، وما سجلته الكتب عن العصور الماضية فيما بعد عصر الرسول

والخلفاء الراشدين ، أن أكثر المسلمين مالوا إلى الدنيا بعد أن دب إليهم الترف بكل أدوائه ، وبعد أن غرهم ما أفاء الله عليهم من وحدة الوطن ، ورسوخ الحكم ، وامتداد العمران ، فاسترخوا عن عهد الله ، وافتتنوا بما قدمه إليهم مواطنوهم فى الدولة الجديدة الكبيرة من صور متاع الأكاسرة والقياصرة قبل الإسلام . .

لقد مالوا إلى الدنيا فاتجه الإنفاق لها ، وليس للإيمان ، وضاعت بالفرقة والفتنة – أو كادت – حكمة الصلاة والزكاة والصوم والحج بينهم . لقد اهتزت هيئة الأداء السليم للعبادات ، بين رنين الكئوس ، وانهيار النفوس، وتسرب الإيمان ، وإغلاقهم الآذان عن القرآن . . وكان مما تغير بحياتهم رمضان . . الذى نقضوا الحكمة فى صومه ، فجعلوه بعد ساعات الإمساك التقليدى عن الطعام والشراب شهراً لأفراح شهواتهم إلى فاخر الطعام ، وحاضر اللهو ، بعد أن أحالوا ليله نهاراً ، وقلبوا عكوفه أوزاراً . . بل بعد أن طاب لهم أن يأكلوا فيه – وهو شهر واحد للصوم – طعام أحد عشر شهراً . . فاخرة الطعام . . ودعهم من المساكين . . الصوم هو للفقراء والمساكين ! !

ومضى مثل هذا الحال بالمسلمين – فى سنن الله – إلى وقوعهم فى قبضة أعدائهم ، وإلى تخلفهم فى الحضارة والرخاء والعلم عن شعوب تتلمذت قبل ذلك فى العلم والعمران على أيديهم . ثم بدأ عصر الصحوة يدب إليهم دبيباً ، فى هذا القرن الرابع عشر من الهجرة والقرن العشرين من الميلاد ، ومع ذلك فقد أخذ المسلمون يسيرون إلى نهضتهم ويوم وحدتهم ، على

أرض الرسالة ، والقبلة ، ونزول القرآن ، سيراً وئيداً ، بينما يقفز العالم من حولهم إلى أهدافه قفزاً . وبينما بقى ماتغيروا به عن عاداتهم ومنها رمضان والصوم على حاله . .

إننى أذكر من مراحل هذا التغير من مواقف عامة الناس تجاه رمضان ماكان منذ أكثر من نصف قرن من وفرة صدقات الأغنياء به على الفقراء ، إننى أذكر ماشاهدته بعينى فى سن الطفولة من مكارم أسرة وافرة الغنى بالتجارة والزراعة كانت تحكم إحدى مدن محافظة كفر الشيخ ، الواقعة على شاطىء فرع النيل الغربى . كان كبار هذه الأسرة يحملون مسئوليتها كاملة عن إطعام وكسوة جميع أهل المدينة طوال شهر رمضان ، لأن هؤلاء جميعاً كانوا يعملون عندهم . لقد كانوا يخصصون لكل أسرة فى المخابز التى يملكونها نصيبها اليومى المسجل من الطعام ، ومن مكاتب شركاتهم كانوا يقدمون زيادة عن الأجور علاوات شهر رمضان ، ثم يقدمون قبيل نهايته حاجة كل أسرة من أقمشة العيد للرجال والنساء والأطفال . . .

من أجل هذا كان رمضان « عزيزاً » جداً عند هؤلاء العشرات من ألوف العاملين وأسرهم ، حتى إنهم – كما رأيت ذلك بعينى بين الرابعة والسابعة من العمر – كانوا يحتفلون باستقبال شهر رمضان بعد أن خلعوا عليه صفة « البشر الصالح » ، كما يستقبلون القادة المنتصرين . وكانت ليالى رمضان تبقى كلها أفراحاً ، وصلوات ، وأناشيد أطفال ، وتزاور عائلات، إلى أن يقترب الشهر من نهايته، وعندئذ – وهذا هو العجيب –

كانوا فى الليلة الأخيرة يفترضون أن رمضان البار العظيم قد توفى ، فهم يضعونه فى نعش فاخر يحملونه - فارغاً بالطبع - ثم يسيرون من ورائه ، وفى توديعه ، وهم يعولون وينشجون فى بكاء وحزن صادقين عليه ، حتى يطوفوا به جميع أرجاء المدينة ، وكأنه زعيم كريم مات حقاً . . ولم لا . . وبيوتهم الخاوية قبل رمضان قد ملأها الأغنياء خيراً . . من أجل رمضان . . أو من أجل حسن السياسة لعمالهم ، الذين هم أدوات ثرائهم ، باسم رمضان . . . . ولا بأس !

ثم تنتهى هذه الصورة الوفاقية من صور تجمع عامة الناس فى حالة رضية بين الأغنياء والفقراء فى رمضان ، إلى صورة أخرى يصبح فيها شهر رمضان بعد أن ظهرت الفئة الوسطى من الناس بين الأغنياء والفقراء - هو عند الأغنياء والمتوسطين شهر المتاع المضاعف بكل شئ ، باسم الدين ، وحيث تظهر فى رمضان وحده من نوادر الأطعمة ، ومن الفواكه المجففة ، ومن ثمار الجوز واللوز وغيرها ، مالا يظهر فى غيره . . هذا بينما يحمل الأطفال الفوانيس . . وهم ينشدون ويغنو ن . . وأهلوهم بين الإفطار والسحور يواصلون - على قدر جهدهم - متعة المضغ والترشف واللهو فى وجبة تمتد بطولها من مغيب الشمس إلى الفجر . . تحت رايات رمضان . . وبركات مضان . . التى لاينال فضلاتها الفقراء إلا بالسؤال والإذلال . . !

ثم نصل إلى السنوات الأخيرة حيث بدأت تختفى معالم رمضان الأغنياء ، وذلة أيدى الفقراء فيه على أبواب الأمراء ، لينحسر هذا الميراث عن أسوأ ما فى الماضى ، دون أن نصحو بعد إلى أفضل مابقى لنا منه . . لقد انحسر

عن دهشة الأجيال الحديثة وحيرتها فى المدن حول رمضان هذا . . وحول الصلاة .. والدين . . لقد انحسر دون رفض . . ودون تسليم مسبق . . إنهم يريدون — مع إقبالهم على الإيمان وحقائقه وعباداته — أن يفهموا أولا . . أن يملكوا الحجة والبرهان . . وأن يعرفوا الحكمة والمصلحة . . الحكمة والمصلحة فى إيمان الفرد بذاته . . وفى إيمان المجتمع بوحدة أفراده . . .

وربما لن يطول انتظار هذه الأجيال الأكثر تفتحاً على هويتها . . وعلى أصالتها . . وعلى عصرها . . وعلى آمالها الكبيرة لها ولأمتها العربية فى هذا العصر . . فيعود لرمضان — فى صف جميع العبادات — ما عرفه السلف الصالح على عهد النبي الكريم وأصحابه ، من سماته وصفاته ، ومن حكمة الله فى صومه وقيامه ، تأسيساً على فضائله التى صار بها الشهر « المصطفى » عند الله بين الشهور العربية . . الشهر الذى أنزل فيه القرآن كما جاء فى قولة تعالى :

« شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِى أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ » (البقرة : ١٥٨)

وكيف لايكون من علامات هذا « الفرقان » بين الحق والباطل ، فى حياة المسلمين وأجيالهم — أن نعود بالهدى إلى صحة صوم رمضان ، غير متغيرين به عن حقيقته ، ولاحائرين عن حكمة الله فيه ، ولامنتكسين فى لياليه المطهرة عن فضائل القصد فى الطعام ، والاعتكاف والقيام ، من حيث سيبقى بيننا هو الشهر الذى كرمه الله بنزول القرآن ، ومن حيث أن أعداداً كبيرة من المسلمين المعتصمين بفضل الله ورحمته ؛ من أهل القرى ،

والبوادى ، وفى بادية سيناء بوجه خاص ، وممن لم يتلقوا بعض ماتلقاه أهل المدن من العلم ، لايزالون بما توارثوه عن آباء صدق لهم ، يحسنون الصوم ، ويحسنون العبادة والتآخى فى شهر الصوم ، ويحسن الله لهم على ذلك الجزاء بصومهم ، ويضاعف الحسنة والبركة لهم فى أيام رمضان المبارك . . وأيامهم . . .

* * *

السؤال الثالث :

« كيف تفسر مع تزايد الوسائل الاعلامية التى يستخدمها الدعاة ، المخلصون فى تكرار ترغيبهم فى فضائل الصوم ، وفى حسن الجزاء به عند الله — أن عدد المفطرين فى شهر رمضـــان يتزايد سنة بعد أخرى ، مع تهاون كثرة من الشباب فى صومه ، وجرأتهم على تركه ؟

ما هى الوسائل الأفضل فى الدعوة — كما تراها — لعلاج هذه الظاهرة فى تزايد تاركى الصـــوم ، كتزايد تاركى الصـــلاة والزكاة ؟

وما هو نصيب الدولة من عـــلاج هذا القصـــور المتفشى فى القيام بفرائض الاسلام وأركانه ، وبخاصة فى المدن ، وبين قطاع كبير من المتعلمين والمثقفين ؟ » .

الاجـــابة :

إن الترغيب فى الصوم كما يجتهد فيه الدعاة المخلصون لايزال قاصراً — رغم استخدامهم أفضل الوسائل الإعلامية — عن تحقيق أهدافهم وأهداف المسلمين معهم ، وذلك لسببين رئيسين ظاهرين :

أولها : أن الدعاة الموظفين من أئمة المساجد ، أو الدعاة المتحركين باسم الجماعات أو الجمعيات الإسلامية ، لايزالون — مع تعدد خلافات المسلمين بين أنفسهم على صراط واحد مستقيم ، لاخلاف فيه مع وحدة المصدر ، ولا انقسام عليه إلى تناقضات الشيع والفرق والسبل — إنهم

لايزالون أبعد عن أن يقدموا الرأى الجامع ، والأسوة الحسنة ، تجاه من تتنازعهم التيارات والأهواء ممن يستمعون إليهم ، وممن يستمعون أيضاً إلى غيرهم . . !

والسبب الآخر هو أن هناك من غير خفاء نشاط علمانى من جهات متعددة لتحييد موقف المجتمع من الدين ، والضغط على نشاط علماء الدين لعزلهم فى صورة « الغرباء » الذين نزلوا بالمظلات فجأة من كوكب « الماضى » السحيق ليتحدثوا عن أمر فرغ العالم — أى العالم الملحد — منه تماماً ، وهو هذا الدين . ومن الواضح أن أنشط هذه الجهات فى حرب الدين ، وبخاصة الإسلام ، هم الشيوعيون ، الذين يمارسون وهم ظاهرون فى العلن ، أوتحت العديد من الأقنعة والثياب التنكرية ، هذه الحرب المتواصلة على الدين ، وعلى شرائعه ، وعلى دعاته . .

رمضان المفترى عليه :

وفيا يتصل بهذه الإجابة عن أسباب تخلف أكثر أهل المدن عن الصوم فى السنوات الأخيرة ، على الرغم من صحوة الوجدان الدينى ، فإن بعض هذه الأسباب يرجع إلى تصاعد هذه الحملات السنوية على رمضان بمجرد إقباله وتحرك المفتى لإعلان ثبوت هلاله ، ذلك أن هذا الأمر المأمور به فى القرآن الكريم عن « ثبوت الصوم بشهود الهلال » أصبح هو أول الحكة على الأنف لإثارة غيظ هؤلاء المغيظين ، الذين ينشطون بكل وسائلهم داخل أجهزة الإعلام وخارجها ليفجروا هذه الألغام الموقوتة فى الهجوم

على الشهر المصطفى ، والشهر المنتصر ، بطول تاريخ المسلمين ، أملا كاذباً منهم فى إطفاء نوره ، وإسكات منائره ، وفض حشوده ، وحرمان هؤلاء المعتصمين بدينهم حتى من بقية الفرحة به ، والأمل فى الانبعاث يوماً إلى صحيح الإيمان بحكمة الله فيه إلى صحيح الصوم له . .

ثم يمضى هؤلاء المفترون « المتعلمنون » فى قذف رمضان بالحجارة من قريب أو بعيد . وإنها لقضايا حفظوها بالتلقين ، وابتلعوا تسجيلاتها بالثمن المدفوع . . ابتلعوها فى بطونهم المخمورة ، والمكتظة ، والمسعورة ، لكى يصيحوا بها ، ويكرروها سنة بعد أخرى ، فى وجه رمضان البطل الساخر بهم ، وفى وجه من اعتصموا برمضان من بقية المسلمين المستمسكين برجاء استجابة الله لهم . .

إن هؤلاء المفترين يرددون مثلا من هذه المفتريات مايسخرون به ممن يقولون من المسلمين إن من حكمة الصوم « صحة البدن » فيقولون لهم : إن هناك أكثر من طريقة عصرية من طرق التربية البدنية تؤدى — بغير تكاليف وأعباء رمضان — إلى صحة البدن — . . !

وهم يردون من مفترياتهم أيضاً على من يقولون بأن شهر رمضان يزيد من عطف الغنى على الفقير ، وذلك بقولهم إن هناك من الوسائل العصرية مايتم به — من غير تكاليف رمضان وأعبائه — تأمين حاجات الفقراء دون حاجة ما إلى هؤلاء الأغنياء . . ! !

وتبلغ تشنجات وحشرجات هؤلاء المفترين على رمضان مداها وهم

يرفعون الأصوات المشروخة باتهامه بأنه « شهر الكسل والنوم . . شهر كساد العمل . . وتعطيل الإنتاج » ! !

وفى أحد الأوطان العربية — بتأثير من هؤلاء الشيوعيين تمت محاكمة رمضان غيابياً ، وبتأثير الاستعمار ومستشرقيه أيضاً ، بهذه التهمة نفسها . . تهمة تعطيل الإنتاج . . فحكمت الدولة التعسة على رمضان وعلى الصوم بالإيقاف . . ولاتزال هذه الدولة المتعلمنة رغم إسلام مواطنيها تعانى من الفقر والتسول ، ومن الكساد . . وتوقف الإنتاج ! !

تعطيل الإنتـــاج :

فى عدد شهر رمضان من سنة ١٣٩٦ هجرية نشرت مجلة الاعتصام الإسلامية مقالا هادفاً حول هذه التهمة نفسها المفتراة على رمضان . . تهمة تعطيل الإنتاج . . وتراخى العاملين عن العمل . . وفى هذا المقال أشارت المجلة إلى أصنام تلك الدولة العربية التى قررت بعد محاكمة رمضان أومحاكمة رعاياها فى الواقع — إيقاف شهر رمضان بتهمة فظة ونابية هى « تعطيل الإنتاج » . . !

وفى هذا المقال — وهو المهم — أشارت المجلة إلى تواطؤ هذه الجهات التى تحارب بسلاح الافتراء بقية استمساك المسلمين بدينهم وعبادتهم .. وهى فى ذلك تقول :

« والتعرض لفريضة الصيام قد يسلك خططاً مختلفة . . فالرسامون الهزليون اليساريون لن يعدموا مناسبة يغمزون بها الصوم والصائمين ،

والتصوير الهزلى — بتوجيه من جهات معروفة — تعرض للإسلام وتعاليمه وشعاراته غير مرة .. والبلاء الوضيع يجىء من دور اللهو، « وبرامج اللهو » فسيغنى لرمضان ، وسيرقص لرمضان ، من لايعرف كثيراً ولاقليلا عن الصيام . . والسهرات الحمراء ، والتسالى الهابطة ، ستعكر الجوالطيب ، وتبعد ملائكة الرحمة فى كل مكان . . » !

ومعلوم فى قضية الإنتاج عندما نقيس معدلاته فى شهر الصوم ، ونقارن بينها وبين معدلات الشهور الأخرى فيه ، أننا فى حاجة إلى أن نقيس ذلك فى ضوء الدين والالتزام به ، وليس فى ظلمة الإلحاد والتردى فيه . ومثل هذا القياس الصحيح يقودنا إلى النتائج الآتية التى نذكرها بالإيجاز الذى يكفى المتبصر للتوسع فى الإضافة إليها :

أولا — إن وراء ضخامة الإنتاج فى العالم المتقدم نظما بالغة الدقة تعتمد كل دولة فى نجاحها لتحقيق أهداف هذا الإنتاج على « أيديولوجيات » هذه الدول عظيمة الإنتاج فى كل مجال، وهذه « الأيديولوجيات » التى تضخ فى أنفس المنتجين ، وفى عقولهم وحوافزهم يومياً ، هذه القابليات النشطة للعمل ، بغير فتور ولا استرخاء ولاتصادم — هى أديان العصر ، بعد أن ذهب بالإلحاد الشيوعى والعلمانية الأوروبية أثر الدين العام والخاص فى حياة المجتمع . .

ثانيـــاً : إن « أيديولوجية » المسلمين لاتزال مستقرة فى « دينهم » الذى لم يتخلف فى شرائعه الواضحة بين أيديهم عن أى مجال من مجالات مفهوم الإسلام لوحدة الدنيا والدين ، والدولة والمجتمع ، والسياسة

والاقتصاد ، وعن السبق الدائم لهذه الشرائع بالقياس إلى النتائج العملية والعلمية التي يحققها المعاصرون المتقدمون من أصحاب الأيديولوجيات المعاصرة والإنتاج الضخم .

ثالثاً : عودة المسلمين المخلصة إلى دينهم ، وربهم وشرائعهم ، بالفهم الذى لايختلفون عليه ، وبالتدرج الواثق الذى لايضلون به — هى التى تكفل تضاعف الإنتاج فى بلادهم ، بقوة إيمانهم بالله ، والذى يفوق إيمان أى شعب متقدم بأيديولوجيته الوضعية ، كما تكفل احتساب شهر رمضان من عوامل تنمية وتقوية هذا الإيمان ، باتجاه قوة الفرد وسلامته من الانفصام النفسى ، وقوة ووحدة المجتمع وسلامته من الانفصام الفكرى.

رابعاً : فى مثل هذا المجتمع — كما يأمل المسلمون أن يقيموا أركانه على شريعتهم وبأسوة رسول الله إليهم ، يعتدل ميزان النظر إلى الشهور ، ومنها وفى مقدمتها شهر رمضان ، وحيث يتيسر للمسلمين يومذاك أن يجدوا الحلول لتوزيع المسئولية واحتمالها ، بصحة الصوم وصحة أداء الضرورى من الأعمال فى نفس الوقت ، أى يتيسر أن يكون رمضان من الشهور الموجبة لراحة فريق من العاملين عن العمل ، بمثل مانجد اليوم من أهمية حاجة العاملين إلى الراحة والأجازات فى أشهر الصيف . إنه ليس من الضرورى أن يوقف « رمضان » أجازات الراحة والنزهة فى الصيف ، لأنه من الممكن ، ومن غير مشقة ، أن يتساوى رمضان — مرحلياً — مع أشهر الصيف فى مبررات منح الأجازات فيه للتفرغ للصوم ، وذلك من

أجل استنبات جهد جديد ، وصادق ، بالصوم الصحيح والمتطهر ، والآمن من اللغو فى رمضان . . . جهد مضاعف لبناء الرخاء ، وتسيير عجلة العمل ، ودفع سرعة التقدم . . بقوة مخزون الإيمان ، وقوة الحركة الجامعة بغير وهن .

الدعـــوة والأعـــلام :

ونعود إلى مايثيره السؤال من قصور الدعاة المخلصين عن تحقيق أهدافهم من حسن استماع العامة ومنهم الشباب إلى دعوتهم لهم بالتزام طاعة الله ، وقيامهم بأداء عباداته ، ومنها صيام شهر رمضان . فنقول إن هذا القصور راجع فى بعض أسبابه أيضاً إلى قصور سابق له فى إعداد هؤلاء الدعاة — رغم حسن نواياهم وصدق جهودهم — لهذه المهام التى تضاعفت بها الأعباء وتنوعت فئات الجماهير التى تبذل من أجلهم هذه الجهود،فوجب أن تتنوع وتتحسن وسائل هذه المواجهة ، وهذا الحوار ، مع جماهير — ومنهم الشباب — تنوعت مشاكلهم ، وتباينت أهدافهم ورؤيتهم . .

وإنه من الجدير بالذكر أن نشير إلى أن المسئولين عن إعداد هؤلاء الدعاة فى الأزهر وقياداته ، وفى وزارة الأوقاف والمسئولين عن الدعوة فيها ، قد انتبهوا أخيراً إلى هذا الأمر فى ضوء دراسة مفصلة ومشتركة ، وأن هذه الدراسة الشمولية لهدف إعداد « الداعية الكفء المعاصر » العالم بالقرآن ، والفقه ، والمذاهب الخطرة السائدة وكيفية الجدل مع دعاتها ، والأمراض الاجتماعية المتفشية فى المجتمع ، والطرق والعلاجات الدينية للقضاء عليها — تمضى على نطاق واسع ، وأنها وصلت فى حدود

ما أعلم إلى جذور الحل الصحيح ، الذى طال هجره والتخلى عنه ، وهو إعادة تأسيس مكاتب تحفيظ القرآن الكريم ، على أوسع نطاق فى القرى والمدن ، لتكون هى مصدر تزويد معاهد الأزهر من مرحلتها الأولى ، وهى المعاهد الابتدائية ، بالطلبة الحافظين حفظاً جيداً لقدر كاف من القرآن ، بحيث لاتنتهى مرحلة التخرج بهؤلاء الحافظين إلا وقد أتموا القرآن الكريم – كما ينبغى لهم – حفظاً وفقهاً ودراية ، بقدر مايكون من تسابقهم فيه ، ومن التدقيق فى اختبار حفظهم له ، قبل أن يحملوا اسم العالم بالدين ، ليخرجوا بهذا الإسم والصفة إلى أشرف العمل فى مجتمعهم وهو الدعوة الخالصة المسموعة المؤثرة إلى الله وطاعته ، وإلى أخلاق المؤمن وطهارة غاياته وصدق أسوته . .

هذا عن الدعوة التى قد تظهر آثار الرعاية الصادقة لرسالتها ، وإعداد الدعاة الصالحين للقيام بها ، قريباً ، فى بشريات الثمار الأولى لهذه الجهود المبذولة حالياً فى الأزهر ووزارة الأوقاف . . وأما عن الإعلام ، وأجهزته المتعددة ، فإنه لايزال – بسبب تعدد التيارات التى تتنازع بداخله فرصة الظهور والتأثير فى برامجه – لايزال فى أشد الحاجة إلى الإصلاح العاجل ، وبخاصة مع استمرار شكوى الجماهير مما يشيع فى أكثر هذه البرامج من التناقض الصريح مع أهداف الدولة فى دعم الأسرة ، وتزويدها من طريق هذا الإعلام المنتشر فى البيوت بما يزيد من ثقافتها القومية التى لاتخدش الأخلاق ، ولاتهز القواعد السليمة لتربية النشء . .

ولاشك أن تنظيم حركة الإعلام ، ورفع مستوى أهدافه ، مع تحديدها بحدود الأصالة والعصرية ، هو أمل عظيم على الطريق ، وعندئذ يمكن

أن نتصور اعتدال الأوضاع بالنسبة للمسيرة الناجحة للدعوة الدينية ، وذلك بأن تتضافر جهود أجهزة الدعوة وأجهزة الإعلام ، وهى تسير متوازية متعاونة نحو أهداف واحدة يتحقق بها إعادة بناء المواطن بناء سليما — وبخاصة بين الشباب — على أساس الدين : خلقاً ، وتعبداً ، وعملا صالحاً من أجل الجميع ، وألفة نامية بوحدة ونماء ورخاء الجميع .

الحضانات والقرآن :

وعندما نتحدث عن الوسائل الأفضل لمؤازرة الدعوة الصحيحة إلى الإسلام لتحقيق رسالتها من الإضاءة بالوعى الإسلامى ، ومن نشر وتعميم الخلق الإسلامى بين المسلمين ، نعود فنذكر إلى جانب ما أشرنا إليه من فطنة قادة الأزهر فى هذه الأيام إلى ضرورة استعادة « الكتاتيب » لتحفيظ القرآن الكريم ، ماهو من الضرورى ملاحظته من انتشار عدد من الحضانات الخاصة فى المدن ، وهى تكتظ بعدد كبير من الأطفال البنين والبنات ، دون أن تحكم مناهج إقامة الأطفال بها أية برامج صحيحة ومعتمدة لتنشئتهم وهم فى هذه السن السريعة التقبل لأى تشكيل صالح ، بدلا من تركهم هكذا فى رعاية بعض العاملات بدرجة « فراشة » تكون مهمتها الوحيدة منع تشاجر الأطفال حول المراجيح والألعاب الأخرى غير الداخلة فى منهج تربوى . . ذلك لأن الهدف الأسمى من هذه الحضانات فى نظر من يقيمونها ويشرفون عليها هو « التخزين الجيد والمضمون لهؤلاء الأطفال فترة عمل أمهاتهم فى الديوان أو المصنع لحين عودتهن لاستلامهم » !

هذا فى الوقت الذى يدرك فيه المسئولون عن التربية فى بلادنا أن « الحضانات » للأطفال مرحلة أساسية لتشكيل الطفل باتجاه مستقبله ، وعلى أساس من الدين أو « الأيديولوجية » التى يؤمن بها الشعب الذى ينتمى إليه — كيفما كانت بين الشرق والغرب فى أوروبا . .

ومعنى هذا أن الإفادة من نقل هذه المرحلة التربوية البالغة الأهمية إلى بلادنا ، نقلا صحيحاً غير سطحى ولا تقليدى ولا غبائى ، هو أن نجعلها هى البديل العصرى لهذه الحضانات الأولى التى سبقنا بها العالم الشرقى والغربى منذ مئات السنين ، وبأحدث الطرق التربوية — عدا وسائل اللعب الحديثة وأعنى بها ما أشرت إليه من هذه « الكتاتيب » التى عمرت بلادنا وشعوبنا بنعمة تحفيظ وتجويد القرآن منذ السن اليانعة للطفل ، والتى أنارت بلادنا وشعوبنا بكل ما توارثناه رغم الخطوب من الاعتصام بالدين والإجلال والتكريم لآية حفظ الله هذا الكتاب الكريم ، الذى نشأ وتربى فى ظله ونوره ، وفى هداه وحضانته ، الألوف والألوف من أفذاذ العلماء والقادة والمصلحين المسلمين عبر مئات السنين ، وحتى عصرنا هذا الذى نعيش فيه بقوة الاستمرار ، ونعمة اليقين . .

إذن فأول بناء صحيح للشباب هو فى استعادة كتاتيب تحفيظ القرآن الكريم فى صورتها العصرية الملائمة ، لتكون هى هذه الحضانات المؤسسة على تحفيظ القدر الميسر من كتاب الله ، بإضافة الإعداد التربوى السليم بأحدث وسائله المتسقة مع أخلاقنا وأصالاتنا ، وبهذه النظرة الواعية فى ضوء القرآن الكريم ، والدين الصحيح ، والخلق الملتزم ، إلى المستقبل الكبير

لهذه الأمة الأصيلة التي أحياها الله منذ فجر الزمان على هذه الأرض الطيبة وسط العالم ، لتحمل رسالة الحضارة الدينية ، وتنشر فى الأرض أعلامها ، وعلومها ، وآمالها . . إنه المستقبل الذى على النشء المسلم — منذ طفولته الواعدة النامية — أن يجد نفسه وهو ينظر إليه مرتبطاً بمسيرة هؤلاء المجاهدين لإطلاع شمسه ، وتحقيق آماله . .

التربيـــة الدينية :

والتربية الدينية مسئولية الشعب والدولة معاً ، فالأسرة والمجتمع مسئولان عن توفير هذه التربية للأجيال الناشئة فى ظل أمانة الآباء والأمهات عنها ، وبخاصة توفير تحفيظ القرآن الكريم لكل من الأبناء والبنات منذ الطفولة الباكرة ، وتعويدهم من الصغر على الصلاة والصوم ، وعلى محاسن الحديث والصدق ومكارم الأخلاق ، وحب النفقة لأصحاب الحق ، والإيثار بما فى اليد لكل صاحب حاجة ، ولأصحاب الحقوق . .

ولكن إلى أى حد يمكن للبيت والمجتمع — بغير معاونة الدولة — أن يوفرا للنشء هذه التربية الدينية الصحيحة المصادر والمنهج والأهداف . هذه التربية الأساسية فى تقويم نشأة الأجيال ، وتزكية قابلياتها ، وتنمية أفضل ملكاتها اللغوية والنفسية والعقلية باتجاه بناء الإنسان السوى ، والمواطن الصالح . . ؟

بل إلى أى حد يمكن أن تمضى الأسرة والمجتمع فى تقويم فلذات الأكباد من الأجيال الناشئة ، المهيأة بكل طاقاتها لأفضل الاستجابة لمناهج التقويم والترشيد .. فى الوقت الذى تكاد تهدم المدرسة فيه — ولاغنى عنها —

كل ما تستطيع أن تبنيه بعض الأسر ، وليس كل الأسر . . بينما توشك أجهزة الإعلام ، وبغير تقدير لفداحة ماتؤثر به بعض شطحاتها على أكثر النشء البرىء — أن تهدم الجزء الباقى من هذه الجهود الذاتية المبرورة لتعهد الطفولة — منذ المهد — بمقومات أصالتها ، وبالأسس التربوية الدينية لتصحيح اتجاهاتها . .

الدولة إذن تحمل مسئوليتها ، ولاتزال تحملها باتجاه الأفضل ، بشأن هذه التربية الدينية السليمة لجميع الأطفال منذ أول الوعى ، وبشائر النطق ، ولكنها لاتزال تواجه إلى اليوم بقايا المنظور وغير المنظور من العقبات التى تركها الاستعمار ، وهو يغرسها ، وينشط طفيلياتها فى كل مكان ، وبخاصة فى وزارة المعارف السابقة ، التى لاتزال تحمل آثار هذه السياسة الاستعمارية — رغم تغير اسمها إلى وزارة التربية والتعليم — أى آثار ضربة الاستعمار الأولى لركائز التعليم الثابتة فى بلادنا — قبل الاستعمار بمئات السنين على أساس وحدة التعليم الدينى والمدنى ، وليس الفصل المدمر بينهما .

لقد كان واضحاً من أول الأمر أن الاستعمار الغاشم كان يرمى إلى عزل التعليم الدينى مع الأزهر الشريف ورجاله فى جانب لايكاد يحس به أحد ، بينما وهو يخص التعليم المدنى بمهمة تصنيع الموظفين القائمين بحركة الدولة يقوم بتفريغ هذا التعليم من العنصر الأيديولوجى الأساسى — حسب القواعد التربوية الحديثة فى العالم المتقدم — أى تفريغه بالنسبة لنا من الدين ، وما يتبع ذلك — من تفريغه — كما حدث تماماً — من أى اهتمام جدى بتحفيظ القرآن الكريم ، أو بتعليم اللغة العربية بوصفها اللغة القومية ،

والسمة المميزة للإنسان المصرى العربى ، أو بتعليم التاريخ القومى الصحيح ، والبالغ الجاذبية بأمجاده ، لكى ينصرف الطالب الذى يجهل تاريخ وطنه ، وأرض آبائه وأجداده ، إلى الغرق فى التاريخ الأوروبى « عن هؤلاء القوط الغربيين ، والقوط الشرقيين ، وعن أخبار حروبهم ونزواتهم فى أوروبا ، ثم كم هو بالضبط عدد زوجات الملك هنرى الثامن الذى توفى سنة ١٥٤٧ ، والذى غاظ البابا بكثرة زوجاته . . ! ؟ »

أما عن التاريخ القومى لنا فى سيرة الرسل ، وفى حضارات مصر والوطن العربى ، وفى حروبنا الناجحة ضد الأعداء ، وثوراتنا للتحرر . . فلماذا . . وماقيمتها ؟ !

من أجل هذا لم يكن غريباً أن ينشط الاستعمار عقب ترسيخه الآثم لسياسته التعليمية فى إثارة الدعوة العلنية ، بأفواه عدد من عملائه من الخارج والداخل ، ومن رجاله المشتغلين فى الحكومة فى مرحلة الاستعمار الأولى — للتخلص من اللغة العربية الفصحى ، واعتماد اللهجة العامية « المريضة » لغة صحيحة للكتابة . وربما كان من أكبر البغى ، الذى تجرع الاستعمار الإنجليزى غصصه فيما بعد ، أن مهندساً انجليزياً كان يعمل بالرى اسمه ويلكوكس شغل نفسه إلى حد الهذيان بالدعوة إلى العامية ، والمناداة بها لغة صالحة للكتابة ، وبخاصة — كما زعم — الكتابة العلمية !

ولقد بلغ من بغيه فى محاولة إنجاز هذا الهدف الهدام للإسلام والمسلمين أنه كان يكتب بدعوته الآثمة هذه فى مجلة الأزهر ، بينما رجال الأزهر وعلماؤه مكرهون على الصمت رغم شدة استيائهم وغضبهم . بل لقد

زاد غرور ويلكوكس مهندس الري هذا ، ولأنه مهندس ري ، وهو يحاول أن يوقف جريان نهر النيل المتدفق من آلاف السنين ، أي نهر هذه اللغة العربية العذبة المبينة ، — وذلك لكي يسقّي المصريين بحذاقته وحماقته من مياه « برك ومستنقعات » اللهجة العامية — فلجأ في قاع هوسه ، وأحمق حماقاته ، إلى ترجمة بعض روايات شكسبير إلى اللهجة العامية « الكسحى » ، ثم أعدها للعرض على أحد مسارح القاهرة . . فمات أقرب المساعدين له من الضحك . . ولم يحضر أحد . . ومرض ويلكوكس من شدة العجب . . بينما أخذ يبكي خيبته بلهجة « عامية » . . فلم يفهمه أحد . . . ! ! !

ومع الأسف استمرت الحملة من أجل هذه العامية المريضة بقصد تقويض أحد مقومات الوعي الديني السليم إذا ماانتشرت وازدهرت اللغة العربية . . لقد استمرت بأقلام مصريين تعاقبوا للأسف على منبر ويلكوكس من بعده ، ومع ذلك فإن هذه الحملات الضارية على اللغة المشرقة التي يتلى بها كتاب الله صباح مساء لم تؤد إلا إلى عكس ماقصد إليه هؤلاء المنتكسون عن أصالتهم ، والمنفصمون داخل ذواتهم ، والضائعون عن أية حقيقة تمسك عن التيه والشتات عقولهم — أي إنها لم تؤد كما نرى اليوم من بعدهم إلا إلى ازدهار اللغة العربية ، وإلى سيرها إلى مزيد من الازدهار ، والإفصاح ، وكمال الأداء ، على حساب جميع اللهجات العامية . . في مصر وغيرها . .

إلا أن تسرب ، وترسب ، كل هذه التيارات العدائية للتربية الدينية

إلى وزارة المعـــارف ، بمنع قيامها فى ظل التعلم المدنى بوضع منهج سوى تعتمده الدولة لأبناء مواطنيها ، من الطفولة الباكرة وحتى الجامعة — لايزال يحول بكثرة العقبات الإجرائية ، وتعدد التيارات الفكرية ، دون مبادرة وزارة التربية بتحقيق هذا المنهج وهى مستهدية بما تفعل بغاية النظام القائم من تحرير الأجيال الشابة من العقد والخرافات ، وبالذات من المذاهب المستوردة والإلحاد ، وكذلك غاية النظام من صحة بناء المواطن الجديد على أساس الدين والعلم والأخلاق . . الأمر الذى نأمل أن يتغير تحت شمس العهد الجديد ، ومن أجل نماء ونقاء وبناء الجيل الجديد . . من أجل بنائه بالدين والإيمان ، والعلم والأخلاق ، والعدل والعمل . . لينهض هذا الجيل المستنير المتفائل فيبنى على أرضه الطيبة ، حياة الرخاء والتقدم والسلام ، لشعب مصر المؤمن الأصيل . .

المهتدون الهداة :

هكذا تقوم الدولة بمشيئة الله وبالتدرج المطمئن ، موفورة الجهد ، ومشكورة القصد ، بنصيبها من علاج هذا القصور المتفشى بالنسبة للكثيرين من المواطنين تجاه واجب قيامهم بفرائض الإسلام وأركانه ، وبخاصة فى المدن ، وبين قطاع كبير من المتعلمين والمثقفين . إنه عندئذ سوف يتم ، على نهر من الوعى والحب ، تضافر الدولة والشعب ، فى وحدة متسقة تجمع كل الأفراد والأسر ، ليتخلق بكل جهادهم وعملهم هذا المناخ الدينى والأخلاقى ، الحافز والملائم لبناء « مجتمع المؤمنين » ، ولبناء الإنسان الجديد داخل هذا المجتمع المتجانس ، والمستبشر ، والذى

يتحرك بكل أسره ، وأفراده ، وقياداته فى كل مجال ، مستنيراً بمنارة القرآن الكريم ، ومستضيئاً بمشرق شمس الإسلام ، والأخلاق ، والسلام ليستكمل نعمة الله عليه ، بغير ريبة ولا حيرات ، وبغير تيارات مذهبية ولاظنون ، وهو يبنى باليقين الدينى ، والمنهج العلمى ، أسس وصرح هذا المجتمع المؤمن المنشود ، القادر بوحدته وحيويته وإيمانه على هذه المواجهة الحضارية لكل تحديات خصومه ، وتحديات السلام والرخاء على أرضه ، وبخاصة هذا التحدى الحضارى والأيديولوجى من أقرب خصومه بالأمس . . أى من إسرائيل التى لاتزال لاتدرى — على المدى القريب والبعيد — هل هى تريد السلام حقاً . . كما نريده ! ؟

فى مشرق شمس الإسلام من جديد ، وحيث يتوحد بجهد الدولة وجهاد الشعب هذا العمل الصالح بأيدى وعقول وقلوب أبناء الوطن جميعاً وهم يرفعون على الأساس من « تقوى الله ورضوانه » هذا الصرح الشامخ المنير لمجتمع العلم والإيمان ، والسلام والعمران — يصبح كل بيت مسجداً للعبادة ، وكل مسجد معهداً للعلم ، وكل مدرسة وكلية مصلى مطهراً للتربية والإعداد ، ومغرساً وروضة لازدهار الحق واليقين فى العقول والقلوب . .

إنه فى مشرق شمس الإسلام حقاً يصبح الجميع من الأخوة والأخوات، ومن الآباء والأمهات ، ومن الأزهريين والجامعيين ، ومن اليدويين الحرفيين والمثقفين : مدعوين ودعاة ، ومهتدين وهداة . . يصبح كل مواطن مؤمن راشد حافزاً لأخيه ، وأسوة لشعبه . . بينما تعود حول

منارة القرآن الكريم – الذى لن يتخذه المؤمنون مهجوراً بعد اليوم – هذه العبادات الكاملة الأداء بأجمعها ، من صلاة وزكاة ، ومن صوم وحج ، لتتسق فى أدائها وجلائها مع ماتشرق به على وجوه الأفراد ، والجماعات ، من حكمة الله فى فريضتها وهيئتها ، لتكون متطهراً ودعاء ومجمعاً للمسلمين كل يوم ، وكل شهر ، وكل سنة ، وهم يسلمون بها وجوههم مخلصين إلى الله الرحمن الرحيم ، فى أسرة كبيرة واحدة متآخية ، بمثل مادعاهم إليه فى قوله :

« وَمَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدَ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى ». (لقمان : ٢٢)

إنهم يسلمون إليه ، مذعنين مستبشرين بإسلامهم هذا ، لأن به غاية الهدى إليه فى قوله سبحانه :

« قُلْ إِنَّ هُدَى اللهِ هُوَ الْهُدَى وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ »
(الأنعام : ٧١)

ثم يبقى أخيراً فى تمام الإجابة عن هذا السؤال أن شهر رمضان ، المصطفى بنزول القرآن ، وبالصوم بين الشهور والأزمان ، سوف يستعيد إن شاء الله فى هذا المجتمع المؤمن كل ما كان له من بهاء حكمة الله فى فرضه ، وفى صدق أدائه ، وذلك حيث هو طريق الصائم إلى : « إعلاء سيادة الإيمان فى إرادة ومواقف ووجهة وغايات حياة المؤمن . »

وَالْحَمْدُ لِلهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ .

* * *

اسماء اوائل الفائزين المشتركين فى العدد السابع

الأسماء مرتبة ترتيبا ابجـــديا

الاســـم	المهـــنة	جهـــة العمل
إبراهيم إبراهيم السباعى	رئيس حسابات	الإدارة المالية – الهلال
إبراهيم حسن إبراهيم علام	براد	فرع شبرا
ابراهيم مصطفى أبوسبع عوض	كاتب	إدارة التركيبات
أبوالفتوح عبد الرحيم عبد الله	كهربائى	إدارة الطرق
أحمد طه بدر فرج	أمين مخزن	الإدارةالعامة– وحدة الزراعة والتشجير
أحمد عبد اللطيف حسين	مشرف فنى تنفيذ	فرع طنطا
أحمد عبد الله سعيد زايد	موظف	التأمينات الاجتماعية
أحمد عبد المقصود عثمان	مراقب فنى	إدارة التركيبات
إخلاص كمال عبد ربه	رئيسة قسم	التأمينات الاجتماعية
إسماعيل عبد القادر ابراهيم	سائق معدات	إدارة المحاجر
حسنين أحمد حسنين	محاسب	إدارة التركيبات
حسن أحمد شاهين	محاسب	إدارة الترسانة البحرية
حسنين سيد حسنين	براد	فرع شبرا
حسنى محمد سالم	سمكرى تكييف	فرع حلوان
حمدى صابر عبد الحفيظ	موظف	الإدارة العامة
خضرى منصور السيد	مشرف زراعى	الإدارة العامة

الاسم	المهنة	جهة العمل
رمضان عبد العزيز رمضان	مدير مالى مساعد	فرع القاهرة
زكريا محمد الطباخ	مشرف حراسات	فرع الإسكندرية
زهير أحمد حسين الحناوى	مدرب ميكانيكا	فرع شبرا
زينهم يوسف حسن	مساح	وحدة الزراعة – الإدارة العامة
سلوى أمين صبيح	سكرتارية	فرع مدينة نصر
سعد حسن أحمد	مشرف حراسات	فرع القاهرة
سعيد العليمى محمد العطار	أمين مخزن	إدارة الكراكات المائية
سعد معوض على	حداد	منطقة شبرا الخيمة
سعيد محمد محمد حسنين	موظف	إدارة التخطيط والمتابعة
سكينة عطية الشهابى	سكرتارية	الإدارة العامة للتخطيط والفنية
السيد عبد العزيز محمد نجيدة	فنى أول	إدارة التركيبات
سمير على أبو العلا أحمد	مراجع حسابات	إدارة المخازن
سيد فهمى محمد سلومة	سكرتير أول	فرع حلوان
السيد محمد ابراهيم الأشمونى	براد	إدارة الكراكات المائية
سيد محمد محمد عثمان	أمين مخزن	فرع شبرا
شعبان سعد عطية	أمين مخزن	فرع القناة وسيناء والإسماعيلية
شعبان عطا محمد حجازى	ممرض	فرع القاهرة
شكرى ابراهيم القطان	موظف	معهد تدريب الهرم
الصاوى جلال فارس	رئيس تفتيش	فرع القاهرة
صبرى صالح أبو عيد	مدرب نجارة	مركز تدريب الوجه البحرى طنطا
صدق عدلى عيسى محمد	—	—
صلاح عدلى سليمان	مشرف فنى زراعى	الإدارة العامة – وحدة الزراعة
ضحاوى محمد ضحاوى	سائق	إدارة المشتريات – الهلال
عادل أحمد حلمى عبد المقصود	أمين مخزن	إدارة الكراكات المائية

الاسم	المهنة	جهة العمل
عادل منصور محمد منصور	مهندس معمل	إدارة الاستشارات الهندسية
عاطف عبد العزيز على	مهندس ميكانيكى	الإدارة العامة للشئون الميكانيكيةعدلى
عبد الجليل عبد العاطى أبو المجد	عامل تليفونات	فرع شبرا
عبد الحافظ فوزى عبد الحافظ	مهندس	إدارة المياه والصرف الصحى
عبد الحكيم محمد أحمد مصطفى	مساعد أمين مخزن	فرع القاهرة
عبد الحميد بن الإمام عطعوط	أمين مخزن	فرع شبرا
عبد الراضى حسن عبد السلام	مشرف حراسات	فرع حلوان
عبد السميع عبد الغفار محمد أبوزيد	براد ماكينات	فرع شبرا
عبد السلام السيد محمد	وناش	فرع شبرا
عبد السميع محمد أبو النجا	سائق	إدارة الأساسات الميكنيكية
عبد العزيز عبد الحميد عبده عطية	كهربائى	كسارة الهرم
عبد الفتاح محمد عبد الغنى سالمان	ساعى	عمارة عرابى
عبد القادر عبد المقصود الديب	رئيس قسم المعاشات	التأمينات الاجتماعية
عبد الله ابراهيم محمد غريب	براد تركيبات	إدارة الكراكات المائية
عبد الله حسين محمد البراوى	أمين خزينة	مخازن الفيوم – فرع القاهرة
عبد الله محمد بشندى عمران	مهندس تنفيذ	إدارة المياه والصرف الصحى
عبد المنعم ابراهيم عبد المنعم	كاتب أول شراء	العلاقات العامة – الإدارة العامة
عبد المنعم محمد على	مناول ماهر	مخازن شبرا – فرع شبرا
عبد الناصر عبد الحميد عبدالهادى	صبى نجار	المعصرة
عبده يونس السيد	ملاحظ ميكانيكى	كسارة الهرم
عبد المهدى عبد الله الخولى	مراجع التعاقدات	إدارة المشتريات
عصام عبد العزيزفؤاد عفيفى	مهندس مدنى	إدارة المياه والصرف الصحى
عفيفى عطية حسين خميس	كهربائى تركيبات	فرع حلوان

الاسم	المهنة	جهة العمل
علاء الدين السيد حامد أحمد	كاتب شئون عاملين	الإدارة العامة – وحدة الزراعة
على علوان محمد جميل	عامل عادى	إدارة التركيبات
عيد السيد عوض الزعويلى	مشرف فنى تنفيذ	فرع طنطا
فراج السيد رجب	فنى تكييف	إدارة التركيبات
فرج محمود أبو طالب	عامل	عمليات الفيوم – فرع القاهره
قدرى مهدى عبد المتجلى	سائق	إدارة التركيبات
كامل الضمرانى محمد	كاتب بوابة	عملية الكوك – فرع حلوان
مجدى محمد رؤوف أبوالليل	محاسب	الإيرادات – فرع القاهرة
محروس سعد مصطفى	حداد مسلح	إدارة المبانى والبيوت الجاهزة مستشفى الشركة
محمد أحمد ابراهيم	سائق أول سيارات	إدارة الكراكات المائية
محمد أحمد زكى ابراهيم	كهربائى سيارات	ورش الصيانة – فرع شبرا
محمود أحمد عثمان عبد الله	محاسب	فرع شبرا
محمد أحمد عبد الغنى الشبراوى	براد أول	إدارة التركيبات
محمد أيمن محمد ماضى	سكرتير	إدارة المخازن
محمد حامد عبيد الله	رئيس أقسام المخازن	إدارة المحاجر والخرسانة الجاهزة
محمد حفنى مهدى	مهندس	إدارة التركيبات
محمد خضر محمد عبيد	كاتب حسابات مخازن	مراقبة مخازن – فرع القاهرة
محمد سامى أمين محمد النشوى	رئيس قسم المتابعة	مراقبة مخازن – فرع القاهرة
محمد صالح محمد على	لحام كهرباء	إدارة الطرق
محمد عبد الحفيظ على	لحام كهرباء	إدارة التركيبات
محمود عبد الله زقزوق	مهندس	المكتب الفنى . فرع طنطا – الزقازيق
محمد عبد المقصود مرسى	رئيس قسم مالى	إدارة الكراكات المائية
محمد عبد الهادى عبد ربه	أمين مخزن	إدارة التركيبات

الاســم	المهــنة	جهــة العمل
محمد عزت محمد عبد الوهاب	فرمجى بلاط	الجبل الأخضر–مصنع البلاط– إدارة المبانى والبيوت الجاهزة
محمد عطوة عبده	مشرف أمن صناعى	عملية الغاز الطبيعى – فرع حلوان
محمد على اسماعيل	مراجع حسابات	إدارة المخازن الهلال
محمد على يوسف السعدى	براد	قسم الآلات – فرع شبرا
محمد فكرى محمد حسن عجينة	رئيس مركز تدريب السائقين	معهد تدريب الهرم
محمود محمد عبد العزيز	مهندس مدنى	الاستشارات الهندسية
محمد موسى عبد الكريم	أخصائى استيراد	الإدارة الميكانيكية
مراد محمد عبد الكريم	عامل	إدارة المشتريات
محمد نور الدين رضوان	عتال فنى	إدارة الكراكات المائية
مسعد اسماعيل حسن	مهندس ميكانيكى	عمليات الزقازيق – فرع طنطا
مصطفى بكر ابراهيم بكرى	نقاش	عمليات الزقازيق – فرع طنطا
مصطفى حسن أحمد	مدير مالى مساعد	إدارة التكييف والتبريد
مصطفى شبل السيد جبريل	أمين مخزن	إدارة المياه والصرف الصحى
مصطفى صبرى عجمى	مساعد براد	فرع شبرا
مصطفى على ابراهيم	أمين مخازن	منطقة الزقازيق – فرع طنطا
مصطفى كامل سليمان	حسابات مخازن	فرع مدينة نصر
مصطفى محمد أبو سلام	مدير مالى مساعد	إدارة المخازن
مهدى أمين محمد ابراهيم	خراط ثان	فرع شبرا
يوسف محمد حنس	أمين مخازن	إدارة الكراكات المائية

الأزهــر
مجمع البحوث الاسلامية
ادارة البحوث والنشر

بسم الله الرحمن الرحيم

السيد المهندس حسين أحمد عثمان رئيس مجلس إدارة شركة المقاولون العرب عثمان أحمد عثمان وشركاه .

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته . . . وبعد :

فقد اطلعت على كتاب « مع القرآن الكريم رؤية مستنيرة لحقائق الإيمان والحياة ، العدد السادس الطبعة الأولى ١٣٩٨ ﻫ - ١٩٧٨ م .

ولقد حمدت الله كثيراً أن رأيت جنوداً لله ينشرون دينه ويجلون أسراره ويظهرون محاسنه وأفضاله ويعرفون بشمائل رسول الله صلى الله عليه وسلم وفضائله وخصاله الشريفة ومآثره الحميدة التى كانت ولا تزال نبراساً وهدى ونوراً للبشرية فى عصورها المختلفة وأزمانها المتعاقبة وهى باقية على جدتها آخذة بيد الإنسانية على تباين الدهور واختلاف البيئات وتنوع الحضارات والمذاهب لا تزال رائدة للإنسانية تهديها إلى الجادة وسواء الصراط .

وإن من توفيق الله تعالى أن اتخذ هؤلاء الجند كتاب الله مصدراً لدراستهم وأساساً لبحثهم ومرجعاً لهم « لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد » تكفل الله بحفظه « إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون » وهو الهادى إلى الطريقة المثلى والمنهاج الحق « إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم » لاميل فيه ولا حيف « قرآنا عربياً غير ذى عوج » .

إذن لا غرو أن جاءت البحوث الستة أسئلتها وأجوبتها فى دقة دقيقة وإحاطة شاملة وصياغة رصينة وعبارة سليمة مع التزام تام بما هو متفق عليه بين جمهور المسلمين دون ميل أو شطط أو تطرف أو زلل وفى الحق إن هذا لأمارة على كمال التوفيق وآية على صدق النية وتمام الإخلاص.

ومما يدعو للعجب حقاً أن نرى « المتماولون العرب – عثمان أحمد عثمان وشركاه » يقومون فى مجال البناء والتعمير بالنصيب الوافر والعمل الجيد المشكور ، وفى الوقت نفسه يسهمون فى ميدان الدعوة إلى الله ببناء المسلم بالجهد الطيب والحكمة والموعظة الحسنة والعمل المبرور المأجور وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء .

وحسبهم أنهم قد جمعوا بين الحسنيين وفازوا بالكفلين ونالوا الأجرين ، ثم لهم من الله حسن المثوبة وكمال الأجر . وإلى مزيد من الخير والبر والفضل والرعاية والعناية والتوفيق .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

تحريراً فى { ٣ من رجب سنة ١٣٩٩ هـ ٣٠ من مايو سنة ١٩٧٩ م .	مدير إدارة البحوث والنشر

« عبد المهيمن محمد الفقى »

يسر المركز الثقافى أن يتقدم بخالص الشكر إلى إدارة البحوث والنشر بالأزهر الشريف

محتويات بحوث العدد السابع

الموضوع — الصفحة

الموضوع — الصفحة

بحوث القسم الثانى
القرآن الكريم والتفكر

ويجيب عنه الدكتور السيد رزق الطويل المدرس بجامعة الأزهر

ورئيس جمعية دعوة الحق الإسلامية

بحوث القسم الرابع
القرآن الكريم واللغة العربية

يجيب عنه الدكتور محمد رشاد خليل أستاذ الثقافة الإسلامية
بكلية التربية بجامعة الرياض

الموضوع الصفحة

بحوث القسم الخامس

القرآن الكريم والمجتمع

يجيب عنه الكاتب الإسلامى الأستاذ أحمد موسى سالم



بحوث الأعداد التي صدرت عن المركز الثقافي

المقاولون العرب

بحوث العدد الأول

- حول القرآن الكريم
- القرآن الكريم والتاريخ
- القرآن الكريم والقومية العربية
- القرآن الكريم والإيمان
- القرآن الكريم والمجتمع
- القرآن الكريم والجهاد

بحوث العدد الثاني

- القرآن الكريم والإيمان
- القرآن الكريم والعلم
- القرآن الكريم وحقوق الإنسان
- القرآن الكريم والحضارة
- القرآن الكريم والقومية العربية
- القرآن الكريم والمجتمع

بحوث العدد الثالث

- مع القرآن الكريم حول أسمائه وصفاته
- القرآن الكريم والعلم
- القرآن الكريم واقتصاد المجتمع
- القرآن الكريم والقومية العربية
- القرآن الكريم والشريعة
- القرآن الكريم والبيان

بحوث العدد الرابع

- القرآن الكريم والإيمان
- القرآن الكريم والدعوة
- القرآن الكريم والأسرة
- القرآن الكريم والعمران
- القرآن الكريم والاقتصاد
- القرآن الكريم واللغة العربية

بحوث العدد الخامس

- القرآن الكريم والتاريخ
- القرآن الكريم والمجتمع
- القرآن الكريم والتدبر
- القرآن الكريم واللغة العربية
- القرآن الكريم وعلم الغيب
- القرآن الكريم والأمومة

بحوث العدد السادس

- القرآن الكريم وسيرة النبي
- القرآن الكريم وبرهان الإيمان
- القرآن الكريم واللغة العربية
- القرآن الكريم والتدبر
- القرآن الكريم والمجتمع
- القرآن الكريم وبنو إسرائيل

بحوث العدد السابع

- القرآن الكريم وسيرة إبراهيم
- القرآن الكريم وشهر رمضان
- القرآن الكريم والتفكير
- القرآن الكريم والمجتمع
- القرآن الكريم واللغة العربية

بحوث العدد الثامن

- القرآن الكريم وأهل البيت
- القرآن الكريم وبنات شعيب
- القرآن الكريم والروح
- القرآن الكريم والسعادة
- القرآن الكريم والقرن الخامس عشر

إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه

رسالة إلى المرأة المسلمة

يقول الله سبحانه وتعالى

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥٩﴾ الأحزاب

رسالة إلى القارئ الكريم

أيها القارىء الكريم :

- **عليك أن تقرأ ما فى هذا الكتاب لتفهم .**
- **وأن تفهم . . لتعلم**
- **وأن تعلم . . لتعمل**
- **وأن تعمل لتزداد بالعمل علما . . ومن الله قربا**

أيهـا الأخ القـارىء : أكتب الينا بعد القراءة برأيك :

- **إذا وجدت خطأ تنبهنا اليه .**
- **أو جديدا تنصح باضافته .**
- **أو اقتراحا مفيدا تدعو إلى الأخذ به .**
- **وعن رأيك فى هذه التجـربة الرائدة . . وهل تسير - بفضل الله - من حسن . . إلى أحسن ؟**

أيها القارىء الكريم :

ستجد أننا فى نهاية الكتاب الرابع قد نشرنا البيان الصحيح عن « ترتيب نزول السور » فى القرآن الكريم ، وذلك استجابة لطلب الكثيرين من القراء الذين أرادوا بعد أن قرأوا عن حقائق ليلة الإسراء العظيم فى الكتاب الثالث ، مؤيدة بنصوص القرآن ، ووقائع التاريخ ، ومجردة من الاسرائيليات والشعوبيات والخرافات - أن يتأكدوا من صحة ما نشر عن سورة ' النجم ' التى يستند إليها بتأويل آياتها عدد كبير من العلماء التقليديين ، وهو نزولها قبل سورة الإسراء ببضع سنين ، وبذلك يسقط تماما هذا الاحتجاج الباطل بتأويل آياتها باتجاه الإسراء ، مع أنها تعنى فى محكم الكتاب أمرا آخر لاعلاقة له بهذه الآية المباركة . .

ودائما نرحب برأيك ، ونستفيد من ملاحظتك . . ونجيب على تساؤلاتك . . أيها الأخ القارىء . . الكريم

* * *

الخاتمة

الحمد لله رب العالمين

وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب

قل لا أسألكم عليه أجرا إن هو إلا ذكرى للعالمين

ويا قوم لا أسألكم عليه مالا إن أجري إلا على الله

ولولا فضل الله عليكم ورحمته ما زكى منكم من أحد أبدا

ربنا اغفر لي ولوالدي وللمؤمنين يوم يقوم الحساب

فسلموا على أنفسكم تحية من عند الله مباركة طيبة

وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين

(قرآن كريم)

رقم الايداع بدار الكتب
١٩٨٠ / ٣٢٣٩

